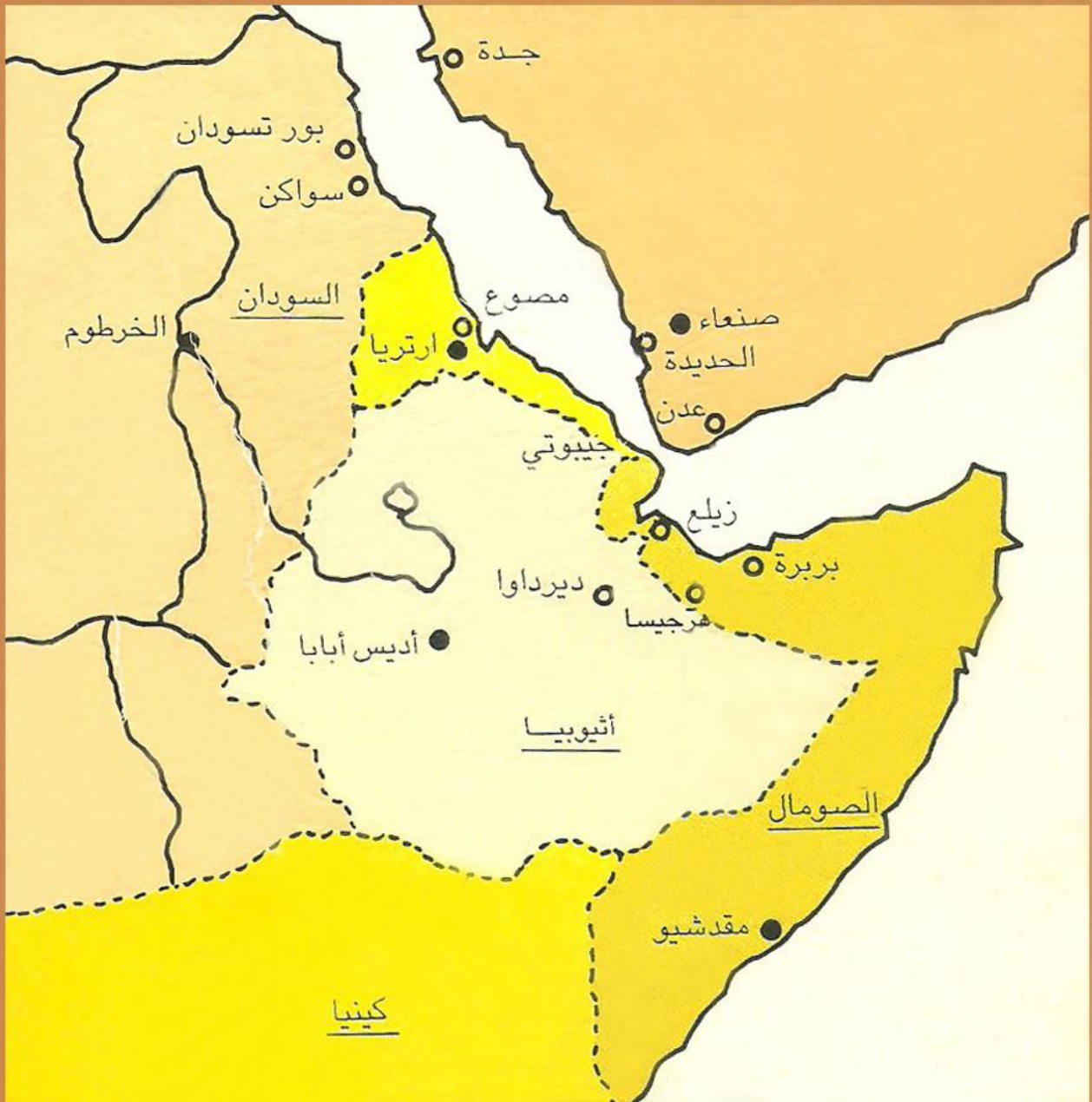


إسلام وبقية والاسلام بالقرن الإفريقي



بمقلم
محمد سعيد ناود

تمهيد

العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي تُعتبر عنواناً أكبر من البحث الذي يحتويه هذا الكتاب. ولكن ما يرد في هذا الكتاب يُعتبر مدخلاً للمزيد من البحوث لاستكمال الموضوع وإعطائه حقه وإشباعه بحثاً وتوثيقاً. والعربية أو العروبة التي يشملها بحثنا ليست دعوة عنصرية.

ولكنها حضارية ثقافية تاريخية. فالعنصرية والنازية هما اللتان تميزان بين البشر على أساس اللون والملاح والمزايا. والعروبة أبعد ما تكون عن هذا المفهوم المنحرف الذي عانت ولا تزال تعاني منه البشرية. غير أن العرب تُعتبر أن كل من يتكلم العربية فهو عربي ويؤكد ذلك الحديث الذي رواه الحافظ بن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال : [هؤلاء الأوس والخزرج قاموا بنصرة هذا الرجل، فما بال هؤلاء ؟ فقام إليه معاذ فأخذ بتلابيبه حتى أتى به الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبره بمقولته. فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضباً يجر رداءه حتى دخل المسجد ثم نودي (الصلاة الجامعة) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس إن الرب واحد وإن الأب واحد وإن الدين واحد ألا وإن العربية ليست لكم بأب ولا أم إنما هي لسان فمن يتكلم بالعربية هو عربي ". فقال معاذ وهو أخذ بتلابيبه (ما نقول في هذا المنافق ؟). قال : دعه إلى النار]. فكان ممن ارتد فقتل في حرب الردة.

والذي يؤكد بأن العروبة لا علاقة لها بالعنصرية هي الهجرات العربية التي شملت أجزاء واسعة من العالم خاصة بعد ظهور الإسلام. وتلك الموجات من المهاجرين لعبت دوراً رائداً حضارياً وثقافياً واقتصادياً. والعرب والمسلمون كانوا سباقين في هذا المضمار؛ فعندما كانت أوروبا في عصر الظلام والهمجية والتخلف فإن العرب والمسلمين هم الذين نقلوا لها الحضارة والثقافة في الأندلس والتي لا تزال آثارها باقية حتى اليوم. كما أن العرب هم الذين سبقوا الغرب في الاختراعات والعلوم والرياضيات والفلك والطب.

وعندما كان العرب يرتادون مختلف القارات حيث امتدت دولة الإسلام فإننا لم نسمع بأنهم ميزوا بين البشر على أساس عنصري. وعلى العكس من ذلك تماماً كان سلوك الغرب الذي بحروبه الصليبية مؤججاً الصراع بين الأديان ثم تبعه بتجارة الرقيق والتي كانت امتهاً فاضحاً للبشر وختمه بالاستعمار الذي كان استعباداً مكشوفاً للشعوب !

تتميز أرض العرب بخصائص قلما تتوفر لغيرها. فهي تقع في قلب العالم في منتصف الكرة الأرضية بين الشرق والغرب. وهي أيضاً أرض الحضارات والرسالات السماوية حيث أن كل الأنبياء ظهوروا في هذه المنطقة. وقد حباها الله بخيرات لا تُعد ولا تحصى فهي منطقة تتميز بالأرض الشاسعة ثم الكثافة البشرية والعراقة في الحضارة والتاريخ. كما تمتلك الثروة الحيوانية والأرض الزراعية ومصادر المياه وأخيراً الطاقة المتمثلة في

بحيرات من البترول مما زاد في أهميتها. ولكل هذه المزايا فإننا نلاحظ بأن شعوب هذه المنطقة تمتلك مناعة ضد الاضمحلال بل تتمتع بالحيوية والاستمرار والنهوض بعد السقوط رغم تكالب قوى الشر عليها في مختلف العصور، فهي منطقة ليست خامدة أو هامة بل هي في حركة دائمة وارتداد الآفاق.

وعودة إلى موضوع هذا البحث (العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي) أود الإشارة بأن القرن الإفريقي يقابله القرن العربي وكلاهما في جسد واحد رغم الشريط المائي الضيق الذي يفصل بينهما في بوزغاز باب المندب. والبعض يعرف القرن الإفريقي بالصومال وجيبوتي وإثيوبيا وإرتريا، وهذا تعريف مبتور حيث أن السودان ومصر جزء لا يتجزأ عن المنطقة التي يتم تعريفها بالقرن الإفريقي تاريخاً وحضارة وثقافة ومصيراً ومصلة وتأثيراً وتأثراً. كما أن الشاطنين الشرقي والغربي للبحر الأحمر يرتبطان مصيراً وثقافات وحضارات وتاريخ وأديان ومصالح في الماضي والحاضر. ولذا فإن النبذة القصيرة التي أوردناها في صدر البحث هذا عن الجزيرة العربية من ممالك وأديان وخلافها نجدها منعكسة لدرجة التطابق في الشاطئ الآخر للبحر الأحمر. وإذا كان هناك تاريخ محلي لأي من أقطار القرن الإفريقي وأقطار الجزيرة العربية فهناك أيضاً التاريخ العام - أي الأحداث الكبيرة وهي تشمل المنطقة بكاملها وبهذا يصبح تاريخها واحداً.

وما تطرقنا إليه من الأحداث التي مرت بمنطقة القرن الإفريقي ليس سرداً لتاريخ العروبة والإسلام بهذه المنطقة؛ لأن ذلك مسجل ومعروف وحفلت به الكثير من الدراسات والبحوث والوثائق، ولكن ما أوردناه هو ما يفيد الربط بين الجزيرة العربية والقرن الإفريقي.

كما أن الهدف من التطرق لمواقف وأحداث وحقب من تاريخ المنطقة هو تبصير وانتشال الجيل الحالي من الضبابية والغموض حول هويته وتاريخه وانتزاعه من التفكير القطري الضيق وربطه بمحيطه الواسع. وهذا مرتبط تماماً ليس بماضيه وحسب بل بحاضره ومستقبله. ولذا عندما تطرقنا للحديث عن البجة أو أكسوم والممالك الأخرى التي قامت بالمنطقة فقد لمسناها لمساً خفيفاً فيما يربطها بالعرب وفيما يخدم أهداف هذا البحث ولم نتناولها بإسهاب أو بأسلوب السرد التاريخي، وإن الفكرة الأساسية لهذا البحث تدور حول عروبة وإسلام القرن الإفريقي : المصير المشترك - التاريخ المشترك - المصالح والمستقبل المشترك.

ولأهمية هذه المنطقة وموقعها الاستراتيجي وما تحويه من خيرات فقد تنافست عليها القوى الكبرى في كل العصور؛ بل حاولت الهيمنة عليها، ومثالاً لذلك الفرس والرومان والبرتغاليين والأتراك ثم الاستعمار الأوربي في القرن الماضي ثم الصراع بين الشرق والغرب في مرحلة الحرب الباردة وقبل انهيار المعسكر الشرقي. وهذا النوع من الصراع والتنافس المدفوع بالمصالح وبسياسة الهيمنة لازال قائماً، والدوائر الطامعة في خيرات هذه المنطقة اتبعت سياسية (فَرِق تَسُد) الاستعمارية وأبرز مظهر لذلك هو إثارة

الشكوك والحساسيات ضد العروبة والإسلام، وافتعال معارك بين الإسلام والمسيحية، ومعارك أخرى بين العرب والزنوج، وهذه السياسة لم تكن إلا مؤامرة رسمتها وحاکتها ونفذتها ولا تزال تنفذها حتى اليوم الدوائر الطامحة والطامعة في خيرات القارة الإفريقية وإبعادها عن المحيط العربي والإسلامي الذي لم يكن في يوم الأيام سبباً من أسباب التخلف بقدر ما كان يحمل دوماً مشاعل الحضارة والثقافة. وإن هذا الوهم بوجود صراع عربي زنجي وصراع إسلامي مسيحي وتغذيته، هذا الداء مطلوب اجتثاثه من جذوره؛ فالسلام والتعايش بين الأديان تقره الشرائع السماوية، كما أن الصراع حول اللون والعنصر لا وجود له إلا في أذهان المخططين للمحافظة على تخلف وتمزق وانقسام شعوب المنطقة.

إن الحدود الجغرافية بين أقطار القرن الإفريقي هي حدود مصطنعة، وقد صنع معظم هذه الحدود : الاستعمار الأوربي في القرن الماضي، وليس هذا في القرن الإفريقي وحسب بل في كل إفريقيا، وهي حدود وهمية عطلت التمازج والانصهار والتفاعل بين شعوب هذه المنطقة، وخلقت بينها فواصل وحواجز وحساسيات ساهمت في التخلف وأضاعت الجهد والوقت في صراعات هامشية مثل عقلية التوسع على حساب الجوار والتي تشبّع بها بعض الحكام المحليين وخاضوا حروباً منهكة لهذه الشعوب، وحتى من امتلك الأرض الشاسعة بعد أن توسّع على حساب جيرانه فإنه حافظ على التخلف ومنع التطور والتقدم عن رعاياه !

وإن خطر سياسة وضع الحواجز بين الشعوب يتمثل فيما فعله البريطانيون في السودان بالفصل بين شماله وجنوبه ووضع قانون المناطق المقفولة على مدى نصف قرن كانت نتيجته هي ما يجري اليوم من صراعات ليست في صالح الجنوب أو الشمال؛ بل إن هذا الصراع الدموي كان ولا يزال سبباً في تعطيل التنمية والبناء والاستقرار السياسي. وهناك مثل آخر وهي الحرب الإرترية - الإثيوبية التي دامت ثلاثين عاماً وأنهكت الشعبين لأن الأصابع الخارجية بالتعاون مع عملائها أرادت ذلك.

إن منطقة القرن الإفريقي التي اشتهرت بالمجاعات خلال العقدين الماضيين ليست فقيرة بل هي منطقة واعدة بكل الخيرات وتعيش اليوم حالة مخاض لميلاد واقع جديد، فقد بدأت هذه المنطقة تشعر بمصالحها المترابطة وبمصيرها الواحد وبدأت تتحرر من الأصابع الخارجية، ونلاحظ ذلك في محاولات الدائبة لمساعدة بعضها البعض للتغلب على المشاكل والمصاعب وهذا لم يكن متوافراً في الماضي حيث كان يحاول كل منها تعميق وافتعال مشاكل للآخر وتغذيتها بحيث عمّ عدم الاستقرار والتوترات بينها لقرون. والآن هي مطالبة أن تتفرغ للبناء والتنمية وإسعاد شعوبها بعد أن سقطت عقلية الصراعات الدينية التي تحركها أصابع خارجية، وبعد أن سقطت عقلية التوسع في الأرض على حساب الجيران والاستعانة بالغرباء من وراء البحار على الجار والشقيق.

وهناك العملاق الذي فرض عليه العزل والتخلف والعيش في حياة الغابة البدائية سنين عديدة، فإنه ينهض رويداً رويداً وسيكون له دوره الكبير في قابل الأيام. أما ثروات هذه القارة فمهما كان حجم ما نهبه الاستعمار فإنها لاتزال قارة بكرّاً تحتفظ في جوفها بكل خيراتها.

إن الكثير من المخترعات والمنجزات التي حققتها البشرية كانت في يوم من الأيام أحلاماً تدور في الرؤوس والحمد لله الذي حقق الكثير من أحلامنا؛ فعندما كنتُ طفلاً صغيراً شاركتُ في العديد من المظاهرات الطلابية بمدينة بورتسودان وأن أهتم مع الآخرين [الشجرة التي تُروى بالماء والحرية تُروى بالدماء. عاش السودان حراً مستقلاً].

وكان حلمي أن أرى السودان خالياً من الاستعمار البريطاني. وقد تحقق هذا الحلم عندما كنتُ موظفاً حيث حضرتُ في رفع العلم السوداني وإنزال علمي دولتي الحكم الثنائي في مبنى المحافظة. ثم كتب الله لي وأنا في بداية طور الشباب أن أقوم بتأسيس (حركة تحرير إرتريا) في أواخر ١٩٥٨م وقد كان حلمي أن أرى إرتريا محررة من الاستعمار الإثيوبي. وأصبح هذا الحلم حقيقة اليوم. أما حلمي الحالي هو أن أرى القرن الإفريقي وحدة سياسية واقتصادية واحدة. فلم تعد هذه الحواجز والحدود المصطنعة لصالح شعوب القرن الإفريقي. إني مؤمن كل الإيمان بأن تكاملاً سياسياً واقتصادياً وثقافياً سيربط هذه المنطقة بكاملها وفي الشكل الذي يختاره أبناؤها بإرادتهم الحرة.

كما سترتبط هذه المنطقة مثلما كانت في يوم من الأيام في شكل تكامل عربي إفريقي يكون نواة لخلق قوة عالمية يُحسب لها ألف حساب. وهذا الحلم يستند إلى الواقع حيث كانت هذه المنطقة ذات مصير واحد في الماضي وذات علائق ووشائج لن تنفصم مهما حاول ذلك أعداؤها. ونحن في عالم اليوم؛ عالم الكيانات الكبيرة والمصالح المتشابكة فإن التكامل بين شعوب وحكومات القرن الإفريقي أصبح أمراً مهماً ولا مفر منه، كما أن تكامل هذه المنطقة بالوطن العربي هو لصالح الطرفين وهناك التكامل العربي الإفريقي وهو لصالح الجميع. فإذا توفر الوعي والإيمان مع صدق النية والإرادة والتخطيط السليم ثم البدء في تنفيذ ما تؤمن به فليس هنالك مستحيل تحت الشمس كما يقال. ولذا فإن وحدة المنطقة والتكامل بينها أمر ممكن حدوثه بل إن الظروف مواتية لذلك، فأمامنا تجربة أوربا التي تسعى لوحدها ولكن ليس بقرارات فوقية بل بعمل دؤوب وعلمي مدروس لما يقارب نصف قرن من الزمان. أوربا التي كانت تطحن بعضها البعض في حروب أخطرها الحربين العالميتين الأولى والثانية والحرب الباردة بين المعسكرين، الآن تأخذ أوربا شرقها وغربها طريقها نحو التكامل، بل إن العالم الغربي بكامله يسعى بكل السبل نحو ذلك منطلقاً من مفهوم أن عالم اليوم هو عالم الكيانات الكبيرة والقوية وليس عالم الشرائد الصغيرة والضعيفة.

وأكرر ما ذكرته سابقاً بأن هذا الكتاب ليس سرداً لتاريخ القرن الإفريقي أو الجزيرة العربية لأن سرد تاريخ المنطقة برمتها من اختصاص أبناء كل قطر من أقطارها حيث يظنون هم الأقدر على أداء هذه المهمة، وإن الكثير من الأقلام العربية والأوربية تطرقت لهذا التاريخ بإسهاب. ولكن هذا الكتب يهدف إلى تجسيد مجموعة أفكار والربط بين الأحداث التاريخية التي تشير في النهاية، ويمكن الاستنتاج منها بأن هذه المنطقة مترابطة في المصير والتاريخ والحضارة وهي جزء لا يتجزأ عن الوطن العربي. والأقوام التي سكنت على شاطئ البحر الأحمر السحيق والتي تسكنه اليوم والتي تُعتبر امتداداً لها ومدى التمازج والانصهار الذي جرى بينها كان مصيرها في الماضي واحداً وهو نفس المصير حاضراً ومستقبلاً.

ومما دفعني لكتابة هذا البحث، وبحكم إمامي بلغة التجري والتي كان يصادفني فيها دوماً من المفردات العربية ما لا حصر له وما كنتُ أسمع من الآباء والجدود في أحاديثهم وذكرهم لأنسابهم التي يعودون بها إلى الجزيرة العربية، والانتساب لقبائل عربية بالإسم كل ذلك كان حافزاً لي للبحث عن هذا الأمر الذي تطور إلى البحث عن العروبة والإسلام في منطقة القرن الإفريقي بكاملها. وكما هو معروف فإن التعليم لم يكن منتشرأ بين الأقدمين من أبنائنا وأجدادنا حتى يحتفظوا لنا بتاريخ مكتوب. ولذا كانوا يتلقون الأنساب والأحداث من آبائهم الذين يلقتونها لهم ويحفظونها عن ظهر قلب وبدقة متناهية ثم يورثونها بدورهم لأبنائهم. وتجد حتى اليوم من يحفظ الأنساب والأصول والجذور والفروع. وهذا أمر كان معروفاً في الجزيرة العربية.

وختاماً فإن هذا الجهد المتواضع الذي قمنا به نرجو أن يكون حافزاً للدارسين والباحثين من أبناء منطقة القرن الإفريقي للمزيد من البحث والتنقيب وذلك لربط كل حلقات التاريخ والعادات والأصول والثقافة وغيرها بعضها ببعض؛ فقد كتب الكثيرون من خارج المنطقة وبالذات الأوربيون حيث أصبحت كتاباتهم مرجعاً لكل باحث وهناك الكثير من التشويه فيما كتبوه. وعليه فقد حان الوقت لتساهم أقلام أبناء هذه المنطقة لإعادة كتابة التاريخ، والتركيز على الخصائص المحلية وربطها بالتاريخ العام وبالذات اللهجات والثقافات والعادات وربطها بالجذور.

والله من وراء القصد. وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

الباب الأول

نبذة عن القبائل العربية

يُقسِّم مؤرخو العرب القبائل العربية إلى قسمين :

العرب البائدة مثل : [تمود، عاد طسم، حديس، العمالقة، جرهم الأولى] ويقولون أيضاً بأن هؤلاء العرب كانت لهم دول وممالك انتشرت في الشام وامتدت إلى مصر ويُعتقد أنهم نزحوا إلى بابل حين ازداد عدد السكان في الجزيرة العربية.

ثم ظهرت بعد ذلك القبائل العربية الباقية وهؤلاء أنفسهم انقسموا إلى قسمين : عرب الشمال وعرب الجنوب.

عرب الشمال

يعتقد العرب إن عرب الشمال ينتمون إلى سيدنا إسماعيل عليه السلام، كما حدثتنا بذلك التوراة، ويذكر العرب أن سيدنا إسماعيل قد سكن مكة وتزوج من قبيلة جرهم الثانية، ثم أنجب اثنا عشر ولداً هم الذين تنتسب إليهم قبائل العرب الشمالية ويطلق على هذه الفئة من ذرية إسماعيل (العرب المستعربة) وهم الذين ينتمي إليهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عُرف الشمال بالشعب العدناني.

عرب الجنوب

يرجع نسب عرب اليمن إلى يعرب بن قحطان ويسمون بالعرب المتعربة وذلك اعتقاداً بأنهم أخذوا اللغة العربية من العرب البائدة أو العاربة كما تسمى أحياناً.

بنو عدنان وبنو قحطان

من المعلوم أن القبائل العربية تنتسب إلى عدنان وقحطان، فالعدنانيون كما سلف هم من نسل عدنان الذي ينتهي نسبه إلى سيدنا إسماعيل بن سيدنا إبراهيم عليهما السلام، ويسمون أيضاً مضرية ونزارية وهم المعروفون بالعرب المستعربة وهم عرب الشمال، وهم عرب بادية.

أما القحطانيون فهم عرب الجنوب وهم المعروفون بالعرب العاربة، وينتسبون إلى يعرب بن قحطان وقد أقاموا مدناً ودولاً عاصرت الفراعنة وملوك بابل وآشور وأشهرها حمير وسبأ وكهلان. وسبأ ورد ذكرها في القرآن الكريم : ﴿ قد كان لسبأ في مسكنهم آية جنتان عن يمين وعن شمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ﴾.

وقد تفرّع من عدنان فرعان كبيران هما : ربيعة ومضر، ومن أشهر قبائل ربيعة أسد ووائل، ومنه بكر وتغلب، ومن بكر بنو حنيفة باليمامة. وأمّا مضر فأشهر قبائلها : قيس التي منها هوازن، وسليم بالجانب الغربي من نجد، وغطفان التي منها عبس وذبيان، ومن مضر كذلك تميم وكانت تسكن بادية البصرة، وهذيل بالقرب من مكة، وكنانة في جنوب الحجاز، ومنها قريش.

ويشمل قحطان شعبين عظيمين هما : كهلان وحمير، أمّا كهلان فتتفرّع منه فروع كثيرة أشهرها : طي وهمذان مذحج في اليمن، وإلى مذحج ينتسب بنو الحارث الذين سكنوا الجنوب الشرقي للطائف. أيضاً عاملة وجدام وكانوا يسكنون بادية الشام، ولخم التي أسست مملكة الحيرة، وكندة التي حكمت حضرموت وإليها ينتسب امرؤ القيس.

والأزد قد حكموا عُمان في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية ومنهم الغساسنة الذين أسسوا مُلكهم شرق الشام، وخزاعة التي غلبت على مكة قبل قريش، وكذلك الأوس والخزرج سكان يثرب، أمّا حمير فأشهر قبائلها : قضاة وكانت تسكن شمال الحجاز، وتنوخ وقد نزلوا قديماً شمال الحجاز.

وكلب حيث كانوا يسكنون بادية الشام، وجهينة وعزرة وقد نزلوا وادي أضم بالحجاز.

الأقسام الجغرافية في الجزيرة العربية

تهامة

وهي سهل ساحلي في غرب الجزيرة العربية.

الحجاز

وهي إقليم رملي يفصل بين تهامة غرباً ونجد شرقاً، وأهميته ترجع إلى وقوعه على الطريق التجاري الذي يربط اليمن ببلاد الشام، وإلى وجود البيت الحرام به، وأهم مدنه : مكة والمدينة والطائف.

نجد

وهو إقليم جبلي مرتفع يقع شرق الحجاز وبادية السمارة في شماله، والعروض واليمن إلى الجنوب منه. وقد انتشرت فيه أراضٍ صالحة لزراعة، وهي أصلح بلاد العرب وأجودها هواءً.

اليمن

هي القسم الجنوبي الغربي من الجزيرة عُرفت قديماً بالخصب والغنى وأشهر مدنها : صنعاء، نجران، عدن. وكان اليونانيون يسمونها بلاد العرب السعيدة وكانت تربطها بالهند والشرق الأدنى روابط تجارية، وإلى الشرق منها تقع حضرموت. وفي شرق حضرموت ظفار وهي من قديم الزمان مصدر للتوابل والطيب والبخور ولا يزال إلى اليوم يرسل منها إلى الهند وعمان من الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة، وأرضه جبلية ولأهله شهرة قديمة في الملاحة حيث كانوا يجوبون البحار.

العروض

ويشمل اليمامة والبحرين، وسُمي عروضاً لاعتراضه بين اليمن ونجد والعراق.

الممالك التي قامت في الجزيرة العربية

شهدت الجزيرة العربية حضارات وممالك ازدهرت وكانت لها إشعاعات ثم اندثرت، ومن تلك الممالك :

مملكة معين (٦٥٠ - ١٢٠٠ ق.م)

كانت معين أول الممالك التي ظهرت في جنوب الجزيرة العربية ويُعتقد أن أصل المعينيين من بابل نزحوا إلى بلاد اليمن. وهناك سكنوا في الحوف واتخذوا المنازل والقصور كما كانوا يفعلون في بابل. وكان المعينيين قد عرفوا كثيراً من أحوال التجارة إذ كانت الزراعة والتجارة من أهم أعمالهم بالعراق. وقد حفرتهم التجارة على نشر الحساب والكتابة، ووجدوا الحروف الفينيقية أكثر الحروف سهولة. ولذا استعملوها في كتابتهم التجارية والتاريخية. ثم تطورت تلك الحروف بمرور الزمان فاتخذها السبئيون ثم الأحباش والحميريون بعد أن طرأ عليها غير قليل من التغيير. كما طرأ أيضاً على لغتهم تطور كبير فخرجت من طور البدائية إلى طور أكثر نمواً وارتقاءً.

مملكة سبأ (١١٥ - ٩٥٠ ق.م)

كان السبئيون من العنصر الساميين وقد نزحوا بالقرب من المعينيين وأسسوا مملكتهم هناك في نفس الوقت الذي ازدهرت فيه حضارة المعينيين في القرون الثلاثة الأخيرة. ثم ما لبث أن تغلب السبئيون على جيرانهم وضموا إليهم مملكة معين. واستولوا على أكثر مستعمراتهم كما اقتبسوا الكثير من حضارتهم.

وفي حوالي سنة ٨٥٠ ق.م ظهر ملوك سبأ ومن أشهر ملوكها بلقيس التي عاشت في القرن التاسع قبل الميلاد معاصرة النبي سليمان بن داود الذي كان يحكم فلسطين.

اعتمد أهل سبأ اعتماداً كلياً على الزراعة والتجارة، ثم ما لبثوا أن أهملوا الزراعة واتخذوا التجارة أساساً لحياتهم الاقتصادية وكانوا كسابقيهم من المعينيين يبحرون بالتوابل والبخور واللآلئ بين بلاد الهند وفارس وشواطئ شرق إفريقيا وبين البحر الأحمر عند مصر وفلسطين والدول الأخرى في شمال جزيرة العرب.

كان اعتماد السبئيون على الزراعة كبيراً أول الأمر لما تدره عليهم من غذاء. ولذلك فقد أنشأوا السد المشهور بسد مأرب، وحفروا الترع والقنوات واستخدموا المياه استخداماً حسناً في الزراعة. غير أن التجارة ألهمتهم عن الزراعة فأهملوا السد وأمره فلم يصلحوه كما يجب ! وكان من أثر ذلك أن انهض السد وتفرق أهل سبأ في البلاد كما تدهورت التجارة السبئية شيئاً فشيئاً حتى أصبحت كحال الزراعة واضطر عدد كبير من السكان إلى النزوح إلى شمال الجزيرة العربية واضمحلت تجارة السبئيين براً وبحراً.

وتدهورت الحالة الاقتصادية في عاصمتهم مأرب حتى لم تقم لهم بعد ذلك قائمة. وقد استمر العهد الملكي في سبأ حتى سنة ١٥٥ قبل الميلاد، وعندما ظهر الحميريون استولوا على الملك وأسسوا الدولة الحميرية.

مملكة الحميريين (١١٥ - ٥٣٥ ميلادية)

ورث الحميريون بلاد سبأ ومعين بعد أن تدهورت سبأ. والحميريون من أصل سامي ورثوا لغة من سبقهم في بلاد اليمن واستولوا على ملك سبأ وأطلق على ملوكهم (ملوك سبأ وريدان).

ويبدو أن زيدان كانت مقر ملوكهم الأول قبل توسعهم ثم ما لبثوا أن ضموا حضرموت فأصبح ملوكهم يدعى (ملك سبأ وريدان وحضرموت). كان هذا هو خبر الممالك التي نشأت وازدهرت ثم اندثرت في جنوب الجزيرة العربية. وفي شمال الجزيرة نشأت ممالك أخرى نذكر منها :

مملكة الغساسنة (بنو غسان)

من المعتقد أن بني غسان من القبائل اليمنية التي كانت تسكن في جنوب الجزيرة العربية ثم رحلت إلى بلاد تهامة حيث استقرت فترة من الزمن، وبعد ذلك واصلت رحلتها حتى بلغت بلاد الشام واستقرت هناك في القرن الأول قبل الميلاد حيث اختلطوا بالعرب من قبائل قضاة، وغلبوهم على أمرهم وأخذوا يستعملون اللغة الآرامية التي كانت اللغة الغالبة في الشام دون أن ينسوا اللغة العربية أو يهجروها.

استولى الرومان بعد ذلك على سوريا وفلسطين واستمر الغساسنة خاضعين لهم كما كانوا يخضعون لليونان من قبل حتى القرن الثالث الميلادي، ففي ذلك التاريخ توحدت بلاد فارس والعراق بعد أن كان يحكمها عدة ملوك هم ملوك الطوائف ممن خلفهم الإسكندر على إمبراطورية فارس الشاسعة. وتم هذا التوحيد في سنة ٢٢٦ على يد (أردشير بن بابل) مؤسس الدولة الساسانية في فارس. وهنا ظهرت أهمية أخرى للغساسنة إذ أصبحوا أيضاً الخط الأمامي لصد هجوم الفرس على الرومان حين حاول الفرس الاستيلاء على طرق التجارة حتى شرقي البحر الأبيض المتوسط، بالإضافة إلى ما كانوا يقومون به من محاولات لتأمين طرق التجارة بين الشام واليمن، وبين الشام والعراق برأ، ولم يتأثر الغساسنة بلغة أهل الشام فحسب، بل إنهم مع توالي الأيام اعتنقوا الدين المسيحي.

مملكة الحيرة

نشأت مملكة الحيرة معاصرة لمملكة غسان وكان موقعها في أطراف العراق، واتخذت الحيرة عاصمة لملكها. وكان سكان الحيرة عرباً نزحوا من جنوبي الجزيرة أيضاً كما فعل الغساسنة، ثم استوطنوا مشارف العراق.

وكان أول زعيم على الحيرة من (بني تنوخ) هو أبو جديمة الأبرشي، حتى إذا ما مات تولى بعده ابن أخته عمرو بن عدي بن نصر اللخمي، ومنذ ذلك الحين سُميت هذه المملكة بمملكة اللخميين كما سُميت مملكة المناذرة.

كثرت الحروب بين الغساسنة والمناذرة، كلٌ يود أن يُخضع الآخر؛ إذ كانت المملكتان متجاورتين، واشتدت هذه الحروب في عهد الحارث الرابع ملك غسان والمنذر بن عمرو القيس ابن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م). وانتهت هذه الحروب بهزيمة المناذرة بعد أن كانت لهم اليد العليا في بداية المواقع. وقتل المنذر.

وقد ظهر الدين المسيحي في الحيرة عام ٤١٠م وقبل ذلك كان سكان الحيرة وثنيون يقدمون ضحايا بشرية إلى العزى حتى اعتنق المنذر ابن عمرو القيس بن ماء السماء المسيحية فأخذت تسري بعد ذلك في الأسرة المالكة ثم الرعية.

مملكة تدمر

تدمر هي مدينة عربية تقع في بادية الشام إلى الشمال الشرقي من دمشق، وقد قامت بها مملكة عظيمة في القرون الأولى للميلاد، وكانت ملكتها زنوبيا (الزباء) وقد بلغت أوج ازدهارها وعظمتها التجارية؛ إلا أن الرومان شنوا عليها حرباً شعواء فتصدت لهم ملكتها زنوبيا، ولكنهم تمكنوا في النهاية من التغلب عليها وقوضوا ملكها.

الحجاز

تتمتع الحجاز وأواسط الجزيرة العربية بالاستقلال التام طيلة القرون التي تدخل فيها الأجانب في شؤون أطراف الجزيرة العربية، وحاول الإسكندر أن يفتح تلك البلاد؛ ولكنه مات قبل أن يُنفذ مشروعه. وفيما عدا ذلك لم يستطع أي نفوذ أجنبي أن يتوغل في البلاد.

والتاريخ يحدثنا بأن أطراف الجزيرة العربية في الجنوب الغربي وفي الشمال الشرقي والغربي كانت ميداناً فسيحاً للأطماع الأجنبية : فالروم يريدون السيطرة على الطرق التجارية براً وبحراً إلى الهند، والفرس يريدون أن يفرضوا سلطانهم ويحتكروا التجارة غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط .. فما أشبه الليلة بالبارحة !

المعتقدات الدينية في الجزيرة العربية

كانت الوثنية سائدة في الجزيرة العربية وكان العرب في بداوتهم وجاهليتهم يقدسون الأحجار والشجار والينابيع ويعبدون الأوثان والأصنام وكان مما عبدوا (سواع) لقبيلة هديل و(يغوت) لمذحج و(يعوق) لخيوان باليمن، و(نسر) لحمير و(ود) للمعنيين و(اللات) بالطائف. وكانت قريش والعرب تُعظمها، و(العزى) بوادٍ في نخلة الشامية، حيث كانت أعظم الأصنام عند قريش، و(مناة) أقدم أصنامهم على ساحل البحر بقرية بين مكة والمدينة وكانت العرب جميعها تعظمها وتذبح حولها، وكان أشدهم إعظاماً لها الأوس والخزرج وكان العرب يسمون هذه الثلاثة بنات الله، وكان (هبل) أشهر الأصنام المنصوبة في مكة على هيئة آدمي. ويقول الكلبي أن بنو مليح من خزاعة كانوا يعبدون الجن كما يقول صاعد كانت حمير تعبد الشمس وكنانة القمر وتميم الدبران، ولخم وجزام المشتري وطى سهيلاً وأسد عطارداً، ومن العرب من عبد الشمس أو القمر أو الملائكة أو الجن أو النار.

أيضاً كان في الجزيرة العربية الحنيفية ممن هم على دين سيدنا إبراهيم، وكذلك أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وتهوّد كثير من قبائل اليمن، وحماهم ذو نواس أحد ملوك اليمن، واضطهد النصارى.

أما عن اليهود واليهودية فيربط المؤرخون نزول اليهود بالمدنية بخروج بني إسرائيل من مصر في نحو سنة ١٢٢٥ قبل الميلاد، ويرجعه آخرون إلى طرد اليهود على يد بختنصر بين سنتي ٥٨٦ - ٥٨٨ قبل الميلاد، وأقرب الأقوال إلى الصواب ما يكاد يُجمع عليه الثقات أن نزول اليهود بالمدنية كان على إثر تدمير الرومان لبيت المقدس سنة ٧٠ ميلادية.

ومن أشهر القبائل اليهودية : بنو قينقاع وبنو قريظة وبنو النضير. واتجهت القبائل اليهودية إلى الزراعة والتجارة والصناعة، وكان لبني قينقاع شهرة خاصة بالصناعة؛ فهُم الذين اتجهوا إليها ومهروا في صناعة الجواهر والسلاح والدروع وسائر الآلات الحديدية. وإن اليهودية كدين شاعت في اليمن والحجاز، وكان القسم الشمالي من بلاد العرب والمدينة منه وهو عامر بالمستعمرات اليهودية موالياً للفرس.

وكان على المدينة وعلى تهامة عامل يجبي خراجها، أما عرب مكة وما إليها فكانوا موالين للروم، وهذا يؤكد معنى المنافسة التي كانت قائمة بين عرب المدينة وعرب مكة، وكان لليهود مستعمرات في يثرب وخيبر وتيماء وفدك ووادي القرى.

كان اليهود هم سادة وحكام يثرب، ولكن حادثاً تاريخياً هاماً قد حدث وهو تصدّع سد مأرب ونزوح القبائل العربية إلى الشمال، أدى إلى تغيير الأمر بالنسبة لهم؛ ففسد مأرب

تصدّع أكثر من مرة، وقيل إن بعضها حدث سنة ٤٥٠م وسنة ٥٤٢م، وإن التصدع الذي يشير إليه القرآن الكريم حدث بين سنة ٥٤٢م وسنة ٥٧٠م.

ومن ضمن نتائج تصدّع سد مأرب : نزوح قبيلتي الأوس والخزرج اللتان نزحتا من اليمن بعد التصدّع، واتجهتا شمالاً حتى استقر بهما المقام في المدينة، وأن الأوس والخزرج تمكنوا من طرد اليهود وحلّو محلهم في الحكم والسيادة على المدينة، وكان ذلك حوالي سنة ٥٠٠م. وسار جفنة بن عمرو بن عامر ومن معه إلى الشام فنزلوا هناك على ماء يسمى (غسان). فعرفوا به وأصابوا هناك عِزّاً ومنعة وصارت لهم السيادة على عرب بادية الشام. وهؤلاء هم الغسانيون أبناء جفنة وأبناء عمومة الأوس والخزرج.

أما النصرانية فقد علقت أصولها بنجران وقد تسربت إلى الجزيرة العربية منها فرقتان كبيرتان : النساطرة واليعاقبة. حيث كانت النسطورية منتشرة في الحيرة، واليعقوبية في غسان والشام، كما كانت في ربيعة وقضاة. وكان بنو تغلب نصارى، كما كانت قبيلة ربيعة ومن بطونها [أسد، تغلب، شيبان، حنيفة، عنزة، لجيم عبد القيس، زحل، بني يونس] تعتنق المسيحية حتى مطلع القرن السابع الميلادي، ثم تحولت بعد ذلك إلى الإسلام.

وكما ذكرنا، فقد كان أهم موطن للنصرانية بين العرب : نجران، وكان القسس والرهبان يردون أسواق العرب ويعظون ويبشرون ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار.

التجارة

لم يكن العرب كلهم في الجاهلية يعيشون حياة البداوة والرعي والتنقل، بل إن هناك من تحضر واستقر، وكان الحضر أغلبهم من أهل الجنوب وبعضهم من المدن القليلة في الشمال حيث كانوا يعيشون على التجارة والزراعة، وكانوا يسكنون المدن التي أقاموها، وقد أسسوا مدناً كثيرة وممالك قبل الإسلام في اليمن والشام والعراق.

وقد فتحت التجارة باباً كبيراً للرزق أمام العرب؛ فمنهم من عمل بالتجارة ومنهم من كان يصحب القوافل سائقاً أو حارساً أو دليلاً، وكانت التجارة من قديم الزمان في يد اليمنيين. فلما انحط شأنهم انتقل زمامها إلى عرب الحجاز في القرن السادس الميلادي واتسع نطاقها؛ حتى إنهم كانوا يشترون سلع اليمن والحبشة ثم يبيعونها في أسواق الشام ومصر، وجعلوا مكة قاعدتهم التجارية.

وقبل ظهور الإسلام فإن مكة الواقعة على ملتقى طرق القوافل الرئيسية كانت قد أصبحت خلال تلك الفترة محطة كبرى تتوافر في أسواقها مختلف البضائع القادمة إليها من البلاد المنتجة للبخور واللبان والبهارات من اليمن والحبشة من جهة، وما يرد إليها من العراق وبلاد الشام من جهة أخرى. ووصلوا قبيل الإسلام إلى درجة عظيمة جعلت الروم في كثير من شؤونهم يعتمدون على تجارة مكة. وقد بلغت مكة في شهرتها التجارية شأنًا عظيمًا.

وكان عرب الحيرة يحمون قوافل التجارة الفارسية عند مرورها ببلاد العرب في مقابل جعل (ضريبة أو رسوم).

كما أن يثرب (المدينة) بلغت درجة عالية في العمران والتجارة والصناعة والرعي والزراعة، وصارت أخصب بلاد العرب حيث كانت توجد بها أنواع كثيرة من التمر ويكثر بها الشعير والقمح وتختلف فيها ألوان الفاكهة وتروج فيها التجارة بفضل جد أهلها وخبرتهم، وبفضل وقوعها على الطريق التجارية بين اليمن، حيث تتجمع سلع الهند والصين وشرقي إفريقيا وبين الشام ومصر، وما ترتبط بهما من أقاليم الدولة الرومية، ثم هي كذلك على اتصال دائم بعمان والبحرين والإحساء والعراق وفارس. كل ذلك على طرق معبدة تجلب لها خيرات أهم بلاد العالم، وتنقل ما يفيض من خيراتها إلى تلك الأقاليم. ويستوي في ذلك ما تخرجه الأرض ما تصنعه اليد، مما برع فيه أهلها من نسيج الثياب والتمر المجفف والمعادن المصنعة.

الحروب والصراعات بين القبائل في الجاهلية

إن المجتمع الجاهلي لم يكن يعرف السلام والاستقرار، فكانت تسود في الجاهلية حروب طاحنة بين القبائل البدوية في الجزيرة العربية مثل ما كان بين القحطانيين والعدنانيين وبين قبائل ربيعة والحروب بين الأوس والخزرج وهم أبناء عمومة، ولم تتوقف الحرب بينهما إلا بعد ظهور الإسلام. كانت الحروب تنشأ لأتفه الأسباب ! وبما أنه كان مجتمعاً قبلياً فيكفي أن يتطور حادثاً فردياً أو شجاراً بين شخصين إلى صراع شامل بين قبيلتين أو أكثر أو بين فرعين في إطار القبيلة الواحدة !

وكمثال لهذه الحروب وما أكثرها : حرب البسوس التي دارت رحاها في نهاية القرن الخامس الميلادي في ربيعة بين بكر وتغلب (إبنى وائل) في الشمال الشرقي من بلاد العرب، وكلاهما على المسيحية. وكان سببها أن ناقة لإمرأة من بكر إسمها البسوس وردت الماء مع إبل لكليب بن ربيعة التغلبي، فرمى ضرعها بسهم، فراحت ترغو على صاحبها، فذهبت إلى إبن أختها جساس بن مرة البكري فأوغرت صدره بكلامها حتى خرج على كليب فقتله. فوقع الحرب، وتشمّر مهلهل بن ربيعة للأخذ بثأر أخيه .. واستمرت هذه الحرب أربعين عاماً.

ولا يقل عن تلك شهرة : حرب داعس والغبراء في مضر، بين عبس وذبيان من غطفان في وسط الجزيرة، وكانت في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي. وداحس فرس لقيس بن زهير العبسي، والغبراء فرس لحمد بن بدر، وكان الذي هيجها أن قيساً وحماً تراهنا على فرسيهما، ثم اختلفا في السبق وتشاحنا، وانتهى الأمر بالحرب التي ظلت تنشب بين فترة وأخرى، حتى جاء الإسلام. وقد عبّر عن حالة المجتمع الجاهلي خير تعبير جعفر بن أبي طالب أمام نجاشي الحبشة عندما تحدث بلسان المهاجرين في مواجهة وفد قريش الذي كان من بينه عمرو بن العاص قبل دخوله الإسلام، والذي جاء يطالب بعودة المهاجرين متهماً إياهم بالخروج على تقاليد قومهم الناكرين لآلهتهم وآلهة آبائهم الأولين. قال جعفر بن أبي طالب مخاطباً النجاشي ومدافعاً عما تحدث بإسمهم : [أيها الملك : لقد كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام ونسيء إلى الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف فكنا في ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه؛ فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، فصدقناه وآمنا به واتبعناه].

الباب الثاني

الهجرات العربية باتجاه الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر

بدأت الهجرات العربية باتجاه الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر في عهود غابرة وموغة في أعماق التاريخ، بحيث لم يستطع المؤرخون حتى الآن كشف بدايتها، وفي هذا فهي تختلف كل الاختلاف عن الهجرات التي عرفها العالم مثل هجرة شعوب بريطانيا وأوربا إلى الدنيا الجديدة باتجاه أمريكا الجنوبية والشمالية. فكل الحقائق المتوفرة تشير بأن الاتصال والتواصل بين الشعوب في الشاطئين الشرقي والغربي للبحر الأحمر يعود إلى عهود غابرة، ويتضح ذلك من التأثير والتأثر الواضح والترابط والوجدان واللغة والثقافة والسمات البشرية، أما ما سنتحدث عنه هنا فهي هجرات حديثة، حتى وإن كان تاريخها يعود إلى آلاف السنين.

إن الهجرات العربية باتجاه الشاطئ الإفريقي أخذت المسالك التالية :

موانئ [عيذاب - سواكن - عقيق - مصوع - عدوليس - زيلع - باب المندب - زنجبار - دار السلام - دهلك]. وهذه الهجرات لم تكن كلها متجهة من الجزيرة العربية من الشرق إلى الغرب؛ بل كانت هناك هجرات من الجنوب من القرن الإفريقي باتجاه الشمال، والهجرات المضادة من الشمال باتجاه الجنوب، وكلها لعبت أدواراً تاريخية هامة في المنطقة بكاملها، حيث كانت المراكب تأتيها من الشاطئ الغربي ومن الهند والصين ومخا وجدة؛ فنقلت الحضارات والديانات واللغات والتجارة صادرها وواردتها والتمازج والتعارف بين الشعوب.

أما عن أسباب هذه الهجرات فكثيرة، منها : قسوة الظروف الطبيعية وبالذات مرحلة الزحف الصحراوي، وهي مرحلة موغة في القدم، يضاف إلى ذلك التجارة والبحث عن المعادن، كما كانت هناك أسباب سياسية مثل الحروب بين القبائل أو الثورات، وأخيراً مرحلة الفتوحات الإسلامية والتبشير الإسلامي.

أما عن هذه الهجرات، فيعتقد بعض المؤرخين أن العنصر المعروف باسم (كوش) نسبة إلى كوش بن حام بن سيدنا نوح هم أول من سكن سواحل البحر الأحمر الغربية، ويرجحون أن يكون هؤلاء هم الأصول الأولية لقدماء المصريين، وإنهم اتخذوا سواحل البحر الأحمر الغربية التي انتقلوا إليها من جنوب الجزيرة العربية قبل أكثر من عشرة آلاف عام معبراً لهم، حتى وصلوا في تجوالهم إلى وادي النيل واستقروا هناك وبنوا حضارة مصر الفرعونية الشهيرة.

وهجرة سبئية من الجنوب العربي تركت بصماتها وآثارها بشكل واضح، وذلك عندما وفدت موجات متعاقبة من القبائل السبئية من جنوب شبه الجزيرة العربية فيما هو اليوم

اليمن وحضرموت وذلك عبر البحر الأحمر وتحديدًا باب المندب وجزر دهلك. أما متى حدثت أول هجرة سبئية وهل جاءت على هيئة جماعات كبيرة أم على نحو جماعات متفرقة .. فغير ثابت على وجه التحديد في الوقت الحاضر، وهو ما لم يفصح التاريخ عنه؛ إلا أن المكتشفات الأثرية في المدن المندثرة والمعابد ومحطات استراحة القوافل التجارية المتناثرة بين العقبة وساحل البحر الأحمر ما يشير إلى احتمال حدوث هذه الهجرات في حوالي سنة ١٠٠٠٠ قبل ميلاد المسيح. فمن الثابت من النقوش الحجرية المكتشفة أن قبائل سبئية وحميرية من اليمن عبرت البحر الأحمر عن طريق باب المندب وجزر دهلك، وكانت وجهتها مرتفعات إرتريا والحبشة، وكان على رأس القبائل النازحة من الجنوب العربي ومن أقدمها قبيلة يمنية تُدعى الأجاعز، اختارت المقام في الأقسام الجنوبية من مرتفعات إرتريا. ومنها انتشرت لغتها الجنزوية وهي لغة سامية مكتوبة ومعروفة بين سكان الهضبة عامة. وثمة قبيلة أخرى عبرت البحر الأحمر إلى هذه الديار وتسلفت المرتفعات وهي قبيلة حبشات التي استقرت في الأراضي الواقعة إلى الجنوب من المواطن التي تركزت فيها قبيلة الأجاعز أو فيما هو اليوم يُعرف بإقليم تجراي بالحبشة. وفي ربوع هذا الإقليم المجاور لإرتريا قامت مملكة أكسوم الحبشية المعروفة في التاريخ. وبمرور الأيام غلب هذا الاسم (حبشة) على ما سواه حتى أصبح يطلق على كافة البلاد، فالأحباش إذن مدينون للجنوب العربي من ناحيتين : ناحية الاسم الذي عُرفت به بلادهم، ومن ناحية اكتسابهم اللغة المكتوبة التي كانت مفتاح حضارتهم، وبها كتبوا تاريخهم ودونوا معالم تراثهم وحروبهم.

أيضاً اندمج جزء من المهاجرين العرب في تلك الحقبة من التاريخ عبر مضيق باب المندب إلى هضبة هرر في القسم الشرقي من المرتفعات. ومع هؤلاء المستوطنين الجدد دخلت لهجاتهم السامية وحضارتهم السبئية بما في ذلك الحرف السبئي في الكتابة ومهارتهم العمرانية والزراعية. ويُعلل بعض المؤرخين نزوح القبائل السبئية عن ديارها وهجرتها إلى أراضي الحبشة لأسباب لا تخلو من الواقعية : فمنهم من يجعلها للتجارة أو محاولة الاستفادة من خيراتها الطبيعية المكتنزة، وثرواتها الهائلة التي تناقلتها الأساطير الدولية؛ خاصة وأن سكان الجنوب ومنذ قديم الزمان عُرفوا بالإقدام وركوب المخاطر في سبيل بلوغ العيش الرغيد. ومن ناحية أخرى فإن بعض المؤرخين ينسبون هذه الهجرة إلى اضطراب الأحوال المعيشية وتدهور حالة الأمن في أعقاب تصدُّع سد مأرب وانهياره وتحول مساحات شاسعة من حقول اليمن إلى خراب كان من نتائجه المباشرة انتشار المجاعات والعوز المزمن؛ مما دفع بالكثير من السكان إلى الهجرة لمختلف الأصقاع المجاورة شمالاً وغرباً باتجاه الشاطئ الإفريقي.

وقد حظت هذه القبائل رحالها فوق هضبة إرتريا وهضبة الحبشة ومعها كنوز لا تُقدر بثمن من التراث الأصيل ومعالم حضارة عريقة متمثلة في اللغة المكتوبة والمهارات الزراعية المتقدمة والأساليب المتطورة للتحكم في مياه الأمطار عن طريق إنشاء المدرجات والمسطحات على سفوح الجبال وزراعتها بالمحاصيل والأشجار، كما حملوا

معهم فنونهم المعمارية وبراعتهم في النحت على الحجر وبناء السدود الضخمة الثابتة لحجز المياه التي اشتهرت بها مدينة مأرب التاريخية.

وكانت أول لغة سبئية دخلت البلاد هي اللغة الجنزية، ولكن هذه اللغة بعد أن عاشت فترة من الزمن اندثرت بتأثير اللهجات المحلية التي تغلبت عليها - اللهجات الكوشية - حتى انحصر نطاق استعمالها في الطقوس الدينية ومدونات الكنيسة والآداب الدينية بعد أن اعتنق الأحباش النصرانية في القرن الرابع الميلادي.

وفي القرنين السابقين للميلاد عبر عدد كبير من أهالي اليمن مضيق باب المندب والذي طرقت من قبل موجات أخرى من المهاجرين واستقر بعضهم بالحبشة وسار البعض الآخر مع النيل حتى وصلوا بلاد النوبة.

ويشير ابن خلدون إلى استقرار أعداد كبيرة من عرب اليمن في بلاد النوبة والسودان حوالي أوائل القرن الأول قبل الميلاد، كما أن مجموعات أخرى من العرب جاءت إلى أرض البجة في القرن السادس الميلادي أي قبل ظهور الإسلام، وقد ضمت هذه المجموعات بطوناً من حمير، وأن الظاهرة البارزة لهجرة العرب آنذاك : اتجاههم إلى العمل في المناجم لاستخراج الذهب والزمرد وباقي المعادن النفيسة في إقليم البجة ابتداء من جنوب أسوان حتى الهضبة الشمالية من إرتريا، كما أن قبيلة (بلي) اليمنية اختلطت بالبجة أيام حكم البطالمة لمصر، وكان البطالمة يعتمدون عليها في مشروعاتهم التجارية عبر البحر الأحمر؛ كما أن رجالها يقومون بنقل المتاجر من شاطئه الآسيوي إلى شاطئه الإفريقي، ويحرسون التجارة من غارات قبائل البجة. ويبدو أن أعداداً كبيرة من قبيلة (بلي) تركت الاشتغال بالتجارة وآثرت الاستقرار في بلاد البجة وكوّنوا من أنفسهم طبقة حاكمة لهم.

والذي يؤكد صلة العرب القديمة بالشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر ما أشار به الرسول صلى الله عليه وسلم إلى بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة موضحاً لهم : **[لأن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق]** بعد أن تعرّضوا لأذى قريش. كانت الدفعة الأولى لهؤلاء المهاجرين تزيد عن العشرة بقليل : أربعة منهم متزوجون ومعهم نساؤهم، وكان على رأس هؤلاء الخليفة عثمان بن عفان وزوجته أم كلثوم. وتتابع المهاجرون المسلمون الفارون بدينهم إلى الحبشة بعد ذلك حتى اكتمل منهم عدد لا يزيد عن المائة، ورسّيت السفينة في بلدة (معدر) في الشاطئ الإرتري جنوب عدوليس، ومن ثم ساروا إلى أكسوم حيث أكرم النجاشي وفادتهم. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الصلة كانت قائمة وكذلك المعرفة بأحوال تلك البلاد والطرق المؤدية إليها ومعرفة أهلها وحكامها وأخلاقهم.

وعندما فتح عمرو بن العاص مصر عام ٢٠ هجرية كانت قواته قرابة الأربعة آلاف رجل، أما القوة الثانية التي لحقت به في مصر كانت بقيادة الزبير بن العوام كانت تُعد بأربعة آلاف رجل أيضاً. أما قبيلة (بلي) التي كانت في الجاهلية تستقر بالشام فقد جاءت

إلى مصر وقت الفتح بأمر الخليفة عمر بن الخطاب. عند قدومهم إلى مصر حدث خلاف كبير بينهم وبين أقربائهم من جهينة، وتم أخيراً الاتفاق بينهما على أن تستقر (بلي) في منطقة عيذاب على البحر الأحمر.

إن القبائل العربية التي دخلت مصر أثناء الفتح الإسلامي هي : [بلي - جهينة - همدان - كندة - لحم - الأزد - جذام - خولان - تنوخ - مذحج - قريش وبطونها : بني مخزوم - بني أمية - فزارة - بني هلال - بني سليم - مضر - هوازن - ربيعة].

ولم يستمر استقرار هذه القبائل في الحوف الشرقي من مصر؛ فقد تحركت أعداد منها واتجهت إلى صعيد مصر، وجاوز بعضها الصعيد إلى بلاد النوبة، كما واصل البعض الآخر سيره إلى السودان. وكان ذلك نتيجة لعوامل اقتصادية وسياسية تعرضت لها مصر.

إن قبيلة ربيعة والتي كانت تسكن اليمامة في عهد الخليفة العباسي المتوكل على الله، نزلت طائفة منها بالحوف الشرقي عند بلبيس، ونزلت طائفة بأعالي الصعيد وحدود بلاد النوبة الشمالية، كما نزلت طائفة أخرى بين قبائل البجة في الصحراء الشرقية. وقد تمت السيطرة لربيعة على أهالي النوبة في منطقة (مريس) في نفس الوقت الذي تمت فيه سيطرة فرعهم الآخر على البجة في وادي العلاقي والصحراء الشرقية. واستفاد بنو ربيعة في كل من المنطقتين من نظام الوراثة المتشابه عند أهالي تلك البلاد؛ فنظام الوراثة عند البجة وعند النوبة كان يعطي حق الإرث لابن البنت أو ابن الأخت دون ولد الصلب. فتزاوجوا مع البجة ومع النوبة وأصبح لهم بيت حاكم في منطقة مريس وبيت حاكم آخر في بلاد البجة، ثم أدت تطورات الأحداث إلى اتحاد هاتين الإمارتين في إمارة واحدة واختيار مدينة أسوان لتكون مركزاً لرئاسة هذه الإمارة المتحدة. ومهما كانت الأسباب التي دفعت إلى ذلك فقد تم نقل مركز رئاسة الإمارة من العلاقي وتركوها نهائياً؛ إلا أن أعداداً كبيرة منهم ظلت تقيم في الصحراء الشرقية تشرف على المناجم وتنوب عنهم في حكم البجة وتحمي تجارة ثغر عيذاب.

الهجرات تتواصل .. كما أسلفنا القول، حيث لم تكن أسباب الهجرات العربية تجارية أو طلباً للشراء فقط؛ فقد كانت هناك أسباب أخرى للهجرة تعود إلى عوامل سياسية؛ فقد تزايد دخول العرب إلى إقليم البجة في القرن التاسع الميلادي؛ وخاصة بعد أن استكثر الخليفة المعتصم في عهد ولايته من المرتزقة الأجانب في جيشه واستغنى عن خدمات العرب حتى من الديوان وأمر بقطع العطايا عنهم.

وزادت الأوضاع سوءاً بالنسبة إلى العرب في مصر بعد عزل عنبسة بن إسحق الذي كان آخر الولاة لمصر من العرب. وقد حدث ذلك في عهد الخليفة المتوكل؛ فاضطر العرب إلى الخروج من مصر الشمالية والوسطى إلى الصعيد، ومن هناك اتجهوا إلى حوض وادي النيل الوسط، وإلى الأقطار المعروفة الآن بـ : السودان، وإرتريا، والحبشة. وتتواصل الأسباب السياسية لشتج مزيداً من الهجرات؛ فقد كان هناك النزاع الذي حدث

بين الأمويين والعلويين في مسألة الخلافة والسلطة ومعركة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي.

ولم يكد يزيد بن معاوية يستريح من ثورة الشيعة حتى خرج عليه الحجاز، ولم يكن العنف الذي قابل به الثورة الجديدة بأقل مما قابل به الثورة الأولى؛ فقد خرج الحجاز للمرة الثانية على الأمويين وبايع عبد الله بن الزبير، وظلت ثورته في الحجاز مستمرة تسع سنوات يناضل فيها ضد الأمويين ويتغلب عليهم، حتى حاصره بمكة الحجاج بن يوسف الثقفي وقتله سنة ٧٢هـ كما هدم الكعبة بالمنجنيق. ونتيجة لذلك فقد قصدت مجموعات وجماعات وأفراد إلى حيث لا تمتد إليها أيدي الخلفاء الأمويين. فقصدوا شواطئ إفريقيا الشرقية، وتحركت جنود الدولة الأموية لمتابعتهم ومراقبتهم بشكل دقيق؛ فاستولت على مجموعة جزر دهلوك القريبة من الشواطئ الإترية الحالية واستقرت بها لتتمكن من مراقبته بشكل دقيق. ومنها وسَّعوا نفوذهم باتجاه مصوع بالساحل الإترية لحماية طريقهم التجاري في البحر الأحمر، ففي تلك الفترة ازداد نشاط القراصنة الذين عرَّضوا الطريق البحري للخطر، كما هاجموا ميناء جدة، وعندها اضطرت الدولة الأموية إلى إرسال بعثة عسكرية احتلت أرخبيل دهلوك في الساحل الإترية حوالي عام ٧٥٢م، وتمكنت من مطاردة القراصنة والقضاء عليهم ووضعت حداً لنشاطهم بشكل عام. وقد بنى المسلمون بذلك قنطرة في هذه المنطقة عبر منها المسلمون إلى الجزء الشمالي الشرقي لإفريقيا. وقد قامت حضارة إسلامية في جزر دهلوك في القرن الثامن الميلادي.

ودارت الدوائر على الأمويين لينتقل الحكم إلى العباسيين في سنة ١٣٢هـ؛ ففر مروان الثاني إلى مصر، وقد وجد هناك أن الجميع قد بايع العباسيين، فتوغل الأمويين جنوباً حتى استقر بعضهم بأرض النوبة في السودان، وذهب آخرون إلى باضع (مصوع) وجزر دهلوك وهواكل وبهدور التي لاتزال آثار قصورهم وقبورهم قائمة بها حتى الآن.

الباب الثالث

ممالك البجة

لقد نال البجة الكثير من الاهتمام من المؤرخين والباحثين وعلماء الأجناس والرحالة، وهذا الاهتمام نابع من أهمية المنطقة التي سكنوها والأدوار التي لعبوها في مختلف الحقب التاريخية. أما علاقة البجة ومنطقتهم بالعرب؛ فهم أيضاً يمثلون إحدى الحلقات الأساسية في هذا الأمر.

من هم البجة ؟

البجة تاريخياً هم فرع من الشعوب الحامية الشرقية التي استوطنت منذ أكثر من أربعة آلاف سنة قبل الميلاد المنطقة الممتدة من أسوان جنوب مصر حتى مشارف الهضبة الإرترية وسهول مصوع بمحاذاة سواحل البحر الأحمر وإلى أعماق السودان حتى عطبرة بمحاذاة النيل. وقد جاء اسم البجة في الإلياذة هوميروس كما تعرّض لذكرهم المؤرخ اليوناني المشهور هيرودوتس. ولم تخلُ لوحات المصريين القدماء وكتب الرومان وسجلات عيزانا ملك أكسوم من ذكر اسم البجة لما تميزت به علاقتهم مع جيرانهم من حروب واتفاقات، وجاء من دائرة المعارف الإنجليزية أن لفظة (البجة) تطلق على مجموعة من قبائل واسعة الانتشار وهم من قدماء المهاجرين الساميين. ويقال لهم في كتب الأقدمين : البلامي وبليمي والبليميين. وقد وصّفهم هيرودوتس سنة ٤٠٦ ق.م بطول القامة وجمال الجسم خاصة الرجال.

وقد اتفق كل من داوود روبيني اليهودي والمؤرخ العربي المسعودي عن أن البجة من أبناء كوش ابن كنعان. وبذلك أصبح للبجة - في رأييهما - من الساميين الذين نزحوا من بلاد العرب. أما نعوم شقير لم يختلف كثيراً مع الرأي السابق إذ قال : [إنه من الثابت المقطوع به والمؤيد بالقرائن التاريخية والطبيعية أنهما - أي البجة وشبه السود - من سلالة غير سلالة السود، وأنهما من أقدم شعوب إفريقيا بعد السود، ولم ينشأ فيها بل هاجر إليها من آسيا عن طريق مصر والبحر الأحمر من عهد بعيد، أما ملامحهم وعاداتهم وأخلاقهم فجميعها عربية محضة، وأبدان البجة صحاح، وبطونهم خماص، وألوانهم مشرقة. وكل قول لا يعترف بأن أصل البجة من جزيرة العرب لا تسنده أي حقيقة].

أما جرجي زيدان فقد انضم إلى رأي نعوم شقير أيضاً حيث ذكر أن أمة الشاسو من عرب الشام هاجرت إلى أقاليم البجة واستوطنت بين النيل والبحر الأحمر كما ينتقل منها بدو هذه الأيام. وكان قدماء المصريين يسمون هذه البادية (كوش) وتعريبها الأرض الحمراء تمييزاً لها عن وادي النيل واسمه (كيمي) وتعريبها الأرض السوداء. ولم يكن الشاسو يقتصرون في مضاربهم على تلك الصحراء؛ بل كانوا يرحلون بينها وبين طور

سيناء. وكلمة شاسو معناها : عرب. واشتهروا بالسطو ونهب أموال سكان وادي النيل. ويقال لهم الهكسوس.

ويقول المقرئزي أن البجة ينتمون إلى جماعات حامية سكنت الصحراء الشرقية من قديم الزمان، وتم اختلاطها على مراحل طويلة مع جماعات عربية من قبيلة (بلي) والتي تمكنت في النهاية من السيطرة على البجة، وأن تتبوا مركز الزعامة فيهم.

ومن عادات البجة أنهم يورثون ابن الأخت وابن البنت دون ولد الصلب. وقد ذكر ذلك عنهم الرحالة العربي ابن بطوطة الذي مرّ ببلادهم أثناء رحلته الأولى سنة ٧٢٦هـ ورحلته لثانية ٧٤٩هـ، ويقول ابن بطوطة : [إن البجة يقولون أن ولادة ابن الأخت وابن البنت أصح، وأن يكون من زوجها أو من غيره فهو ولدها على أي حال]. ويسترسل المقرئزي قائلاً : [هاجر العرب إلى بلاد البجة قبل الإسلام وبعده، غير أن هجرتهم إليها بعد الإسلام كانت أعم وأشمل]. والأمر الذي لا شك فيه أن عرب ربيعة وغيرهم من النازحين من الجزيرة العربية إلى تلك البلاد بعد الإسلام قد استفادوا من خبرات من سبقهم إليها ومعرفتهم بأحوالها وبأخلاق أهلها.

فقد كانت قبيلة بلي (بلو) اليمنية مختلطة بالبجة أيام حكم البطالمة لمصر، وكان البطالمة يعتمدون عليها في مشروعاتهم التجارية عبر البحر الأحمر، كما كان رجالها يقومون بنقل المتاجر من شاطئه الآسيوي إلى شاطئه الإفريقي ويحمون التجارة من غارات البجة. ويبدو أن أعداداً من قبيلة بلي تركت الاشتغال بالتجارة وآثرت الاستقرار في بلاد البجة ثم اختلطوا بأهلها وتصاهروا معهم وكونوا من أنفسهم طبقة حاكمة لهم. ومما يدل على أن هناك انتقالات من بلاد العرب قبل الإسلام ما ورد ذكره في العديد من القصص العربي القديم، ومثال على ذلك ما جاء على لسان ابن خلدون عن حملة قادها أبرهة ذي المنار ابن ذي القرنين الحميري على السودان وبلاد النوبة، واستقر بعدها في أرض البجة حوالي القرن الميلادي.

أما عن علاقة العرب بالبجة بعد الإسلام، فمن الثابت أن جماعة من العرب (هوازن) عبرت البحر الأحمر في أعقاب البحر الأحمر واستقرت في أرض البجة، وتلت هذه الجماعة جماعة أخرى قدمت من حضرموت أيام ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٣هـ واستقرت بين البجة وأصبحت جزءاً منهم، كما أن جماعات من الأمويين لجأت إلى بلاد البجة في منتصف القرن الثاني الهجري هرباً من مذابح العباسيين، واستقر عدد منهم في ميناء باضع (مصوع). ويذكر (بلوس) في مؤلفه { قصة سواكن } أنه عثر في ميناء مصوع على مقابر للأمويين أثناء قيامه بحفريات هناك. كما أن الآثار دلت على وجود شواهد قبور إسلامية وعلى أثر لمسجد في مدينة سنكات يُستنتج إنها كانت طريقاً للفارين من الأمويين.

وعن ذكر (بني الكنز) الذين أقاموا دولة لهم فيذكر أن أصلهم من بني نزار، وكانوا ينزلون اليمامة وقدموا أرض مصر في خلافة المتوكل بالله ٢٤٠ هـ في عدد كثير وانتشروا في النواحي ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل وقت حتى خربوها ! فقامت ربعة لمنعهم عن ذلك حتى كفوهم. ثم تزوجوا منهم واستولوا على معدن الذهب بـ وادي العلاقي؛ فكثرت أموالهم واستوت أحوالهم وصارت لهم مرافق ببلاد البجة. واختطوا قرية تُعرف بـ (النماس) وحفروا بها آباراً، وكانت عيذاب لبني يونس من ربعة ملكوها عند قدومهم من اليمامة.

وتقول بعض الروايات العربية بقاء بعض من كانوا في حملة أبي الجهم في أرض البجة وانصهارهم معهم، كما نزلت بعض القبائل من صعيد مصر وتوغلت في الصحراء الشرقية تحت ضغط قبائل عربية أخرى. فبلاد البجة إذن مجال حيوي لقبائل عربية مسلمة، بعضها تم جذبه ببريق الذهب، وبعضها الآخر تحت ضغط قبائل أخرى، وبعضها تخلف بعد نجاح حملات تآديبية، وبعضها عبر البحر الأحمر واستقر على الساحل الغربي، وبعضها تعقب موارد المياه والشعب لأنعامه وأغنامه، وبعضها لجأ إلى الصحراء متوغلاً فيها خوفاً من سيوف العباسيين.

المنطقة التي يسكنها البجة وممالكهم

يقول نعوم شقير في مؤلفه { تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته } :
[تمتد أوطان البجة الحالية من محافظة أسوان في الشمال إلى الأطراف الشمالية لهضبة الحبشة في الجنوب، ومن البحر الأحمر في الشرق إلى النيل ونهر عطبرة].

وقبله كان المقريري قد ذكر بأن أول بلاد البجة بقرية تُعرف بـ الخربة وهي مركز معدن الزمرد في صحراء قوص، وآخر بلادهم أول بلاد الحبشة، كما ذكر بأن البجة يتزنيون بزي العرب وهم كالعرب قبائل وأفخاذ، لكل فخذ رئيس، وكان لهم قديماً رئيس يرجع جميع رؤسائهم إلى حكمه ويسكن بقرية تُعرف بـ (هَجَر) هي أقصى جزيرة البجة. ويتفق اليعقوبي معه عندما يشير بأن عدة ممالك لكل مملكة منها ملك مستقل، وأن أول هذه الممالك من جهة مصر تبدأ من حد أسوان إلى حد بركات، وأن شعبها من الجنس الذي يقال له نقيس، وعاصمة هذه المملكة بلدة (هَجَر)، وفي موضع آخر يذكر اليعقوبي أن مدينة هَجَر هي عاصمة البجة. وتقع هَجَر في محافظة الساحل من إرتريا وعلى مقربة من الحدود السودانية الإرترية. ولا تزال تُعرف حتى الآن بهذا الاسم.

ويتفق سبنسر ترمينجهام في كتابه { الإسلام في إثيوبيا } مع ابن حوقل عندما زار أراضي البجة قبل ألف عام، ويقولان بأن قبائل البجة قد أسست خمس ممالك مستقلة لكل منها حدودها وسلطانها.

وهذه الممالك هي :-

- **مملكة ناقص** : تبدأ من الشمال من أول الحدود المصرية وفي غربها السودان.
- **مملكة بقلين** : تقع بين خور بركة وساحل البحر الأحمر المجاورة لمملكة جارين.
- **مملكة بازين** : تقع بين مملكة علوة وبقلين.
- **مملكة جارين** : تقع على السواحل الجنوبية حتى جبل (رورا بقلة) بالقرب من نقفة عاصمة إقليم الساحل بإرتريا حالياً.
- **مملكة قطاع** : تبدأ من نقفة حتى سمهر.

إن توزع البجة في جنوب مصر وداخل السودان وإرتريا وقبل أن توضع الحدود السياسية الحالية يؤكد القبائل التي تُشكل البجة؛ فالبجة ينقسمون إلى عشر قبائل هي : [البشاريين - الامرار - الأرتيقة - الأشراف - الكميلا - الهدندوة - الملهيتكنات - الحباب - الحنقة - البني عامر] وهناك من ضمن قبائل البجة التي ذكرها ابن حوقل قبل ألف عام والتي لاتزال تحتفظ بنفس الاسم هي : [الرقبات - عيدق - منسج] .

المعروف أن البجة ظلوا على وثنيتهم حتى عهود متأخرة، ومما عبده الآله (أزيس) الذي كانوا يعتقدون أنه واهب الخصب لبلادهم، ولم يعتنقوا المسيحية التي أصبحت الدين الرسمي للدولة الرومانية؛ بل قاوموا المسيحية، في حين اعتنقتها جارتهم من ممالك مصر ومروى والحبشة. كما قاوموا الإسلام حتى اعتنقوه خلال قرون عديدة وبانتشار بطيء امتد إلى مستهل القرن الخامس عشر الميلادي؛ فقد أدى استقرار القبائل العربية التي تدين بالإسلام ومنها قبيلة ربعة إلى تسرب الإسلام إلى البجة. والشاهد على ذلك تلك المساجد التي بنيت في بلادهم والتي نصّت المعاهدة المعقودة في ٢١٦هـ بين ابن الجهم وكنون بن عبد العزيز رئيس البجة على حمايتها ورعايتها.

أما عن منفذ البجة فقد لعب ثغر عيذاب دوراً هاماً؛ فقد كانت عيذاب أكبر مركز تجاري ربط في مرحلة تاريخية التجارة بين الهند واليمن ومصر وإرتريا والحبشة. كما أن المسيحيين في إرتريا وإثيوبيا يحجّون إلى بيت المقدس في فلسطين عن طريق ميناء عيذاب وكذلك كان يفعل اليهود الفلاشا. ويقول المستر وايلد بوجود طريق قديم جداً من مروى إلى (رأس بناس) يخترق (سواكن - بربر) حتى محمد قول. وفي الطريق علامات كان يتبعها الحجاج الأحباش الذين كانوا يؤمنون القدس عن طريق البادية بدلاً من طريق سواحل البحر الأحمر الذي كان شديد الخطورة عليهم. وكثيراً ما دُبحت قوافلهم اليهودية والمسيحية على يد قبائل البجة الوثنية.

وذكر المقريري الشيء الكثير عن حياة البجة وعاداتهم وتقاليدهم، وذكر أيضاً أنهم كانوا يقومون بنقل الحجاج من ثغر عيذاب عبر البحر الأحمر إلى جدة ومنها إلى مكة، وأنهم كانوا يستخدمون في ذلك الجلاب (السفن) التي كانوا يصنعونها بأيديهم.

أخبار البجة وحروبهم

اشتهرت القبائل البجاوية عبر التاريخ بأنها قبائل محاربة، وقد اهتم الكثير من المؤرخين بأخبار الحروب والمعارك الطاحنة التي خاضتها هذه القبائل ضد الفراعنة والبطالمة والرومان وملوك أكسوم، ففي عام ٢٧٢م زادت متاعب الرومان كثيراً في مصر لأن الملكة (زنوبيا) ملكة (تدمر) الشهيرة في سوريا أبدت نشاطاً عظيماً في هجومها على الرومان في مصر، حيث استطاعت أن تعقد تحالفاً مع كثير من الفئات المصرية المتذمرة من حكم الرومان لمصر، واتفقت أيضاً مع البجة في جنوب شرق مصر على فتح جبهة أخرى للرومان لكي يشدد الضغط الحربي عليهم. واستجابة للتحالف مع الملكة زنوبيا قام البجة بهجوم عنيف على الرومان واستطاعوا أن يتقدموا داخل الحدود المصرية؛ إلا أن حلفائهم من التدمريين أصيبوا بالهزيمة ! مما أدى إلى خروجهم من المعركة؛ فاتجه الجيش الروماني لمساندة جنوده بالحدود الجنوبية، حيث تمكنوا من صد الهجوم البجاوي الذي وصل إلى مقربة من سوهاج، وأخذ القائد الروماني (بروس) في تعقب البجة، حتى تم طردهم من مصر في عام ٢٧٤م، وقد وقع بعض البجة أسرى في أيدي الرومان. ويذكر المؤرخ الروماني (فويسكوس) أن بعض أولئك الأسرى كانوا من العرب الذين عبروا إلى إقليم البجة وأصبحوا من رعايا ملك البجة.

وتوالى هجمات وحملات البجة ضد الرومان، ففي عام ٤٢٩م عبرت الجيوش البجاوية الصحراء الشرقية مندفعة نحو أسوان، حيث عبروا النيل حتى وصلوا واحة (الخارجة) التي كانت معقلاً رومانياً مسيحياً؛ فأبادوا الحامية التي كانت هناك وأسروا سكان الواحة المسيحيين وعادوا أدراجهم إلى بلادهم.

وفي أيام الإمبراطور (مارشيان) الروماني تحالف ملك البجة مع ملوك النوبة على غزو بلاد مصر العليا (الوجه القبلي)، فأقلقوا سكان الحدود من المصريين، وذبحوا الرومانيين وعمالهم الذين كانوا ينقبون في المناجم عن المعادن؛ مما اضطر الرومان إلى طلب الصلح معهم، واتفقوا معهم على شروط الصلح. وبالرغم من ذلك استمرت الحرب سجالاً بين الرومان والبجة، إلى أن زالت دولة الرومان على يد الجيش العربي الإسلامي في القرن السابع الميلادي.

معاهدة عظيم البجة مع الدولة العباسية

اشتد هجومات البجة على ريف صعيد مصر في أوائل القرن الثالث للهجرة، وعندما رفع والي أسوان الأمر إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد أمر بإخراج عبد الله الجهم، فكانت له مع البجة حروباً مشهودة. ثم اتفقوا على الهدنة بينهم، وكتب المعاهدة الشهيرة مع مكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان، وهذا نصها :-

[هذا كتاب عبد الله الجهم مولى أمير المؤمنين صاحب جيش الغزاة عامل الأمير إلى إسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد أبقاء الله. في شهر ربيع الأول سنة ستة عشرة ومائتين لمكنون بن عبد العزيز عظيم البجة بأسوان.

إنك سألتني استقمت واستقاموا على ما أعطيتني، وشرطت لي في كتابي هذا وذلك أن يكون سهل بلدك وجبلها من منتهى حد أسوان من أرض مصر إلى حد ما بين دهلك

وباضع (مصوع) مُلكاً للمأمون عبد الله بن هارون الرشيد أعزه الله تعالى وجميع أهل بلدك عبيد لأمر المؤمنين، إلا أنك تكون ملكاً في بلدك، ملكاً على ما أنت عليه في البجة، وعلى أن تؤدي إليه الخراج في كل عام على ما كان عليه سلف البجة وذلك مائة من الإبل وثلاث مائة دينار وازنة داخلة في بيت المال، والخيار في ذلك لأمر المؤمنين ولولاته. وليس عليك أن تحرم شيئاً عليك من الخراج، وعلى أن كل واحد منكم إن ذكر محمد صلى الله عليه وسلم وذمة أمير المؤمنين أعزه الله وذمة جماعة المسلمين وحل دمه كما يحل دم أهل الحرب وذرايرهم، وعلى أن أحداً منكم إن أعان المحاربين على أهل الإسلام أو دله على عورة من عورات المسلمين أو أثر لعزلتهم فقد نقض ذمة عهده وحل دمه. وعلى أن أحداً منكم إن قتل أحد المسلمين عمداً أو سهواً أو خطأ حراً أو عبداً أو أحد من أهل الذمة المسلمين أو أصاب أحداً من المسلمين أو أهل ذمتهم مالا ببلد البجة أو ببلاد الإسلام أو بلاد النوبة في شيء من البلدان براً أو بحراً فعليه في قتل المسلم عشر ديات وفي قتل العبد المسلم عشر تيم، وفي قتل الذمي عشر ديات من دياتهم، وفي كل ما أصبتموه للمسلمين وأهل الذمة عشر أضعافه. وإن دخل أحد من المسلمين بلاد البجة تاجراً أو مقيماً أو مجتازاً أو حاجاً فهو آمن من قبلكم كأحدكم حتى يخرج من بلادكم ولا تأووا أحداً من أبقي المسلمين، فإن أتاكم فعليكم أن تردوه إلى المسلمين. وعلى أن تردوا أموال المسلمين إذا صارت في بلادكم مؤونة تلزم في ذلك. وعلى أنكم إن نزلتم ريف صعيد مصر بتجارة أو مجتازين لا تظهروا سلاحاً، ولا تدخلوا المدن والقرى بحال ولا تمنعوا أحداً من المسلمين الدخول إلى بلادكم والتجارة فيها براً وبحراً، ولا تخيفوا السبيل ولا تقطعوا الطريق على أحد من المسلمين ولا أهل الذمة، ولا تسرقوا المسلم ولا الذمي مالا، وعليكم ألا تهدموا شيئاً من المساجد التي بناها المسلمون في (صبحه) و (هجر) وسائر بلادكم طولاً وعرضاً. فإن فعلتم ذلك فلا عهد لكم ولا ذمة. وعلى أن مكنون بن عبد العزيز يقيم في ريف صعيد مصر وكيلاً من المسلمين بما يشترط لهم من دفع الخراج ورد ما أصاب البجة للمسلمين من دم أو مال، وعلى أحد من البجة أن لا يعترض حد القصد إلى قرية يقال لها (قبان) من بلد النوبة حد الأعمدة .

عقد عبد الله بن الجهم مولى أمير المؤمنين لمكنون بن عبد العزيز كبير البجة الأمان على ما سمينا وشرطنا في كتابنا هذا، وعلى أن يوافي به أمير المؤمنين. فإن زاغ مكنون أو عاث فلا عهد له ولا ذمة. وعلى مكنون أن يدخل عمال أمير المؤمنين بلاد البجة لقبض صدقات من أسلم من البجة، وعلى مكنون الوفاء بما شرط لعبد الله بن الجهم، وأخذ بذلك عهد الله عليه بأعظم ما أخذ على خلقه من الوفاء والميثاق.

ولمكنون بن عبد العزيز وجميع البجة عهد الله وميثاق أمير المؤمنين وذمة الأمير ابن إسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بالوفاء بما أعطاه عبد الله بن الجهم ما وفي مكنون بن عبد العزيز بجميع ما شرط عليه، فإن غير مكنون أو بدل أحد من البجة فذمة الله جل اسمه وذمة المسلمين وذمة أمير المؤمنين ابن إسحق بن أمير المؤمنين الرشيد وذمة عبد الله بن الجهم وذمة المسلمين بريئة منه .]

وترجم جميع ما في هذا الكتاب حرفاً فحرفاً زكريا بن صالح المخزومي من سكان جدة وعبد الله ابن إسماعيل القرشي. ثم تسعة جماعة من شهود أسوان.

استئناف الحرب بين البجة والدولة العباسية

عمل البجة بموجب هذه المعاهدة خمسة عشر عاماً، ثم تغلبت عليهم عدة عوامل أهمها العامل الاقتصادي. فقد بدأ ملك البجة بطرد العرب من جميع المناجم والمدن ومنع دفع الخراج. ومن الواضح أن المعاهدة كانت لصالح العرب؛ حيث جعلت البجة عبيداً لغيرهم ! وهم الذين لم يألفوا الخضوع والخنوع في كل تاريخهم، ولكن تلك الاتفاقية فرضت عليهم أن يشتغلوا في حفر المناجم ويدفعون الضرائب عن أموالهم مرغمين. وكانت مواقع المناجم في وادي العلاقي وفي شمال إرتريا بالمناطق المعروفة بـ (جبال هَجَر) وتمتد إلى أركويت بشرق السودان. وكان البجة حسب العُرف المتفق عليه يأخذون نصف الإنتاج ممن يعملون في المعادن من العرب ويدفعون منه للسلطان سنوياً الأربعمائة مثقال تبر قبل أن يُصقى.

وقد جاء في تاريخ الطبري أن البجة خرجوا من بلادهم إلى معادن الذهب والجواهر، فقتلوا عدداً كبيراً من المسلمين ممن كان يعمل في المعادن، وسبوا عدداً من ذراريهم ونسائهم. وذكروا أن المعادن لهم وهي في بلادهم، وأنهم لا يأذنون للمسلمين دخولها. فانصرف المسلمون عنها خوفاً على أنفسهم وذراريهم؛ فانقطع بذلك كل ما كان يؤخذ للسلطان بحق الخمس من الذهب والفضة. فقرر الخليفة العباسي المتكل محاربة البجة، فولّى أحد رجاله وهو محمد بن عبد الله المعروف بـ (القمي) من مدينة (قم) الفارسية، وولاه معادن تلك البلاد. وكتب إلى عنبسة بن إسحاق العامل على مصر بإعطائه جميع ما يحتاج إليه من الجند، فخرج عنبسة إلى أرض البجة وانضم إليه جميع من كان يعمل في المعادن، كما قدم إليه الكثير من المتطوعين، فخرج إليه ملك البجة علي بابا (أولباب) وابنه الأمير فيعس في جيش كبير. وكانت البجة على إبلهم بالحراب، فجعلوا يتقاتلون أياماً متوالية، فيتناوشون ولا يصدقون المحاربة ! وجعل ملك البجة قتاله شبه مهادنة لكي تطول الأيام طمعاً في نفاذ الزاد والعلوقة التي كانت معهم؛ فلا تكون لهم قوة ويموتون هزلاً، فتأخذهم البجة بالأيدي. وأخيراً حمل جيش الملك علي بابا أمير القمي ورجاله، واستمرت الحرب سجلاً حتى اقترح رجال القمي أن يستعملوا الأجراس وسلاسل الحديد في أعناق خيولهم ويهجموا بها على الجمال التي اشتد رعبها ونفورها من الضوضاء التي أثارتها الأجراس والسلاسل، ففرت بأصحابها إلى الجبال والأودية حتى أدركهم الليل وذلك في سنة ٢٤١ هـ. وبعد أيام جاءه مندوب الملك طالباً الهدنة، كان القمي قد غنم تاج الملك، فأعطاه الأمان وردّ إليه بلاده التي احتلها على أن يؤدي ما عليه من المتأخرات من الخراج، وعاد القمي ومعه ملك البجة علي بابا إلى الخليفة المتوكل في مدينة (سُرّ من رأى = سامراء) بالعراق بعد أن استخلف ابنه فيعس على مملكته. وخلع المتوكل خُلاً من الحرير واعترف له بالسيطرة التامة على طريق ما بين مصر ومكة المكرمة، ووضع المتوكل على رأس علي بابا عمامة سوداء (وهي شعار بني العباس) بدلاً من التاج، وعاد علي بابا إلى بلاده معزراً مُكرّماً ومحملاً بالهدايا.

الباب الرابع

مملكة أكسوم

كانت مملكة أكسوم امتداداً لممالك سبأ وحُمير في اليمن، وقد أنشأها المهاجرون الأوائل من جنوب الجزيرة العربية وتحديدًا من اليمن، والذي يجب أن نلفت إليه الانتباه هو أن دولة أكسوم التي أنشأها المهاجرون الساميون من قبائل (حبشات، وأجعازيان) وغيرها من المرتفعات الإرترية وهضبة التجراي في شمال إثيوبيا لم تحمل إسم دولة الحبشة إلا في عهود متأخرة، أي نحو القرن العاشر الميلادي بعد نشوء مملكة الأمهرا.

أما كلمة الحبشة فقد اشتقت من لفظ (حبشات) وهي قبيلة عربية نزحت من جنوب الجزيرة العربية إلى سواحل إرتريا، ثم توغلت إلى المرتفعات الجبلية لتصبح فيما بعد إحدى القبائل التي ساهمت في تأسيس مملكة أكسوم.

وقد ورد ذكرها في النقوش اليمنية الأكسومية القديمة، وقد سكنت هذه القبيلة وغيرها من النازحين من اليمن في بداية الأمر في جزر دهلك الإرترية، ثم أنشأوا طرق قوافل نحو الداخل للاتجار مع السكان الأصليين من الكوشيين. والأسماء السامية التي تطلق على بعض المناطق في إرتريا مثل (عين سبأ) ومرب (مأرب) وهو النهر الفاصل بين إرتريا وتجراي خير شاهد على ذلك.

وفي أسماء الأعلام العربية حبش حبيش والأحابيش قوم من قريش تحالفوا فسُموا ذلك، وفي اليمن جبل يدعى بـ الحبش، ويقال إن قبيلة الحبشات تنتمي إلى تلك المنطقة.

أما قبيلة (أجعازيان) وهي أيضاً إحدى القبائل العربية التي شكلت مملكة أكسوم فهي كما يقال أقدم من هاجر إلى الشواطئ الإرترية من قبائل اليمن، وكان موطنها الأصلي على الساحل بين صنعاء وعدن، ولهم نقوش تذكرهم في اليمن وأكسوم. وإليهم تنتسب لغة الجنز التي اشتقت منها لغتي التجري والتجرينية في إرتريا. ونفس الشيء لإقليم تجراي الإثيوبي موطن مملكة أكسوم التاريخية، حيث يتحدث سكان هذا الإقليم حتى اليوم باللغة التجرينية والمشتقة من الجنز حرفاً ونطقاً.

ظلّ الأحباش على مر العصور وحتى اليوم يطلقون على أكسوم العاصمة المقدسة وذلك لسببين : السبب الأول يرجع إلى نشأة التراث والديانة المسيحية فيها؛ فقد كان مولد المسيحية في هذه العاصمة، ومنها انتشرت إلى سائر الأنحاء في الهضبة.

والسبب الثاني ينبع من التقاليد التي اقتضت أن يتوج الأباطرة والملوك في كنيستها التاريخية المعروفة بإسم (بيت مريم) وهي أول كنيسة قامت في بلاد الحبشة. ومازالت

كنيسة بيت مريم قائمة على الرغم من تهديمها واحتراقها مرتين عبر التاريخ؛ ففي المرة الأولى تم تهديمها في القرن العاشر الميلادي على إثر الغارة البربرية التي شنتها على أكسوم الملكة (جوديت) ملكة إحدى القبائل التي تعتنق اليهودية والتي حاربت المسيحية من معاقل قبيلتها سنين طويلة، ثم لحق بها الدمار للمرة الثانية بسبب الحروب التي قامت بين المسلمين والمسيحيين في أوائل القرن السادس عشر.

وقد بلغت مملكة أكسوم مجدها وسلطانها في الفترة الواقعة ما بين القرنين الثاني والسابع الميلادي؛ حيث امتد نفوذها حتى بلاد النوبة في الشمال والبحر الأحمر من ناحية الشرق وحتى الصومال على المحيط الهندي.

وبامتداد نفوذها وهيمنتها على طرق المواصلات فقد نشطت قوافلها واتسعت تجارتها الخارجية، ومعظمها كان عن طريق ميناء عدوليس على البحر الأحمر وميناء زيلع بعدئذ على خليج عدن.

ولم تكن أكسوم مجهولة عند اليونانيين القدماء؛ فقد توطدت بين البلدين صلات تجارية وثيقة، وقد كشفت هذه الحقيقة الكتابات الإغريقية التي أماطت اللثام عنها الدراسات الأثرية المتأخرة في موقع ميناء عدوليس المنقرض والذي لازالت أطلاله قائمة تشهد على ذلك التاريخ القديم.

إن مملكة أكسوم وعبر الحروب التي كانت تشنها في كل الاتجاهات قد توسعت شرقاً وشمالاً، ويتأكد ذلك من خلال نقش أكسومي يرجع إلى القرن الرابع الميلادي، حيث ورد فيه إسمان من أسماء ملوك أكسوم وهما : (الأعمدة وابنه عيزانا)، ويلقبان بألقاب (ملك أسوك وحمير وذو ريدان وسبأ وأحبش وأصلح وتهامة والبجة وصامو). كما يُذكر عيزانا ملك أكسوم في النقوش التي سجلها في لوحته ألقابه. وواضح أن المواضع التي ذكرت بعضها في اليمن، أما ريدان فهي ظفار الحديثة وكاسو المذكورة تعني الكوش.

ومن الثابت تاريخياً أن الملك عيزانا كان أول ملك من ملوك أكسوم الذي اعتنق المسيحية في حوالي ٣٥٠م، وإن المسيحية دخلت الحبشة على يد القس السوري فرومنتيوس قبيل منتصف القرن الرابع الميلادي.

حروب أكسوم

لعبت مملكة أكسوم أدواراً كبيرة في الحروب العديدة التي خاضتها في كل الاتجاهات، وأن الألقاب التي كان يطلقها عيزانا وغيره من حكام أكسوم على أنفسهم كانت بمثابة الحروب التي خاضوها والبلدان التي أخضعوها لحكمهم عبر هذه الحروب، وأخبار هذه الحروب سُجل بعضها على النقوش الحجرية التي تم اكتشافها، والبعض الآخر سجّله مؤرخون، كما وردت إشارات من القرآن الكريم لبعض هذه الأخبار.

وإن اكتشاف بعض النقوش أطمأنت اللثام عن حقائق هامة؛ إذ دلت على أن ملوك أكسوم كان هاجسهم هو توسيع آفاق ملكهم، ليس بالسيطرة على ما جاورهم من البلاد فحسب؛ بل عمدوا إلى عبور البحر الأحمر على عهد الملك (أفيلاس) واحتلوا بعض الأجزاء من الجنوب العربي - مواطن أسلافهم - وذلك في عام ٣٤٠ م. واستمر احتلالهم لها حتى سنة ٣٧٤ م. وكان هذا هو الاحتلال الأول للجنوب العربي. وتؤيد الآثار التي دونها الملك عيزانا في القرن الرابع الميلادي استمرار سيطرتهم على بعض أجزاء الجنوب العربي، إلى جانب غزوهم لمملكة مروي في السودان.

وأهم الحملات العسكرية الأكسومية التي يذكرها التاريخ هي تلك التي اتجهت إلى اليمن، والذي أدى إلى الحملة الأكسومية المدعومة من الرومان هو اضطهاد ملك حمير اليهودي (ذو نواس) لنصارى نجران وحرقتهم أحياء في أخدود حسبما جاء في القرآن الكريم. على أن الواقع الحقيقي لهذه الحملة الكبيرة لم يكن دينياً إلا في ظاهره؛ بل كان الصراع بين أقوى إمبراطوريتين آنذاك (الرومانية والفارسية) على طرق التجارة في البحر الأحمر.

وقد ذكر المؤرخ الألماني (بروكوبيوس) أن القيصر جستنيان أرسل رسولاً عنه يدعى (جوليانوس) إلى النجاشي آل (أصبحه) ملك أكسوم يرجو منه إعلان الحرب على الفرس وقطع العلاقات التجارية معهم، لأنه والقيصر على دين واحد هو النصرانية، وعليه مساعدة أبناء دينه الروم والنصارى والاشتراك معهم في قضيتهم. ووصل رسول جستنيان إلى ميناء عدوليس. وكانت عدوليس (ميناء زولا الإترتي الحالي) في تلك الأزمنة تخضع لمن كان يسيطر على مصر : البطالسة اليونانيين أولاً، ثم الرومان ثانياً. فتوجه جوليانوس رسول القيصر جستنيان من عدوليس إلى أكسوم حيث وجد النجاشي وأبلغه الرسالة. ولبى النجاشي الدعوة وأرسل حملة عسكرية إلى اليمن لإنقاذ نصارى نجران من تعذيب ملك حمير اليهودي ذو نواس المدعوم من الفرس، وعندما استعان القيصر الروماني جستنيان بجيش أكسوم للانتقام من ذو نواس ملك حمير لتعذيبه نصارى نجران وتعرضه للقوافل الرومانية في اليمن؛ فقد أبحر ملك أكسوم بأسطول روماني من مصر، حيث نقل الجيش الأكسومي إلى اليمن. وكان المؤرخ الروماني (كوزماس ندكو يلىستوس) في عدوليس عندما نُقلت الحملة الأكسومية في عام ٥٢٤ م إلى اليمن، وكتب عنها في مؤلفه { التبوغرافيا المسيحية } وأكد أن السفن كانت رومانية قُدمت من خليج العقبة، وإن ميناء عدوليس كان مزدهراً يزدهم بالسفن القادمة من مصر واليمن وفارس والهند وجزيرة سيلان.

نُقلت الحملة الأكسومية على دفعتين بسفن رومانية قُدمت من مصر، وتحركت القافلة الأولى بقيادة النجاشي على سفينة خاصة به؛ فعبرت باب المندب ورسّت عند ساحل اليمن، ثم تلتها بقية السفن، ووقعت معارك بين جيش أكسوم والحميريين انتهت بانتصار أكسوم.

استقل أبرهة الأشرم بحكم اليمن، وأصبح ملكاً عليها، وتوارث العرش أبناؤه من بعده لمدة سبعين عاماً، وفي عهده بنى كنيسته الشهيرة في اليمن، حيث أراد أن ينافس بها مكة المكرمة التي كان يحج إليها العرب في جاهليتهم وحتى قبل ظهور الإسلام، والقصة واردة في القرآن الكريم.

انتهى حكم أبرهة الأشرم في اليمن حوالي سنة ٥٤٤م، وتولى الحكم من بعده ابنه (يكسوم)، وقد حكم اليمن تسعة عشر عاماً، ثم خلفه أخوه (مسروق) وحكم اثني عشر عاماً. وأخيراً بلغ ضيق حمير بالأحباش مبلغه ! ووجد الفرس أن الفرصة سانحة لغزو اليمن في صراعهم مع الروم من أجل السيطرة على البحر الأحمر وتجارته الرائجة. ولعب (سيف بن ذي يزن) دوراً هاماً في دعوة الفرس الذين جاؤوا بثماني سفن، فقابلهم الملك الأكسومي (مسروق) بمائة ألف مقاتل. وتمكن القائد الفارسي (وهرز) من قتل (مسروق) بنشابة وهو على ظهر بغلته، فلما سقط صريعاً انهزم جيش أكسوم وتمزق شمله واستمر الفرس بعد قتال اليمن في غزو البحر الأحمر؛ حيث أخضعوا عدوليس وجزر ذلك لسيطرتهم. ولا تزال آثارهم باقية حتى اليوم ومنها : الصهاريج التي كانوا قد بنوها لحفظ المياه.

أما نهاية مملكة أكسوم فقد تمت في القرن الثامن الميلادي؛ فقد اندثرت أكسوم كمملكة موحدة إثر اجتياح موجات قبائل البجة للمرتفعات الإرترية والهضبة الإثيوبية، فقد تعرضت هضبة إرتريا والتجراي إلى اكتساح البجة الذين استقروا في البلاد وحموها أكثر من أربعة قرون، حتى أن كثيراً من سكان محافظة حماسين في إرتريا على وجه الخصوص يدعون انتسابهم إلى قبائل البجة وتحديداً لقبيلة بلو العربية [سعد زقا - هز زقا - بيت مخا]، وإن عدداً من القبائل في المديرية الغربية من إرتريا والبعض من قبائل الساحل لا تزال حتى اليوم تؤكد وجود امتدادات لها في الهضبة الإرترية، كما تؤكد وحدة أصول هذه القبائل رغم أن قبائل المديرية الغربية وقبائل الساحل اعتنقت الإسلام، أما امتداداتها في الهضبة ظلت على ديانتها المسيحية.

الباب الخامس

من هي إثيوبيا والإثيوبيون ؟

إن انفراد الحبشة بتسمية إثيوبيا أمر جديد يعود إلى عهد الإمبراطور هيلي سلاسي، والهدف من الانفراد بهذه التسمية يعود إلى عقلية التوسع التي تميز بها أباطرة إثيوبيا الذين لم يتورعوا من تزييف التاريخ واللجوء إلى الأساطير التي لا تسندها أية حقائق تاريخية. أما المقصود من كلمة إثيوبيا والإثيوبيين هنا هو المعنى العام للكلمة كما أطلقه اليونانيون على الشعوب التي تسكن جنوب أسوان وحتى آخر حدود الصومال وتعني : السود أو ذوي الوجوه المحروقة. أما تسمية الحبشة فقد اشتقت من لفظة (حبشات) وهي قبيلة عربية نزحت من جنوب الجزيرة العربية إلى سواحل إرتريا ثم توغلت إلى المرتفعات الجبلية لتصبح فيما بعد إحدى القبائل التي ساهمت في تأسيس مملكة أكسوم. وقد ورد ذكرها في النقوش الأكسومية القديمة.

وفي بحثنا لتعريف من هي إثيوبيا والإثيوبيين، فليس هناك مجال لبحث تاريخ شعوب هذه المنطقة من الناحية العرقية؛ لأنها في النهاية تمثل مزيجاً للعنصر السامي والحامي والنيلي (الزنجي)، وبالتالي لا يمكن تصنيفها لعنصر عرقي صافٍ معين؛ بل إن التزاوجات التاريخية بين الساميين والحاميين والنيليين هي التي أفرزت كل من شعوب : [السودان - إرتريا - الحبشة - الصومال]، وهي في النهاية شعوب واحدة. لذا فإن المتحدثين بالتجري والتجريدية والعفريية والسهامية والبجائية والنوبية والأمهرية وباقي اللغات مثل الصومالية والأورومو .. إلخ، يمثلون تجمعات لغوية وثقافية وحضارية وليست تجمعات عنصرية أو عرقية معينة. فعند الأوربيين وبسبب ارتباط بلاد الحبشة في العصور الوسطى بالأساطير التي نسجوها حول اسم (برسترجون) والذي أطلقه الأوربيون على ملك الحبشة والذي توهموا أنه يحكم إمبراطورية شاسعة تضم معظم أراضي آسيا وإفريقيا، كما نجد ملوك أوربا وحكامها في العصور الوسطى يقرنون في بعض الأحيان اسم النوبة بالحبشة في مشروعاتهم الصليبية. فنجد ألفونسو الخامس (ملك البرتغال) يمنح في ٧ يونيو ١٤٥٤م طائفة الرهبان اليسوعيين (الجزويت) التي يرأسها (هنري الملاح) الولاية الروحية على بلاد النوبة والحبشة. كذلك تشير بعض كتب الرحالة الأوربيين إلى أن النوبة من ممتلكات (برسترجون) ملك الحبشة. ومن هذه الكتب كتاب الرحالة الجنوبي (أنطونيو أوسودي مير) الذي كتبه سنة ١٤٥٥م، وقد ورد في هذا الكتاب أن برسترجون هو إمبراطور وبطريق النوبة والحبشة ويسمى بعبد الصليب. وورد أيضاً في بعض الكتيبات العربية ما يفهم منه أن لفظة الأحباش أو الحبش تعني كلاً من الأحباش والنوبيين. مثال ذلك ما أورده أبو صالح الأرمني بصدد حديثه عن (كريكوس) ملك النوبة مُدْعياً أن ملك النوبة والحبشة حيث يقول : [إن ملك الحبشة والنوبة كريكوس سار لغزو مصر سنة ١٣٨هـ ومعه مائة ألف فارس، وخرَّب ودمَّر بلاد صعيد مصر].

إن شعوب هذه المنطقة الواقعة جنوب مصر حتى أرض الصومال والتي عُرفت بإسم إثيوبيا والإثيوبيين في مراحل تاريخية موغلة في القدم قد عُرفت أيضاً في مراحل تاريخية أخرى بأسماء مختلفة. فلما كان الحاميون (أبناء حام بن نوح) الذين أطلق عليهم إسم الكوشيون قد استوطنوا البلدان الواقعة جنوب مصر حتى الصومال بعد أن نزحوا إليها في فترات تاريخية قديمة؛ فقد أطلق على البلاد أيضاً إسم بلاد الكوش، حيث شملت بلاد الحبشة وإرتريا والسودان والصومال، وقد كان العنصر الكوشي سائداً في المنطقة قبل مجيء الساميين من جنوب الجزيرة العربية، وقد كان قدماء المصريين يطلقون إسم (كوش) على المنطقة الواسعة المعروفة حالياً بإسم (القرن الإفريقي) ويطلقون تسمية الكوشيين على أهلها. وكانت تدخل تحت هذه التسمية الأقطار الحالية بعد تخطيط الحدود الجغرافية الحديثة وهي بلاد [الصومال - جيبوتي - الحبشة - إرتريا - السودان حتى أعالي مصر]، وكما هو معروف فلم تكن لمنطقة كوش حدود معينة واضحة المعالم، وليس بعيداً عن الاحتمال أن تكون هذه الرقعة المترامية الأطراف الغنية بالموارد والخيرات وغزارة المياه وكثافة الغابات هي أقدم بلاد العالم التي استوطنتها الإنسان في العصور السحيقة وما قبل التاريخ.

وتُعد لغات [الأغو - الأرمو - السداما] في الحبشة، و [الساهو - الدناكل - البلين] في إرتريا، وكذلك لغة الصومال ولغات النوبة والبجة في السودان لغات كوشية الأصل.

من المعروف بأن الحضارات والثقافات والتزاوجات التاريخية التي تمت بهذه المنطقة قد تأثرت بشكل مباشر جنوباً من اليمن وشمالاً من مصر، فمن الجنوب : أثرت حضارات معين وحُمير وسبأ والهجرات البشرية التي تمت في مراحل تاريخية متفرقة؛ كما أن كل حُكم حلَّ بمصر منذ عهد الفراعنة والبطالسة والرومان كانت له بصماته واتصالاته وفتوحاته وتأثيراته لدى الشعوب القاطنة على امتداد الشاطئ الغربي للبحر الأحمر [السودان - إرتريا - الحبشة - جيبوتي - الصومال]، كما أن الرومانيون امتدت فتوحاتهم إلى منابع نهر عطبرة والقاش وخور بركة حتى حدود إثيوبيا. وعندما احتاج المصريون القدماء منذ عهد الفراعنة إلى البخور والأخشاب وجلود الحيوانات الموجودة في الصومال، وعرفوا أن أسهل طريق للوصول إلى هذه البلاد الإفريقية هو بالملاحة في البحر الأحمر، وأطلقوا على أرض الصومال تسمية (بلاد بونت). ومن غرائب التوافق والمصادفات أنه ما من ملك أو سلطان حكم مصر مستقلاً عن دولة أخرى إلا وفكر في مد ملكه جنوباً. فالفراعنة بدأوا اتصالاتهم بالأراضي الجنوبية حتى الصومال في وقت مبكر منذ الأسرة الأولى. وهكذا حال الفرس والرومان والفتح الإسلامي، ثم الأتراك أخيراً. وقد ذكر المؤرخون أن بطليموس بوجيتس الثاني ثامن البطالمة الذين حكموا مصر قد زحف على مملكة مروي، ففتحها ثم سار جنوباً ففتح مدينة أكسوم، ودون خبر فتوحاته باللغة اليونانية على حجر من الرخام في ميناء عدوليس المعروف الآن بميناء زولا الواقع على بُعد عشرين ميلاً إلى الجنوب من مصوع. ولم يسبق أن ملكاً من ملوك مصر قد مد فتوحاته إلى الحد الذي وصل إليه بطليموس؛ ولكنه لم يستطع حفظ سلطته على البلاد التي فتحها، فعادت لأهلها كما كانت. ورغم ما كان بين شعوب هذه المنطقة المترامية

الأطراف من جنوب مصر وحتى أرض الصومال من حروب وغزوات؛ إلا أن المصالح أيضاً كانت ولا تزال تربط بينها. ففي العصور الساحقة كانت واردات هذه المنطقة من البهارات كالفلل والقرفة والملابس بأنواعها والعطور والخرز والسوميت على أنواعه وخاصة الكهرمان. أما الصادرات فقد كانت : [الدقيق، التمباك، ريش النعام، العاج، الخيول، الجمال، الذهب، السمن، الحبوب بأنواعها خاصة الدخن والقمح].

وأهم ما كان يستورده ملوك البطالمة من شرق إفريقيا : [البخور، المر، القرفة، العاج، ريش النعام]، ومن الهند : [الأرز، الأصناف، اللآلئ، الأصباغ، وأنواع مختلفة من البهارات، الأخشاب، الذهب خاصة من وادي العلاقي بأرض البجة .. وغيره]. مصادر المياه أيضاً ربطت بين شعوب هذه المنطقة؛ فإذا جاء نهر عنسبة (عين سبا) بمائه من أسمرة وكرن، ونهر بركة من أغردات، وخور لنقيب من أوربة وغيرها يكون الري جيداً في طوكر. نفس الشيء بالنسبة لنهر القاش ثم سيتيت (العطبراوي) وكذلك النيل الأزرق من الحبشة الذي يغذي نهر النيل الخالد بمائه وطميه والذي تعتمد عليه الحياة في السودان ومصر، وإذا كانت المصالح قد ربطت في الماضي بين شعوب هذه المنطقة، فلا تزال هذه المصالح أكثر إلحاحاً للربط بينهما بعد أن تطورت وتنوعت وسائل المواصلات والاتصالات والعلم والتعليم في العصر الحديث.

نخلص إلى القول من كل ما سبق بأن إثيوبيا والإثيوبيين كانت في التاريخ القديم تطلق على المنطقة الواقعة جنوب مصر حتى آخر الصومال وليس دولة الحبشة الحالية. ويؤكد ذلك المراجع التاريخية والدينية الهامة، وعلى رأسها {العهد القديم Old Testament} حيث أطلقت تسمية إثيوبيا على الممالك النوبية التي تأثرت بالحضارة المصرية القديمة. كما أن دنيس بولم في مؤلفه { الحضارات الإفريقية } يقول : [ونرى الحاميين الشرقيين اليوم والذين امتزجوا بالساميين وبالسود يؤلفون الشعب المصري وشعب البجة والنوبيين والإرتريين والأحباش والغالا والصوماليين والدناكل].

والمنطقة التي تقع إلى أقصى الشرق من إفريقيا وهي هضبة الحبشة وإرتريا والصومال والسودان مأهولة بالسلالات الإثيوبية، ونلاحظ أنه يضع تعريفاً صحيحاً ومحددًا لتسمية إثيوبيا عبر التاريخ القديم، بعيداً عن الخلط الذي يتم باستحواذ دولة الحبشة بتسمية إثيوبي. كما أن (سير بدج Sir Budge) في كتابه عن تاريخ إثيوبيا فقد بدأ الكلام عن تاريخ مملكة النوبة على أساس أنها تحمل جزءاً من إثيوبيا. وقد اعتمد في هذا الاتجاه على جميع المراجع القديمة منذ كتاب الإغريق القدماء (هومير، هيرودون) وغيرهما، الذين اعتبروا أن بلاد إثيوبيا تبدأ من حدود مصر الجنوبية. بينما ذهب العالم الجغرافي (استرابو) إلى القول بأن إثيوبيا كانت جزءاً من مصر وامتداداً لها وتقع إلى الجنوب منها.

الباب السادس

القرن الإفريقي العربي

الأديان

الشاطن الشرى والغربى لبحر القلزم (البحر الأحمر) مرتبطان تاريخياً ومصيرياً وثقافات وحضارات وأديان ومصالح وذلك فى العصور الغابرة وحتى اليوم، وإن النبذة التى أوردها عن الجزيرة العربية من أديان وخلافها نجدها منعكسة لدرجة التطابق فى الشاطئ الآخر للبحر الأحمر، وكما تأثرت الجزيرة العربية من أقصى الجنوب حتى أقصى الشمال بعضها بالبعض عبر كل الحقب التاريخية؛ فإننا نجد أن المنطقة الواقعة من مصر شمالاً وحتى أقصى جنوب الصومال تتأثر بعضها بالبعض. وهذا لم يكن أمراً مستغرباً؛ خاصة إذا وضعنا فى الاعتبار الهجرات المتتالية من الجزيرة العربية باتجاه هذه المنطقة، والتى أخذت مسالك متعددة، أبرزها باتجاه الموانئ التى لعبت دوراً هاماً فى التاريخ مثل [عذاب، سواكن، مصوع، زيلع، بربة، مقديشو]، أو الهجرات الأخرى التى تمت عبر باب المندب واتجهت شمالاً، والهجرات الأخرى التى تمت عبر مصر واتجهت جنوباً.

ويتضح التأثير الأبرز من انتقال الأديان كما هى فى الجزيرة العربية إلى هذه المنطقة؛ فالديانات السماوية [اليهودية، النصرانية، الإسلام] كلها نزحت مباشرة إلى هذه المنطقة من الجزيرة العربية. وقبل هذه الديانات أيضاً الوثنية مثلما كانت لدى سبأ وحمير والحجاز من بعدهما.

دخول الوثنية

حلت ديانة السبئيين (أجزازيان) محل الديانات القديمة للأقوام الكوشية التى كانت تقدس أنواعاً معينة من الأشجار والمياه والثعابين، وكان سكان جنوب الجزيرة العربية يعبدون الشمس والقمر وكوكب الزهرة. والآثار القديمة فى (مطره) و(قوحيتو) فى محافظة أكلى قوزاي بإرتريا تشير إلى عبادة (الإله عستر = إله الزهرة). وقد اشتقت كلمة عستر بلغة التجري من هذه الكلمة وتعني : السماء، كما عبدوا (إله البحر) وأله (مدر) أي إله البحر وإله الأرض وأله عزم أي إله الحرب، وكلها آلهة وثنية كانت تصنع لها التماثيل فى جنوب الجزيرة العربية وانتقلت إلى الهضبة الإرترية مع النازحين الساميين، كما وجدت الحفريات فى عدوليس التاريخية الواقعة جنوب ميناء مصوع معبداً للإله عستر وهو أحد آلهة الجنوب العربى أيام حمير. من المعروف وقبل ظهور الإسلام كانت الوثنية تعم الجزيرة العربية وكذلك مصر والنوبة والبجة وحتى أكسوم. لكن المسيحية وعبر الرومان تمكنت من المصريين والنوبة وأكسوم، وظلت الحجاز والبجة على وثنيتهما حتى ظهور الإسلام الذى اعتنقه، وإن الحبشة كانت بدايتها وثنية يقدس أهلها النجوم والشمس والقمر، ثم عبت آلهة السبئيين بعد غزو هؤلاء للهضبة واستيطانهم فيها. ثم دخلتها شريعة موسى ثم تنصرت ودخلها الإسلام بعد ذلك. ولكن

بمرور الأيام تكونت التكتلات البشرية الدينية؛ فتحصن الأقباط المسيحيون وكونوا أغلبية هناك، بينما ظهرت التجمعات الإسلامية وشكلت أغلبية واضحة في مناطق أخرى مثل السهول الشرقية وهرر والقسم الجنوبي مثل كافا وغيرها، أما قبائل الغالا (الأورمو) فكلها كانت وثنية عندما زحفت على البلاد في القرن السادس عشر. ولكن الذين استوطنوا الهضبة تنصّروا؛ بينما الذين جاوروا المناطق الإسلامية - وهم الأغلبية - فقد اعتنقوا الإسلام، أما الباقون فظلوا على وثنيّتهم. أيضاً كانت الوثنية تنتشر في أرض النوبة وهرر، ولكن المصريين والنوبيون أبطلوا عبادة الأوثان خضوعاً لإرادة الإمبراطور جستنيان الروماني ٥٦٦م الذي استعمل معهم ضروب التعسف والشدة وأمر بتخريب هياكلهم التي كانوا يتعبدون فيها وسحق كهنتهم، فخضع المصريون والنوبيون وتخلوا عن ديانتهم الوثنية واعتنقوا المسيحية. وكما أسلفنا القول، بقيت البجة على وثنيّتها ولم تتخل عنها إلا بعد ظهور الإسلام الذي اعتنقوه وتعصبوا له ولنصرته في كل الحقب التاريخية حتى اليوم.

اليهودية

من الأحداث المثبتة في تاريخ اليهود هو هجرتهم إلى اليمن حوالي سنة ٧٠م على إثر احتلال الرومانيين لفلسطين في عهد الإمبراطور (تيتوس) وهدمهم القدس ومعبد سليمان. وبعد استيطان اليهود باليمن تمكنوا على مر العصور من غرس بذور الديانة اليهودية بين السكان، حتى اعتنقها عدد من ملوك حمير، كان آخر من تهوّد من هؤلاء الملوك (ذو نواس) صاحب قصة الأخدود الواردة في القرآن الكريم، وفحوى القصة أن اليهود قد خشوا من انتشار النصرانية في عدد من مدن اليمن ومن ضمنها نجران، فحمل اليهود الملك ذو نواس على إيذائهم لعلهم يرجعون إلى دينهم اليهودي؛ فجمعهم الملك وخيّرهم بين التهوّد أو الحرق بالنار؛ لذا حفر لهم أخدوداً في الأرض وأضرم فيه النار وألقى فيه من أصروا على البقاء على دين عيسى بن مريم عليه السلام. واختلفت الروايات في عدد من تم إحراقهم : فقليل أنهم بلغوا عشرين ألفاً، وكان ذلك سنة ٥٢٣م. إن شيوع هذا النبا عن حرق النصارى بهذا الأسلوب الوحشي أثار غضب الإمبراطورية البيزنطية ومملكة أكسوم المسيحية التي كان على رأسهما الملك (كالب) وكذلك أسقف أورشليم. ويقال أن إمبراطور بيزنطة طلب من نجاشي الحبشة إعداد العدة لنصرة المسيحية في اليمن وإنقاذهم من الموت وأمدّه بالسفن. وقام ملك أكسوم بتجريد حملة عسكرية كبيرة إلى اليمن سنة ٥٢٤م وعلى رأسها قائده (أرياط)، ودارت معركة على السواحل اليمنية بين جيش أكسوم وجيش ذو نواس، حيث انتصر الأحباش وقتل ذو نواس.

وقد دام احتلال الأحباش لليمن قرابة ٥٠ عاماً؛ إلا أنه سرعان ما حدث انشقاق في صفوف الجيش المحتل، فقد ثار أبرهة الأشرم على قائده أرياط فقتله وحكم البلاد ثم حكمها من بعده أولاده، وقد خُلد إسمه على جدران سد مأرب. وأراد أن يصرف العرب عن الحج إلى مكة التي كانوا يحجون إليها قبل ظهور الإسلام، فشيد في صنعاء كنيسة (انفليس) ليحج إليها العرب. وقصته لمحاولة هدم الكعبة معروفة ومذكورة في القرآن الكريم، حيث حمل عليها بجيش كبير سنة ٥٧١م والتي عُرفت بعام الفيل نظراً لوجود

الفيل مع جيش أبرهة وهو العام نفسه الذي وُلد فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويذكر التاريخ أنه على الرغم من نجاح أبرهة في إخماد الثورات القبلية التي قامت في وجهه؛ فقد ظلَّ رجل واحد لم يغمد سيفه ولم يتمكن أبرهة منه : ذلك هو سيف بن ذي يزن، وهو من سلالة ملوك حمير. وقد إلتجأ أخيراً إلى الفرس مستنجداً بهم وطلب من كسرى أنو شروان الذي قصده بالذات؛ فاستجاب لطلبه حيث أمده بجيش بقيادة (وهرز)، فقاتل إلى جانب القبائل اليمنية الثائرة، فدمّر الأحباش وأجلاهم عن اليمن سنة ٥٧٥م. وكان الحاكم باسم الحبشة آنذاك هو ابن أبرهة (مسروق) الذي خُلف شقيقه يكسوم ابن أبرهة.

ويصمت التاريخ عن دخول اليهودية إلى منطقة القرن الإفريقي؛ ولكن في منتصف القرن العاشر الميلادي وجد اليهود الفرصة سانحة لامتلاك ناصية حكم الحبشة بعد أن ازدادت حالة البلاد سوءاً على إثر تدمير مملكة أكسوم وانعزالها عن العالم الخارجي. فقد قامت امرأة يهودية كانت متمكنة على قبيلة (الفلاشا) اليهودية من عنصر (الأغو) في منطقة سمين الواقعة شمال غرب الحبشة، وهي منطقة نفوذ يهودي منذ عصر قديم. ويطلق على هذه الملكة اسم (جوديت) أو (أستير)، وزحفت على رأس ثورة اليهود، تساعدها جموع من قبيلة (زاقوي) وهم فرع من (الأغو) الكوشيين، وقامت الملكة (يوديت) وغزت البلاد، حيث أحرقت المدن وخرّبت الكنائس واستولت على مملكة أكسوم، وقامت بذبح كل الثوار المسيحيين الذين كانوا يتحصنون في قلعة (دامبو)، ونصبت نفسها ملكة على الحبشة. واشتهرت أسرتها بأسرة (زاقوي)، حيث حكمت هذه الأسرة البلاد نحو ثلاثة قرون بعد أن اعتنق ملوكها بعد ذلك المسيحية، وأشهر ملوكها (لالبيلا) الذي أسس الكنيسة المشهورة المنحوتة في جبل لاستا والتي لاتزال باقية حتى اليوم كقطعة أثرية جميلة.

انتهى حكم هذا البيت على يد (يكونو أملاك) الذي أنشأ ما سُمّي بالبيت السليماني نسبة إلى سليمان الحكيم وذلك في عام ١٢٧٠م بعد أن تعاون معه الأب (تكلاهيمانوت) نظير منح الكنيسة ثلث الأرض في البلاد. أمّا اليهود الفلاشا فقد انحصر وجودهم في مرتفعات سمين Semin ولم يكن لهم أي دور أو تأثير بعد ذلك. وقُدِّر عددهم بستين ألفاً، وهم الذين قامت إسرائيل بتهجير الأغلبية الساحقة منهم إلى فلسطين المحتلة في عهد منجستو هيلي ماريام.

المسيحية

دخلت المسيحية إلى منطقة القرن الإفريقي في وقت مبكر، وقد كان تأثيرها كبيراً، حيث قامت ممالك مسيحية كان لها دورها الكبير بالمنطقة.

ومن المعروف أن تاريخ دخول النصرانية إلى مصر في عهد الإمبراطور نيرون، ومن المشهود أنها دخلت على يد القسيس مرقس.

كما أن الحبشة اعتنقت المسيحية على يد القس السوري فرومنتيوس قبيل منتصف القرن الرابع الميلادي.

ما بعد أكسوم والمسيحية بالحبشة

تحدثنا في مكان آخر عن مملكة أكسوم والأدوار الهامة التي لعبتها في تاريخ المنطقة وحروبها في جنوب الجزيرة العربي وغيرها.

بزحف البجة إلى المرتفعات الإرتيرية وتجاوزها حتى أكسوم وتدمير مملكتها؛ فإن الكثير من الأكسوميين نزحوا باتجاه الجنوب أمام زحف البجة، وأثناء زحفهم إلى الجنوب فقد تم نشر لغتهم (الجنز) وديانتهم المسيحية الأرثوذكسية بين القبائل الوثنية مثل (الأقو) وتمازجوا معهم. وأولئك بالأصل هم قوم من الكوش.

تكونت من هذا التمازج خلال القرون الثلاثة بعد تدمير أكسوم عناصر جديدة طورت لغة خاصة بها سُميت بـ (الأمهرية). وهكذا فإن الأمهرا هم قوم نتجوا من التزاوجات التاريخية بين سكان أكسوم ذو الأصول السامية الكوشية مع قوم من الكوش عنصراً وثقافة، وهم هجين غلبت عليه الثقافة السامية، وأشهر الأسر التي تولت حكم الحبشة بإسم المسيحية هي الأسر الأغوية التي تطرقنا لذكرها وكذلك الأسر السليمانية التي تدعي انتسابها إلى سيدنا سليمان.

والتاريخ الحبشي حافل بالكثير من الأساطير عن هذا الموضوع، من المعروف أن مملكة سيدنا سليمان كانت في القرن قبل الميلاد وتزامنت مع مملكة سبأ، وذكرها وارد في القرآن الكريم.

ظلت الكنيسة الحبشية طيلة العصور المنصرمة تابعة للكنيسة المرقسية بالإسكندرية، وإن هذه التبعية نشأت منذ عُين بطريك الإسكندرية أول مطران للحبشة بشخص فرومنتيوس بعد تنصيرها، وإن فرومنتيوس قد أدخل المسيحية إلى الحبشة. فلما مات فرومنتيوس كتب الملك إلى بطريك الإسكندرية يرجو تعيين خلف للمطران الراحل نظراً لافتقار الحبشة لرجل مؤهل من بين رجال الدين الأحباش لشغل هذا المنصب الخطير؛ خاصة وأن البلاد حديثة عهد بالنصرانية. وهكذا درجت التقاليد على هذا المنوال، حتى استقلت الكنيسة عن الكنيسة الأم - كنيسة الإسكندرية - في عهد الإمبراطور هيلي سلاسي. وكانت التقاليد المرعية أيضاً تستوجب اختيار المطران الجديد من بين أبرز الرهبان المصريين من أحد الأديرة الصحراوية في مصر، وقبول المرشح لمنصبه الجديد يعني النهاية لعلاقته الدنيوية بوطنه الأصلي مصر الذي لن يعود إليه.

وبداية استقلال الكنيسة الحبشية كان في عام ١٩٤٨م بموجب اتفاق بين الطرفين على أن يكون رئيس الأساقفة إثيوبياً. وتولى هذا المنصب (أبونا باسيلوس) في يناير ١٩٥١م، ثم أعقبه اتفاق جديد في سنة ١٩٥٩م أعطى الكنيسة الإثيوبية استقلالاً ذاتياً واتخذ أبونا باسيلوس منصب بطريك.

كانت مصالح الكنيسة القبطية قد ارتبطت منذ القدم بمصالح ملوك السلالة السليمانية وبأوثق الروابط؛ فقد كانوا حُماتها ورعوها وصانوا حرمتها بحد السيف، وهي بدورها أضفت عليهم هالة من القدسية بسبب انحدارهم من الملك سليمان الحكيم كما يدعون؛ ولذا عندما تمكنت الأسرة الأغوية من الاستيلاء على الملك، فقد تلكأت الكنيسة في الاعتراف بشرعية الأسرة الجديدة المغتصبة للملك ولمنحها بركتها وتأييدها في بادئ الأمر. واستمرت العلاقات بين الكنيسة وملوك أسرة زاقوي تتدهور من سيء إلى أسوأ بمرور الأيام ! حتى انعكس ذلك على العلاقات بين هؤلاء الملوك وبطيركية الكنيسة القبطية بالإسكندرية، فقد عزم أول ملوك هذه الأسرة الجديدة على تنحية المطران (أبونا ميخائيل) عن رئاسة الكنيسة متذرعاً بكبر سنه، والواقع هو بسبب معارضته لحكم الأغويين؛ فأرسل بطريك الإسكندرية (البطريك حنا) وفداً يطلب منه أن يُعيّن مطراناً لكي يخلف أبونا ميخائيل؛ فرفض البطريك الطلب لمخالفته النظام الكنائسي الذي لا يجيز تعيين مطران جديد مادام الأول على قيد الحياة. فلماً أحيط الملك علماً بموقف البطريك تملكه الغضب وأعاد الكرة عن طريق وزير الخليفة بالقاهرة هذه المرة؛ إذ أنس فيه النفوذ والسيطرة على شؤون البلاد ورجا منه ممارسة الضغط على البطريك لحمله على عزل المطران واستبداله بغيره. فلماً أصر بطريك الإسكندرية على موقفه المتعنت للمرة الثانية عمّد الوزير إلى سجنه إرضاءً لملك الحبشة.

انتهى حكم الأسرة الأغوية على يد يكونو أملاك الذي أنشأ ما سُمّي بالبيت السليماني نسبة إلى النبي سليمان وذلك في عام ١٢٧٠م بعد أن تعاون معه الأب تكلاهيمانوت نظير منح الكنيسة ثلث الأراضي في البلاد. والجدير بالذكر أن مملكة الأمهرا التي انتهى أمرها بنهاية حكم الإمبراطور هيلي سلاسي في عام ١٩٧٤م هي الأسرة السليمانية التي قضت على أسرة زاقوي.

تأثر الكنيسة الحبشية بكنيسة الإسكندرية

هناك نوع من التعاطف الديني بين حكام مصر ومسلمي الحبشة، وشعوراً مماثلاً بين ملوك الحبشة وأقباط مصر، وبتحديد أدق وأقرب إلى الواقع : كان كل من حكام هذين البلدين يشعر بمسؤولية أدبية لحماية مصالح أبناء دينه في البلد الآخر، وتماشياً مع هذه المقولة فقد كان هناك هجرتان للأقباط المصريين إلى الحبشة : كانت الأولى عند دخول الإسلام، والثانية في أيام الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله. فعند دخول الإسلام إلى مصر في عام ٦٤٠م حدثت هجرة من أقباط مصر إلى الحبشة، كما حدثت هجرة أخرى في عهد الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله، والذي شاع عنه أنه عذب المسلمين واليهود واضطهدهم أيام حكمه. وما من شك في أن الحبشة استفادت من نزوح الأقباط المصريين إلى بلادها؛ فقد جلبوا معهم مهاراتهم المهنية والزراعية وأصول حرفهم وصناعاتهم، وبصورة أخص الفن المعماري والنقش على الحجر والنحت وغير ذلك من الأمور التي شيدت مدينة مصر منذ أقدم عهودها. ولا بد أن كان من بين المهاجرين عدد من أهل الفكر والعلماء ورجال الدين وهم أصحاب مدنية عريقة موروثة؛ فساهموا مساهمة إيجابية في إنعاش الزراعة، وحتماً كانت لهم اليد الطولى في دعم الحركة الأدبية والدينية في وطنهم

الجديد. وهاهو المقريري في كتابه {الإمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام { يقول :

[لَمَّا مَلَكَ الْحَطِي، وَهُوَ الْمَلِكُ دَاوُودُ بْنُ سَيْفٍ أُرْعِدَ سَنَةَ ٨١٢ هـ، أَقِيمَ بَعْدَهُ ابْنُهُ تَادَرَسَ، فَهَلَكَ سَرِيعاً، وَأَقِيمَ بَدْلَهُ أَخُوهُ إِسْحَاقُ بْنُ دَاوُودَ أُرْعِدَ، فَضَخَمَ أَمْرُهُ؛ ذَلِكَ أَنَّ بَعْضَ الْمَمَالِيكِ الْجَرَاسِيَّةِ مِمَّنْ كَانَ زُرْكَاشُ بَدْيَارٍ مَصْرَ قَدِيمٍ عَلَيْهِ وَأَقَامَ عِنْدَهُ وَعَمِلَ لَهُ زَرْدَخَانَاتٌ عَظِيمَةٌ تَشْتَمِلُ عَلَى آلَاتِ السِّلَاحِ مِنَ السِّيُوفِ وَالرِّمَاحِ وَالزَّرْدِيَّاتِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَكَانُوا فِي الْقَدَمِ إِنَّمَا سِلَاحُهُمُ الْحِرَابُ يَرْمُونَ بِهَا، وَقَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرَاءِ الدَّوْلَةِ بِمَصْرَ شَخْصٌ يُقَالُ لَهُ (الطَّنِيجَا مَعْرَق) تَرَفَّقَى حَتَّى وَلِيَ بَعْضَ بِلَادِ الصَّعِيدِ ثُمَّ فَرَّ إِلَيْهِ وَكَانَ يُعْرِفُ مِنْ أَبْوَابِ اللَّعِبِ بِآلَاتِ الْحَرْبِ وَمِنْ أَنْوَاعِ الْفُرُوسِيَّةِ أَشْيَاءَ، فَحَظِيَ عِنْدَ الْحَطِيِّ وَعَلِمَ عَسَاكِرَهُ رَمِي النَّشَابِ وَاللَّعِبِ بِالرَّمْحِ وَالضَّرْبِ بِالسَّيْفِ وَعَمِلَ لَهُمُ النَّفْطَ، فَعَرَفُوا سَاعَاتِ الْحُرُوبِ].

وقدّم عليه أيضاً من قبض مصر نصراني يعقوبي يُعرف بـ فخر الدولة، فرتب له المملكة وجبّ له الأموال. فصار الحطي ملكاً له سلطان وديوان بعدما كانت مملكته ومملكة آبائه همجاً لا ديوان لها ولا ترتيب ولا قانون، فانضبطت عنده الأمور، وتميز زيه عند رعيته بالملابس الفاخرة.

وتأثير علاقة الكنيسة الحبشية بالكنيسة المرقسية بالإسكندرية يظهر لنا في جوانب أخرى، فمعظم ما كُتب بلغة الجنز لأغراض الوعظ الديني أو الأحكام القضائية إنما تمت ترجمته من اللغة العربية، وأشهر هذه الكتب : { فنخانجست = قانون الملك } وقد كتبه مهاجر قبضي اسمه ابن عسال، ومعظمه مقتبس من الفقه الإسلامي ومن القوانين اليونانية. كما عزي تأليف { فوس منغسائي = دواء الروح } و{ فقاري ملكوت = التأمل في الملكوت } و{ هيمانوت أبو = عقيدة الآباء } فإنها اقتبست من كُتب ألفت باللغة العربية أولاً. وفي هذا يقول مبعوث إمام اليمن الحسن بن أحمد الحيمي في كتابه { سيرة الحبشة ٦٦٥ م } : [إن الإيوان كان رجلاً من القبط من أهل مصر ولسانه عربي، وتخرّج من مصر وكتب الإنجيل معه مكتوب بالعربي، وجميع ما يستصحبه من كُتب شريعتهم وأحكام دينهم كذلك مكتوب بالعربي أيضاً]. وهكذا تأثر أدب الكنيسة في إرتريا وأكسوم المجاورة في العصور الوسطى باللغة العربية بحكم العلاقة مع الكنيسة القبطية بالإسكندرية التي اتخذت العربية لغة لها.

المسيحية بالسودان

يُجمع المؤرخون بأن مملكة مروى المسيحية بالسودان قد بلغت شأناً كبيراً من الازدهار والرفق قبل أن تتعرض للغزو والتدمير من قبل عيزانا ملك أكسوم حوالي القرن الرابع الميلادي، والذي سجل في المنحوتات الحجرية أخبار معاركه التي خاضها ضدها وضد شعوب أخرى.

وكانت أسباب الصراع الرئيسية على ما يذكره المؤرخ البريطاني آرنولد تويني : السيطرة على طرق القوافل البرية التي كانت تتوجه جنوب عدوليس بإشراف قبائل البجة من مناطق النيل الأوسط حاملة منتجات إفريقيا من عاج وقرون الكركدن وغيرها.

ومملكة مروي قبل انهيارها وتدميرها على يد عيزانا، كانت قد بلغت أوج ازدهارها حسبما يذكر المؤرخون، حيث يقولون كان بها أربعمائة ألفاً من أرباب الصنائع، وأنه قد حكمها خمسة وأربعون ملكاً ومملكة، وأكثرهم من الملكات، وقد كانت الملكات تلقب بـ (كنداكه)، كما لقب ملوك مصر بالفراعنة، والفرس بالقيصرة. وواضح أنها استمرت لقرون عديدة وتطورت وازدهرت قبل أن يصيبها الخراب من الخارج.

ولا تزال آثارها وأطلالها باقية حتى اليوم مثلها مثل أكسوم في الحبشة. وإن ممالك النوبة المسيحية بالسودان ذات تاريخ حافل؛ فقد كان للنوبة في عهد النصرانية مملكتان قويتان : الأولى مملكة النوبة السفلى، حيث امتدت من الشلال الأول إلى الشلال الرابع، وكانت عاصمتها دنقلة العجوز. والثانية : مملكة النوبة العليا، وعُرفت أيضاً بمملكة مقره، حيث امتدت من الشلال الرابع إلى أعالي جزيرة سنار، وكانت عاصمتها سوبا الواقعة على النيل الأزرق على بُعد ١٥ ميلاً من الخرطوم. وقد قال القزويني : [بلاد النوبة أرض واسعة في جنوبي مصر وشرقي النيل وغربه، وأهلها أمة عظيمة نصارى يعاقبة، وله ملك اسمه (كابيل) يزعمون أنه من نسل ملوك حمير]. ويقال إن (سها) جد النوبة و(مقرى) جد المقررة قديماً من اليمن .. كما قيل إن النوبة والمقررة من حمير، ويقول أكثر أهل الأنساب على أنهم جميعاً من ولد حام بن نوح. وكان بين النوبة والمقررة حروب قبل النصرانية، وكانوا وثنيين يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها، ثم تنصروا جميعاً. النوبة والمقررة ومدينة دنقلا هي حاضرة مملكتهم.

من هنا تتضح علاقة الممالك المسيحية في السودان بجنوب الجزيرة العربية، أيضاً يتضح الترابط بين الكنائس في الحبشة والسودان وكنيسة الإسكندرية؛ حيث كانوا ينتمون لمذهب اليعقوبي (القبطي).

أقول الممالك المسيحية بالسودان

جاءت نهاية الممالك المسيحية من عاملين : خارجي وداخلي. فقد كان الخارجي أولاً الحرب التي شنها عيزانا ملك أكسوم ضد مروي وتدميرها لها. ثم جاء دخول الإسلام إلى مصر وانتشاره منها باتجاه الجنوب أي إلى أرض النوبة. أما العامل الداخلي فقد تمثل في قيام مملكة سنار بالتحالف بين الفونج والعدلاب وقضائها على ما تبقى من معازل المسيحية وتحديداً مملكة سوبا المسيحية عام ٩١٠هـ؛ فقد سقطت مصر في أيدي المسلمين سنة ٦٤٢م بقيادة عمرو بن العاص بعد أن جهزه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأربعة آلاف من جنود اليمن ثم أمده بأربعة آلاف آخرين، وبذا حررها من الروم الذين كانوا يستغلون المصريين أبشع استغلال، وبذا بدأ الانتشار التدريجي للإسلام جنوباً. ولم يخلو الأمر من الصعوبة بمكان، خاصة وأن الهجرات العربية باتجاه هذه المنطقة قد سبقت المسيحية والإسلام بقرون عديدة.

إن الاتفاق الذي وقع بين عبد الله بن أبي السرح والي مصر وبين النوبة ورد ذكره في المصادر العربية بإسم (البقط)، حيث أملى المسلمون شروطهم على الملك (ملك مملكة مقرة المسيحية وعاصمتها دنقلا العجوز)، فقد عاهدهم القائد الإسلامي على الأمان، لا يحاربهم المسلمون، وأن يدخل النوبة بلاد المسلمين مجتازين غير مقيمين فيها، وعلى النوبة حفظ من نزل بلادهم من المسلمين، وعليهم حفظ المسجد الذي بناه المسلمون بـ دنقلا وكنسه وإسراجه وتكرمته، وألا يمنعوا عنه مصلياً، وأن يدفعوا في كل سنة ثلاثمائة وستين رأساً من أوسط رقيقهم غير المعيب : يكون فيه ذكران وإناث ليس فيهم شيخ هرم ولا عجوز ولا طفل لم يبلغ الحلم. وحيثما شكى الملك من فقر البلاد وحاجتهم لمؤن من مصر تبرع المسلمون بإمدادهم سنوياً بكميات من الحبوب والملابس. واستمرت علاقة الدولة الإسلامية بمملكة مقرة المسيحية نحو ستة قرون على أساس هذه المعاهدة.

وتعتبر سنة (٧٢٣هـ / ١٣٢٣م) نهاية عهد مملكة مقرة المسيحية وبداية عهد دولة بني الكنز الإسلامية؛ ذلك أن بلاد النوبة وإن كانت قد خضعت خضوعاً حقيقياً للنفوذ الإسلامي منذ عهد السلطان الظاهر بيبرس، غير أن المسيحية لم يضرغف شأنها في تلك البلاد إلا بعد أن مهّد السلطان الملك الناصر محمد السبيل لتنصيب أمير قوي مسلم عليها، وبعد أن اعتلى عرشها ملوك مسلمون من بني الكنز. وقد ظلّ بنو الكنز ملوكاً على بلاد النوبة وأصحاب السلطة الفعلية على جزء كبير من أقاصي الصعيد حتى الفتح العثماني لمصر. وقام بنو الكنز (قبيلة ربيعة) بدور هام في نشر الإسلام بين قبائل البجة الوثنية وقبائل النوبة المسيحية عن طريق المصاهرة.

أمّا عن البجة؛ فقد أدى استقرار القبائل العربية التي تدين بالإسلام ومنها قبيلة ربيعة بين قبائلها إلى تسرب الإسلام إليها؛ كما أن هجرة ربيعة الكبرى إلى بلادهم سنة ٢٣٨هـ وما ترتب على ذلك من اندماج بني ربيعة وبني البجة ومصاهرتهم لهم أدت إلى أن أسلم على أيديهم الفرع المعروف بينهم بـ (الحدارب).

ويبدو أن الوضع الممتاز الذي وصل إليه الحدارب دون بقية البجة بسبب إسلامهم أدى ببقية القبائل الأخرى إلى أن تسارع إلى اعتناق الإسلام حتى تصبح لها نفس امتيازات الحدارب، وأدى كل ذلك إلى انتشار الإسلام بين قبائل البجة وخاصة حين استقر بينهم بنو (كاهل) أصهار ربيعة، الذين ورثوا عنهم حكم قبائل البجة في الصحراء الشرقية. وقد تحدّث الرحالة العربي ابن بطوطة عن بن كاهل واستقرارهم في ثغر عيذاب واختلاطهم بالبجة أثناء رحلته الأولى إليها سنة ٧٢٦هـ، ومن بقايا قبائل البجة الموجودة الآن بالصحراء الشرقية والتي تنتسب إلى بنو كاهل : البشاريون وأصهارهم العبايدة.

وكان لميناء عيذاب أمراء يقال لهم بنو يونس من ربيعة، ملوكها عند قدومهم من اليمامة، فجرى بينهم وبين بشر بن إسحق أحد ملوك البجة في (البلي) أو (البلو) حروب انهزموا فيها. وفرّوا من عيذاب إلى الحجاز ثم وقعت حروب بين بني بشر حيث قتل فيها إسحق، فأحضروا إليهم من (بلبيس) الشيخ أبا عبد الله محمد بن علي

المعروف بـ ابن زيد، وتولى الإمارة بعذاب على عموم قبائل البجة الشمالية بمن في ذلك من هاجر إليهم من سكان الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام، وبعد الإسلام انتقلت هجرات من ربيعة وجهينة في صدر الإسلام وقريش وغيرها من القرنين التاسع والعاشر للهجرة، وكانت هذه القبائل تسكن بوادي عذاب وقفارها.

وفي العهد الإثيوبي انتزع صلاح الدين إقطاع بني الكنز (قبيلة ربيعة) منهم؛ وبالتالي فرض سيطرة الدولة على ثغر عذاب الذي تحوّل إليه عن طريق الحج من (قوص = عذاب) جدة؛ مما يؤكد حرمان بني الكنز من أية رسوم أو فلوس في الثغر.

وفي العهد المملوكي يشير ابن بطوطة قائلاً : [إن ثلث مدينة عذاب للملك الناصر محمد، وثلاثها لملك البجة وهو يُعرف بـ (الحدربي)].

ومن عوامل أفول نجم الممالك المسيحية بالسودان : فقد قَصَرَ السلطان الظاهر بيبرس إحكام سيطرة الدولة المملوكية على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر؛ فقام بالاستيلاء على ميناء سواكن سنة (٦٦٤ هـ - ١٢٦٥ م) وأبقى بها حامية مملوكية، ونتج عن استيلاء المماليك على ميناء سواكن أن فقدت مملكة (فنرة) وكذلك مملكة (علوه) منفذهما على البحر الأحمر.

الباب السابع

علاقة المسلمين بالممالك المسيحية بالقرن الإفريقي

كانت العلاقات والتواصل والمصاهرات والمصالح قائمة بين الجزيرة العربية شمالها وجنوبها وبين منطقة القرن الإفريقي، وذلك قبل ظهور الأديان السماوية بوقت طويل. فهناك بلال الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي يرى البروفسور عبد الله الطيب بأنه ينتمي إلى السودان. وهناك أيضاً عنتر بن شداد ووالدته؛ حيث يرى المؤرخ السوداني الأستاذ / ضرار صالح ضرار انتماؤها إلى السودان أيضاً، بالإضافة لما كان بين العرب والحبشة قبل الإسلام من علاقات؛ والتي انعكست في الهجرتين الأولى والثانية لأصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم.

ويحدثنا التاريخ أنه عندما تعرّض المسلمون لأذى كفار قريش نصحبهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بالهجرة إلى الحبشة قائلاً لهم : [إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد وهي أرض صدق]. حيث حدثت الهجرة الأولى عام ٦١٥ م، وكان بينهم جعفر بن أبي طالب ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم، فأغاظ ذلك قريشاً وبعثت بوفد كان من بينه عمرو بن العاص كي يطلبوا من نجاشي الحبشة المسيحي إعادة هؤلاء الخارجين عن تقاليد قومهم الناكرين لآلهتهم وآلهة آبائهم الأولين. فعندما عرّض الوفد هذا الأمر على النجاشي قام بدوره باستدعاء هؤلاء النفر الذين نزحوا من الحجاز وسألهم عن هذا الدين الذي اتبعوه وخالفوا بني قومهم وعشيرتهم من أجله ؟ فردّ عليه جعفر بن أبي طالب : [أيها الملك .. لقد كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء إلى أهل الجوار ويأكل القوي منا الضعيف. وكنا في ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام. فصدقناه وآمنا به واتبعناه].

فلما سمع النجاشي هذا الدفاع : تأثر وتعاطف مع المهاجرين المسلمين، واعتذر لوفد قريش عن تسليمهم. ومن هنا نلاحظ بأن الإسلام في إثيوبيا له جذوره التي تمتد إلى وصول أوائل القرن السابع الميلادي، وذلك قبل أن ينتصر الإسلام في مكة وقبل أن ينتشر في المدينة المنورة. وهناك عامل هام أدى إلى انتشار الإسلام؛ فلم يقيم المسلمون الأوائل بنشر الإسلام كحركة جهاد مسلحة لفرض الإسلام على الشعوب الإفريقية عامة وعلى سكان منطقة القرن الإفريقي على وجه الخصوص؛ بل جاءوا بقيم وأخلاق جديدة وبرؤوس أموال تساعد على ازدهار التجارة، مضافاً إلى ذلك المصاهرة مع السكان المحليين : فتقربوا منهم وزادوا من علاقتهم بهم، من هنا كان التأثير والتأثر.

كما أن المسلمين وبُعلاقتهم بالمسيحيين فقد كانت لهم قدوة حسنة أبرزها : عندما حوَصر بيت المقدس بواسطة جيوش المسلمين، ولكنها طلبت التسليم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نفسه، فقدم الخليفة عمر من المدينة واستلمها وكتب أماناً لسكانها على أموالهم وأنفسهم وكنائسهم وأديرتهم. وكان ذلك في يناير ٦٣٧م. ويتضح بأن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان أول من منح الكنيسة حقوقها الدينية الكاملة في العهد الإسلامي الأول .. لذا كانت العلاقات العامة بين المسلمين وأحباش المسيحيين في فترة فجر الإسلام سليمة وطبيعية، ولعل استمرار هذه العلاقات الطيبة كان انعكاساً لما يربط بين الأحباش والعرب من علاقات متعددة ومتينة ومتواصلة، بالإضافة للمصالح التجارية المتبادلة منذ زمن الجاهلية الأولى، بجانب التسامح الإسلامي مع باقي الأديان السماوية.

وعلى الرغم من الحروب الطاحنة التي نشبت بين إمارات الطراز الإسلامي وملوك الحبشة المسيحية والتي استمرت لقرون؛ فإن سلاطين المسلمين أمثال صلاح الدين الأيوبي، وامتثالاً لمبادئ الإسلام؛ فقد منحوا المسيحيين حقوقاً وامتيازات مازالت ممثلة في كنيسة القيامة وكنيسة المهد في بيت لحم. رغم المجازر والجراح العميقة التي لحقت بمواطن إمارات الطراز الإسلامي من جرّاء الحروب الوحشية التي تعرضوا لها من حكام الحبشة؛ فعلى العكس من ذلك : كانت معاملة الحجاج المسيحيين وخاصة الأحباش معاملة طيبة؛ حيث كان الحجاج الأحباش يتمتعون بامتيازات؛ خاصة أثناء قيامهم بتأدية فريضة الحج بالأراضي المسيحية المقدسة منذ عهد صلاح الدين الأيوبي، كذلك شمل صلاح الدين دير الأحباش في بيت المقدس قرب كنيسة القيامة شمله ورهبانه بعطفه ورعايته؛ حيث تأتي هذه المعاملة الخاصة للأحباش والنوبيين في إطار المعاملة الطيبة التي حرص سلاطين الأيوبيين والمماليك منذ صلاح الدين الأيوبي حين عَقَدَ معاهدة الصلح مع ريتشارد قلب الأسد في (٢٢ شعبان ٥٨٨هـ - ٢ سبتمبر ١١٩٢م) بحق المسيحيين في الحج إلى كنيسة القيامة دون جباية رسوم منهم. وفي هذا يقول ترمنجهام في كتابه { الإسلام في إثيوبيا } نقلاً عن مصدر يوناني : [إن صلاح الدين الأيوبي بعد أن تم له تحرير بيت المقدس وإنقاذها من الصليبيين ١١٨٧م استجاب لرجاء من ملك الحبشة بالحفاظ على معبد اكتشاف الصليب في كنيسة المهد في بيت لحم للأحباش. وكان لهم ما أرادوا، ولم يمسه أحد بسوء. ومنذ ذلك العهد والأحباش ينعمون بحرية دينية كاملة في كافة عهود الدول الإسلامية التي سيطرت على بيت المقدس، والدير الحبشي المعروف هنا بـ (دير السلطان) يحكي قصة التسامح الإسلامي وحرية الأديان للجميع. وقد سُمّي الدير بهذا الاسم : نسبة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي تخليداً لتسامحه]. انتهى كلام ترمنجهام الذي يُعتبر خير شهادة على تسامح الإسلام والمسلمين مع باقي الأديان السماوية وأتباعها.

الباب الثامن

الأطماع الخارجية وإثارة التعصب والأحقاد بين شعوب المنطقة

قد لمسنا فيما سبق كيف كان التسامح والعلاقات الطيبة بين شعوب المنطقة على اختلاف معتقداتهم الدينية. ولكن كانت هناك الأطماع الخارجية التي تمثلت في الحروب الصليبية التي خاضتها أوربا بكاملها، والتي أخذت الطابع الديني في مظهرها؛ رغم أن حقيقتها كانت حرباً استعمارية بالمفهوم الحديث.

كان الأيوبيون منشغلين بالخطر الصليبي؛ فقد ظلّ الصليبيون بالشام طوال العصر الأيوبي يشكلون خطراً يهدد الأيوبيين ويستنزف كل جهودهم. وبالرغم من وجود ممالك مسيحية في أرض النوبة والحبشة؛ فإنهم لم يفكروا في غزوها؛ كما لم يكن من الحكمة أن يفتح الأيوبيون ضد أنفسهم جبهة صليبية أخرى في الجنوب تكون النوبة والحبشة طرفاً فيها. ولذا امتنعوا عن مهاجمة مملكة النوبة المسيحية؛ فالقوى الخارجية التي لها أطماعها غرست مخاوف وحساسيات وسط الحبشة المسيحية وقامت بتغذيتها على مر العصور. وكانت نتيجة اقتناعها - أي الحبشة - بأنها (القطر المسيحي الوحيد في إفريقيا الذي يحيط به بحر من الإسلام والوثنية).

وفي مرحلة لاحقة نشاهد الجنرال غردون حاكم السودان في نهاية القرن التاسع عشر يسجل في يومياته الآتي : [من الغريب أن هناك صفات عديدة تجمع بيني وبين يوحنا الرابع - يقصد بذلك الإمبراطور يوهانس إمبراطور إثيوبيا - فهو مثلي متدين وشديد التعصب، وله رسالة في الحياة يحرص على أدائها وهي : تنصير كافة المسلمين]. ومن غرائب الصدف أن غردون ويوهانس فقدوا رأسيهما أثناء مواجهتهما وحربهما للثورة المهدية ! فقد قتل الأول في مدخل قصره بالخرطوم، وقتل الثاني في المتمة وهو يقود جيشاً ضخماً لغزو السودان، وكان ذلك في العام ١٨٨٩م.

إن هذه الإدعاءات الباطلة أثمرت سياسة خاطئة في الحبشة ! والتي نشاهد بأنها تستند وتتطلع إلى ما وراء البحار؛ وخاصة باتجاه الدول الأوروبية، وتستصرخ الضمير المسيحي العلمي كلما تعرضت أو توهمت بوجود خطر من جيرانها، وتاريخها يشهد بذلك. ونلاحظ ذلك في مرحلة الحروب الصليبية وما بعدها : فأتت الحروب الصليبية ضد صلاح الدين الأيوبي ظهرت في أوربا فكرة إقامة حلف صليبي تشترك الحبشة فيه بالإطباق على مصر من الشمال والجنوب؛ كما ظهرت فكرة إمكانية تحويل مجرى نهر النيل عن مصر وحرمانها من مياهه. فقد نشأت فكرة التحالف (الأوربي - الحبشي) سنة ١٢٢٢هـ - ١٢٢٢م. وكان ذلك بعد فشل الحملة الصليبية الخامسة على دمياط؛ إذ أرسل (جاك دي فرتري) أسقف عكا رسالة إلى ملك الحبشة يدعو إلى الانضمام إلى هذا الحلف من أجل إنقاذ الأماكن المسيحية المقدسة من أيدي المسلمين، وتم الاتفاق معه على حملة

صليبية مزدوجة ضد مصر من الشمال والجنوب في وقت واحد حيث تشترك فيه الحبشة. على أن تحقيق هذا المشروع لم يُقدَّر له أن يتم في عهد الأيوبيين ولا في عهد المماليك بسبب صعوبة تنفيذه ! وذلك على الرغم من أن ملوك الحبشة وملوك الإفرنج حاولوا عدة مرات بحث إمكانية تحقيقه. ويُروى عن ملك الحبشة (داوود بن يوسف أرعد) أنه لم يكتفِ بالتهديد بتحويل مجرى نهر النيل الأزرق؛ بل شن هجوماً على حدود مصر وبلغ أسوان؛ منتهزاً بذلك استفحال الفوضى فيها بسبب خلافات كانت مستحكمة بين الأمراء في عهد السلطان (برقوق المملوكي).

وقصة أخرى طريفة حول التهديد بقطع مياه النيل عن مصر وردت في كتابات الرحالة جيمس بروس. فقد نشر رسالة صادرة عن ملك الحبشة سنة ١٧٠٤م إلى الباشا العثماني بمصر، وكلها تهديد ووعد ! حيث جاء فيها ما يلي : [في النيل وحده الوسيلة التي تكفي لعقابكم؛ لأن الله جعل منبع هذا النهر بالكيفية التي تُلحق الأذى بالبلغ بِكُمْ].

وأبلغ ما أثمرته سياسة غرس الفتن وتحريك الضغائن التي اتبعتها الدوائر ذات الأطماع الخارجية يتمثل في رسالة الملكة هيلانة والدة الإمبراطور لبنا دنقل إمبراطور الحبشة إلى عمانويل ملك البرتغال سنة ١٥٠٠م، والتي ننقل منها الفقرات التالية :

[بسم الله الرحمن الرحيم.
والسلام على عمانويل سيد البحر وقاهر المسلمين القساسة الكفرة ..
تحياتي إليكم ودعواتي لكم.

لقد وصل إلى مسامعنا أن سلطان مصر جهَّز جيشاً ضخماً ليضرب قواتكم ويثأر من الهزيمة التي ألحقتها به قواتكم في الهند. ونحن على استعداد لمقاومة الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر وإلى مكة أو باب المندب أو ثغر عيذاب. وإذا أردتم أن نسير إلى جدة أو الطور وذلك لنقضي قضاء تاماً على جرثومة الكفرة؛ ولعله أن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يبدد الأمم الإسلامية المتبربرة. ولما كانت مملكتنا في الداخل وبعيدة عن البحر؛ فإن الاتفاق معكم ضروري. إذ إنكم أهل بأس شديد في الحروب البحرية].

الباب التاسع

المصالح وليس الرابطة المسيحية

إن محاولات ربط الحبشة بالسياسات الأوروبية والغربية عموماً تحت ستار الرابطة المسيحية وعزلها عن محيطها الذي تنتمي إليه وخلق الفتن والحساسيات والتوترات بينها وبين جيرانها الآخرين لم يكن في حقيقة الأمر إلا ستاراً لإخفاء المطامع والمصالح للدول الأوروبية.

البرتغاليون والحبشة

بدأ البرتغاليون بعثاتهم التبشيرية كمقدمة لتواجدهم الاستعماري عند زحفهم باتجاه إفريقيا الشرقية؛ كما أنهم كانوا يهدفون إلى إحلال المذهب الكاثوليكي محل المذهب القبطي اليعقوبي بالحبشة. وأول بعثة لهم بالحبشة كانت في عهد الملك لبنا دنقل برئاسة الأب فرنسيسكو ألفاريز، بل إنهم وطدوا علاقتهم بحكام الحبشة عندما ساعدوهم بالجيش والسلاح والخبراء في حربهم ضد إمارات الطراز الإسلامي أولاً، ثم في حربهم ضد ثورة الإمام أحمد قرنج. ولكن المعروف عن الحبشة أنهم قوم يدينون بالنصرانية من قديم الزمان ويعتقون مذهب اليعقوبية، وهم متشددون في ديانتهم تشدداً زائداً ويعادون من خالفهم من سائر الملوك أشد عداوة. وسنرى كيف وقع الصدام بينهم وبين البرتغاليين رغم رسالة الملكة هيلينا لعمانويل ملك البرتغال والتي أشرنا إليها حيث تعطيه مطلق الثقة والتأييد بل والاستعداد لتقاتل بجيوشها إلى جانبه والمليئة بكل العواطف الجياشة نحوه. وقد تمكن الأب ألفونسو منديز الذي خلف الأب بايز سنة ١٦٢٦م في التأثير كلياً على الإمبراطور (سوزينوس) كي لا يقبل بالمذهب الكاثوليكي فحسب؛ بل بإصدار تشريع استهدف بجعله المذهب الرسمي للدولة؛ وبطبيعة الحال تحويل الكنيسة الحبشية إليها.

وهنا ثارت ثائرة الكنيسة القبطية ورجال الدين والنبلاء على السواء بوجه هذا الخطر الداهم ! حيث تبعثها اضطرابات سُفكت فيها دماء غزيرة ! فلم يجد الإمبراطور إزاء هذه الثورة العارمة عن التخلي عن العرش لإبنه (فاسيلداس). وعلى إثر ارتقاء الملك فاسيلداس العرش أخذ يعمل على تصفية قضية المبشرين الجزويت والتخلص منهم على أساس استئصال الداء من جذوره؛ فقد أصدر أمراً فورياً بطرد كافة الآباء الجزويت من البلاد ونسخ كافة التشريعات التي أصدرها والده الملك المعزول. ثم أعلن رسمياً عودة المذهب الأرثوذكسي اليعقوبي إلى الكنيسة وإلى البلاد عامة.

ولم يكتفي الملك فاسيلداس بإبعاد المبشرين الجزويت عن بلاده؛ بل ظلّ يلاحقهم ويطاردتهم خشية عودتهم لأعْيَبهم وِدَسَانِسهم. فمضى يراقبهم من كل مكان وخاصة البرتغاليين منهم. فقد تحالف مع المسلمين من باشاوات سواكن في السودان ومصوع في

إرتريا، واتفق معهم سنة ١٦٤٨م بأن يقتلوا أو على الأقل يبعدوا أي قس كاثوليكي يحاول دخول الحبشة عن طريق بلادهم. وقد سبق له وقام بإجراء مماثل سنة ١٦٤٢م مع إمام اليمن المؤيد بالله ومع الخليفة المتوكل بالله سنة ١٦٤٧م حينما بعث إليهما بسفرائه ناشداً التضامن معهما، مستنجداً بهما لسحق أعدائه الجزويت الكاثوليك وسد كل الطرق والسبل بوجودهم لكي يحول بينهم وبين العودة للحبشة.

الإمبراطور تيدروس والملكة فكتوريا

في عام ١٨٦٢م بعث الإمبراطور تيدروس رسالة إلى الملكة فكتوريا ملكة بريطانيا العظمى يشرح فيها سياسته التوسعية، حيث يقول أنه تمكن من طرد الغالا (الأورمو) وانتصر عليهم، كما أنه ينوي الآن مهاجمة الأتراك وطردهم لأنهم احتلوا أرض أجداده - ويقصد بذلك السودان الذي كان آنذاك تحت الحكم التركي. ومن الغريب أن الإمبراطور منليك الذي توفي عام ١٩١٣م أنه كان يحمل نفس المفهوم ! ففي أثناء مرضه بعث برسالة إلى ملوك أوربا حيث يوضح فيها حدود إمبراطوريته ويقول في نهايتها : [إذا أمد الله في عمري وأعطاني القوة، فسوف أمد حدود إثيوبيا حتى الخرطوم وبحيرة فكتوريا وكل مناطق الغالا].

عندما بعث تيدروس رسالته المشار إليها إلى الملكة فكتوريا فإنه انتظر عاماً كاملاً دون يتلقى مجرد الرد عليها أو الإشعار بوصولها ! حيث حُفظت في أرشيف وزارة الخارجية البريطانية. فاعتبر ذلك إهانة كبيرة وُجّهت إليه واستشاط غضباً ! فاعتقل القنصل البريطاني (كامرون) ووضعه في السجن بعد أن قيّده بسلاسل من الذهب تقديراً لمكانته السامية؛ كما اعتقل أيضاً بعض المبشرين وبعض الأوربيين، فأرسلت بريطانيا وفداً له يرأسه (هرمز) العراقي الأصل البريطاني الجنسية وذلك في عام ١٨٦٦م وهو يحمل هدايا مع رسالة من الملكة فكتوريا تطلب فيها إطلاق سراح قنصلها كامرون ورفاقه. فقام الإمبراطور تيدروس باعتقال الموفد البريطاني هرمز والوفد المرافق له ووضعهم جميعاً في السجن بعد أن قيّدهم بالسلاسل الذهبية مثلما فعل مع القنصل كامرون. ولم يكن بالإمكان أن تسكت بريطانيا العظمى التي لا تغيب الشمس عنها آنذاك على هذه الإهانة التي لحقت بها ! فتحرّكت جحافل من جيوشها الجرارة في الهند وفي عدن بقيادة الجنرال (نابير) للقضاء على الإمبراطور المتمرد : فتحرّكت الجيوش البريطانية والتي كانت مسلحة بأحدث الأسلحة والمدافع ومحملة بالبالغ والأفيال، ودخلت في معركة غير متكافئة مع الإمبراطور تيدروس حيث هُزم. وعندما انتحر بإطلاق رصاصة من مسدسه على رأسه في أول إبريل ١٨٦٨م في آخر معقل من معاقله وهي قلعة (مجدلا) التاريخية. والغريب أن الإمبراطور تيدروس وعند محاصرة الجيوش البريطانية لقلعته في مجدلا فإنه قام بإطلاق سراح القنصل البريطاني كامرون والموفد البريطاني هرمز وباقي الأسرى الأوربيين وبعث بهم بسلام لقوات الجنرال نابير دون أن يمسه بأي أذى.

الحبشة وإيطاليا

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تمكنت إيطاليا من احتلال إرتريا بكامل حدودها الجغرافية، وأعلنتها كمستعمرة تابعة لها في عام ١٨٩٠م وعاصمتها أسمرة. فوقّع معه الإمبراطور منليك اتفاقية (أوتشالي) في روما والتي يعترف فيها بأن إرتريا مستعمرة إيطالية وليست جزءاً من أراضيها. وبالرغم من ذلك فإن إيطاليا - والتي كانت في ذلك الحين قد استعمرت أيضاً الصومال الإيطالي تنوي إقامة إمبراطورية تابعة لها في شرق إفريقيا - أعدت العدة وقامت باجتياح أراضي الحبشة؛ ولكن الإمبراطور منليك والذي كان يمتلك تفوقاً من الرجال بالإضافة لامتلاكه ما يكفي من الأسلحة النارية فقد تصدى للجيش الإيطالي الغازي حيث أوقع به هزيمة ساحقة وذلك في معركة عدوة الشهيرة التي وقعت في (١٨٩٦/٣/١م). فعادت فلول القوات الإيطالية المهزومة إلى مواقعها في إرتريا، وإن جيش منليك المنتصر لم يحاول أن يتجاوز حدود الحبشة ويلحق الجيش الإيطالي المنهزم داخل إرتريا.

ولم تنسى إيطاليا هذا العار الذي لحق بها. فعندما تمكن موسوليني من الوصول إلى السلطة، فإن إيطاليا الفاشية حشدت قواتها وقامت في هذه المرة باجتياح الحبشة وذلك عام ١٩٣٦م؛ وتمكنت من الدخول إلى أديس أبابا واستعمار إثيوبيا بكاملها حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، حيث هرب الإمبراطور هيلي سلاسي إلى الخارج رغم استمرار المقاومة الباسلة التي أبداها الشعب الإثيوبي، ولكن الشراسة التي اتبعها الإيطاليون واستعمالهم للأسلحة ومنها الغازات السامة ضد أبناء الشعب الإثيوبي الباسل كانت قد قوبلت بالاستهجان والإدانة ! ولم يعد الإمبراطور هيلي سلاسي إلى بلاده ويسترد عرشه إلا بعد تحرير جيوش الحلفاء للأراضي الإثيوبية وإلحاق الهزيمة بالقوات الإيطالية في كل من إرتريا وإثيوبيا على السواء.

البريطانيون ووباني تجراي

إن التنافس والصراع بين الأمهرا والتجراي معروف في إثيوبيا. فبعد نهاية الحرب العالمية وتحرير الحبشة من الفاشية الإيطالية وعودة الإمبراطور هيلي سلاسي إلى عرشه فقد ثار شعب تجراي بقيادة منظمته (وياني) متمرداً على الأمهرا وسلطتهم، وتمكن من السيطرة على الإقليم بكامله وعلى العاصمة. وعندئذ قام سلاح الطيران البريطاني من قاعدته في عدن بضرب شعب تجراي وتدمير عاصمته (مقلي) وألحق الهزيمة بالثوار، وذلك بالاتفاق مع الإمبراطور هيلي سلاسي. وإذا علمنا بأن أكسوم الواقعة في قلب تجراي تُعتبر عاصمة الكنائس الإثيوبية؛ فإنها لم تنج من تدمير الطيران البريطاني لها ! وسُحق أهلها الذين أرادوا الخروج عن سلطة هيلي سلاسي.

أوردنا تلك النماذج والأمثلة لدفع الأكاذيب التي حاولت تعميقها الدوائر ذات الأطماع والمصالح الخارجية وعزل إثيوبيا عن محيطها وجيرانها بحجة أنها جزيرة مسيحية في بحر من الإسلام والوثنية.

الباب العاشر

ممالك الطراز الإسلامي

نما الاهتمام ومعرفة العالم الإسلامي والعربي بإثيوبيا التي جذبت العديد من العلماء البارزين مثل المقرئزي العمري ابن أبوصالح وأبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، ولكل من الرحالة ابن حوقل والرحالة عبد الله محمد اللوائي المعروف بـ ابن بطوطة، والمسعودي وآخرون. والذين بدونهم لم يكن بالإمكان معرفة الكثير من تاريخ إثيوبيا؛ خاصة والقرن الإفريقي بشكل عام. وقد عُرفت الشواطئ الغربية للبحر الأحمر لدى المؤرخين العرب بأسماء مختلفة منها : بلاد الطراز الإسلامي أي تبرز الساحل الإفريقي بالدين الإسلامي كما يقول المسعودي في كتابه { معجم البلدان }، عُرفت أيضاً بـ (بلاد الزيلع) و(بلاد الجبرته)، وإليها يُنسب المؤرخ المصري المشهور عبد الرحمن الجبرتي.

يتفق المؤرخون أن باب المندب كان أقدم الأبواب التي ولجتها العناصر الآسيوية في هجرتها إلى إفريقيا، وإن العرب لم يطلقوا عليه اسم الباب إلا لأنه كان مدخلهم للقارة السوداء. ولاتزال الآثار الثقافية على جانبيه تقوم شاهدة على الاتصال القديم بين آسيا وإفريقيا؛ مما استمر باب المندب مدخلاً للهجرات البشرية عبر القرون المتعاقبة وظلت الصلات بين جانبي البحر الأحمر متصلة، كما كان العرب أول من عرف كل الموانئ الواقعة في الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، وتحديداً موانئ [عيذاب - سواكن - عقيق - مصوع - زيلع - بربرة - مقديشو - زنجبار - دار السلام]. وكل هذه المناطق كانت جزءاً هاماً لكل الحضارة العربية الإسلامية، ومناطق الساحل هذه كانت هي المعروفة في إفريقيا.

إن الإسلام في إثيوبيا له جذوره التي تمتد إلى وصول المهاجرين الأوائل إلى مملكة النجاشي المسيحية في أوائل القرن السابع الميلادي، ويظهر الإسلام وينتشر في شبه الجزيرة والعلاقات التجارية قائمة بينهما وبين الجانب الشرقي في إفريقيا؛ فلا يؤثر ظهوره في العلاقات إلا في الذين كانوا يترددون على إفريقيا من العرب وقد أصبحوا مسلمين بعد أن كانوا من عبدة الأوثان. وهذا بالتأكيد له تأثير على من يتصلون ويتعاملون معه في الشاطئ الآخر للبحر الأحمر.

وتحدث الانقسامات المذهبية في الدولة الإسلامية الناشئة وتهاجر بعض العناصر العربية فراراً من وطأة الحكم لتستقر على الساحل الإفريقي كما حدث من فرار الزيديين في عهد هشام بن عبد الملك بعد فشل ثورتهم؛ كما أن امتداد السلطة الأموية أدى إلى نشوء تجمع مسلم منظم في الساحل الإرتري على البحر الأحمر مشتملاً على (دخنو)

حرقيقو و(باضع) مصوع ومن فيهما دهلك، والتي أدت بدورها كنقطة إنطلاق للأسلمة السريعة للقرن الإفريقي ونشوء عدد من الولايات الإسلامية.

الدولة الإسلامية الأولى في الحبشة

إن العرب والمسلمون وبفضل موقعهم الجغرافي بين الشرق والغرب وبحكم مهارتهم البحرية فقد سيطروا على موانئ البحر الأحمر والمحيط الهندي، وبذا تمكنوا من إنشاء أول دولة إسلامية بالحبشة وأطلقوا عليها تسمية (سلطنة شوا) وذلك عام ٨٩٦م في الجزء الشرقي للسهل الإثيوبي. وقد قامت هذه الدولة في وسط إثيوبيا وفي قلبها وفي بقعة من أخصب بقاعها وهي (شوا)، وأنشأ هذه الدولة جماعة من بني مخزوم، وقد تكوّن مجتمع هذه الدولة كمجتمع زراعي مستقر، وكان لسلطنة شوا إطلالة ضئيلة على العالم الخارجي بحكم بُعدها عن شواطئ البحر الأحمر وموقعها في قلب البلاد. وهذا يوضح السبب وراء جهل العالم الإسلامي بهذه السلطنة القديمة والتي حكمت قرابة أربعة قرون وذلك من سنة ٢٧٣ - ٦٨٤ هجري.

أرض الزيلع

كان الجغرافيون العرب يقسمون الحبشة إلى قسمين هما : بلاد النصرانية، وإقليم الطراز الإسلامي. القسم الأول هو الأوفر عدداً والأوسع مجالاً، ويملكه الأمهرة. ويشمل القسم الثاني الأراضي المقابلة لبر اليمن على أعالي البحر الأحمر وما يتصل به من بحر الهند. وكان يُعرف بـ الطراز الإسلامي لأنه جانب البحر كالطراز به؛ أي يمتد ساحلاً للبحر دون أن يتسع كثيراً في الداخل، وهي البلاد التي يقال لها بمصر والشام بلاد الزيلع، فيما يروي صاحب { مسالك الأبصار } وكان المقرئ فيما نعلم هو أول كاتب عربي يفصل الحديث عن الحبشة في كتاب صغير هو { الإلمام بمن في أرض الحبشة من ملك الإسلام }، وقد كتبه وهو بمكة فيما يروي عام ٨٣٩هـ / ١٤٢٤ - ١٤٢٥م، ويذكر أن إقليم الطراز الإسلامي يضم سبع إمارات حيث يحكم كلاً منها ملك مسلم.

مملكة إيفات

تطرقنا لذكر الدولة الإسلامية التي قامت في الحبشة بمنطقة شوا حيث تقع أديس أبابا الحالية، والتي دامت أربعة قرون تقريباً. وقد نشأت إلى الشرق منها إمارة إسلامية فتيّة هي إيفات التي استطاعت بعد عدد من الحروب أن تقضي على مملكة شوا الإسلامية وتضمها إلى أملاكها سنة ٦٨٧هـ، وبضمها أصبحت إيفات لها السيادة بين الإمارات الإسلامية كلها في الطراز الإسلامي. وإيفات أو أرض الزيلع كما سماها الجغرافيون العرب أفادوا بأن طول أرضها براً وبحراً نحو شهرين، وعرضها أكثر من شهرين؛ إلا أن غالبها قفار غير مسكونة. ومقدار العمارة مسافة ثلاثة وأربعين يوماً طوياً في عرض أربعين يوماً. وتنقسم إلى سبع ممالك، ولكل مملكة من هذه الممالك السبع ملك، وفي كل من هذه الممالك المساجد والجوامع التي تقام بها الجمعة والجماعة. وعند أهلها محافظة على الدين ويقال لهم الجبرته وكلام أهلها باللغة الحبشية ويتكلمون أيضاً باللغة العربية.

تمتد مملكة إيفات من السهول إلى الهضبة وتجاور القسم الشرقي من إقليم شوا الذي يُعتبر قلب الحبشة ومقل الأمهرا، ويقال إن هذه الدولة أنشأها قوم من قريش : منهم من يقول إنهم من بني هاشم ثم من ولد عقيل بن أبي طالب. قوم أولهم من الحجاز ونزلوا بأرض الزيلع واستوطنوا وأقاموا دولتهم في إيفات، كان أول حاكم لهذه الدولة (عمرو) الذي يقال له (يشمع)، وإيفات التي كانت تُعتبر عاصمة لممالك الطراز الإسلامي كانت قائمة في إقليم شوا، وكان موقعها شمال أديس أبابا بحوالي ٣٠ كلم. ومن المسلم به هو أن مملكة إيفات كانت أقوى وأعظم ممالك الطراز الإسلامي؛ حيث كانت الحبشة تحسب حسابها دائماً كمصدر قوة لا تسهل محاربته. ومن أجل ذلك فقد اتسعت سطوة (إيفات) حيث بلغت ميناء زيلع على الساحل بما في ذلك طرق القوافل التي كانت تربط داخل البلاد بالبحر. ومما يلاحظ أنه ما إن حلَّ القرن الثالث عشر الميلادي حتى كان كل رعايا إيفات قد اعتنقوا الإسلام، ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هذه المملكة قد شملت على إمارتين هما : إمارة عدل وكان مقرها زيلع، وإمارة مورا وتقع في إقليم شوا نفسه.

يقول القلقشندي عن إيفات بأنها [تقع حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثمانين درجات، وهي على نشز من الأرض، وعمارتها متفرقة ودار الملك فيها على تل والقلعة على تل، ولها وادٍ فيه نهر صغير، وتمطر في الليل غالباً مطراً كثيراً]. ولم يبعد القلقشندي كثيراً عن الصواب في تحديد الموقع لإيفات؛ فقد شملت إيفات سهل زيلع وأراضي هرر، وزيلع التي لاتزال قائمة حتى اليوم وهي تقع على خط ١٩-٤٣ درجة شرقاً وخط ١٢١ شمالاً، ولا يزال نهر فولا يجري في سهل زيلع ومنابعه عند منطقة الحدود بين الحبشة والصومال، وقد اندثر الآن اسم إيفات وبقيت زيلع معروفة حتى اليوم، وعُرف باسم مملكة إيفات، حيث كانت تشمل ما كان يسمى بـ الصومال الفرنسي وهي جمهورية جيبوتي الحالية، وجزءاً مما كان يدعي طول مملكتها فيما يروي ابن فضل العمري (خمسة عشر يوماً) وعرضها عشرون يوماً.

كان سكان إيفات خليطاً من العرب والأحباش والصوماليين والدخائل وبعض العناصر الآسيوية. كانت زيلع التي ذكر اسمها لأول مرة أحد الجغرافيين العرب في القرن التاسع والتي كانت تُعتبر في الأصل مركزاً لإمارة (عدل) هي المحور السياسي للمستوطنين المسلمين في ساحل خليج عدن والمركز الرئيسي للتجارة بين ساحل الخليج تتجمع فيها منتجات الحبشة وغللات الصومال ومحاصيل اليمن. وقد تزعمت مملكة إيفات الحركة الإسلامية في هذا الجانب الشرقي من إفريقيا، وعملت على توحيد المسلمين في جبهة وقفت طويلاً أمام أطماع الحبشة المسيحية التي دخلت معها في حروب طويلة. وفي ذلك العهد ازدهرت موانئ زيلع وبربرة، ولا تزال كلها قائمة حتى اليوم. كما قامت مدن إسلامية أخرى عديدة في الداخل. وكانت إيفات أوسع ممالك الطراز الإسلامي السبع أرضاً وأكثرها خيراً، وقد قامت مراكز علوم ومعرفة عديدة بها وعددٌ معتبر من علماء السلطنات حصلوا على سمعة عالية منهم : الشيخ آدم أبوبكر الجبرتي، والشيخ علي بن يوسف، وهما فقيهان شهيران في المذهب الحنفي والشافعي على التوالي.

سلطنة هدية

وقد اشتملت على مساحة واسعة من الأرض، وكان أكثر رعاياها من الوثنيين؛ إلا أنهم سرعان ما تحولوا إلى الإسلام، كانت هدية تقع في أعالي نهر (أموا) الذي يصب في بحيرة (رودلف) أي في الطرف الجنوبي الغربي من بلاد الحبشة، وهي المنطقة التي تُعرف اليوم بإسم بوران وانقدي، وكانت تقع جنوب مملكة إيفات.

سلطنة فتجار

وتحتل الطرف النهائي للمنطقة الجنوبية الشرقية لإقليم (شوا).

سلطنة دوارو

وتقع في إقليم سيدامو، أي إلى الجنوب من سلطنة فتجار، وكانت تمتد بين هواش وأعالي نهر (وابي شبيللي) المنطقة التي تُعرف بإسم (آتو) وتقع شمالي بالي، وهي تمتاز بالأراضي الزراعية والرعية. ويتمذهب أهلها بمذهب أبي حنيفة، واشتهرت برجالها الأشداء في الحروب، كما اشتهرت بقدرتها على تجهيز قوة مقاتلة تعادل تقريباً ما تستطيع إيفات تجهيزه.

سلطنة شرفة

وتقع بين دوارو وهدية، ويتمذهب سكانها بمذهب أبي حنيفة، وكانت شرفة إمارة صغيرة قليلة الحيز، وبما كانت هي ستساركا الحالية الواقعة في إقليم غوجام.

سلطنة بالي

وهي أكثر بلاد الزيلع خصباً، وتقع في أقصى الجنوب، وقامت في المناطق القصية التي لم يدخلها دين أو نظام قبل دخول الإسلام إليها، ومذهب سكانها الحنفية. وكانت أكثر الإمارات خصباً وأطيبها هواءً، ويحددها شمالاً نهر (وابي شبيللي).

سلطنة هرر

وتُعتبر ينبوع الإشراق الإسلامي ومصدر قوته لعدة قرون، ويرى بعض المؤرخين أن العرب هم الذين بنوها في القرن السابع الميلادي.

سلطنة أرابين

تقع في الشمال الشرقي من بحيرة (هاتا) التي تُعرف اليوم ببحيرة (تانا)، ويظهر أنها كانت إمارة صغيرة محدودة المساحة وقليلة الجند، وتقع بين دوارو وهدية، ويتمذهب سكانها بمذهب أبي حنيفة.

الجبرته

إن ممالك الطراز الإسلامي عامة وإيفات على وجه الخصوص أطلقت عليها أسماء عدة من ضمنها (بلاد الجبرته)، وإليها يُنسب المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي؛ فالعلامة الجبرتي قَدِمَ عن طريق البحر إلى جدة وانتقل إلى مكة فجاور بها وحج مراراً، وذهب

أيضاً إلى المدينة المنورة فجاور بها سنتين ولقي من لقي بالحرمين من الشيوخ، وتلقى العلم عنهم، ثم رجع إلى جدة وحضر إلى مصر عن طريق البحر الأحمر، فدخل إلى الجامع الأزهر وجاور بالرواق الذي يسمى بإسمه حتى اليوم بالأزهر الشريف.

والجبرته ورد ذكرهم في كتاب { صبح الأعشى في صناعة الإنشاء } لأبو العباس أحمد بن علي القلقشندي، وفي كتاب { دائرة المعارف الإسلامية } لمؤلفه أولندروف، وفي كتاب { الإمام بمن في أرض الحبشة من ملوك الإسلام } لعلامة تقي الدين المقرئ حيث يقول أن جبره هي من أرض الزيلع وإيفات، والكلمة الصحيحة هي (جبره)، والمنتسب إليهم يطلق عليه لفظ (جبرتي)، وأصبح لفظ الجبرتي يطلق على جميع المسلمين في الحبشة؛ بل ويتعدى هذا النطاق فأصبح يطلق على الأحباش المسيحيون إسم جبرت على المسلمين في شبه الجزيرة العربية، وتصبح كلمة جبرت مرادفة لكلمة مسلم بصفة عامة وبخاصة لوصف المسلمين في المناطق المسيحية التي يعيش فيها المسلمون في إثيوبيا. ويعيش هؤلاء الجبرت أو الجبرتيين في جماعات متفرقة في الهضبة المسيحية.

ويتميزن عرقياً ولغوياً عن جيرانهم المسيحيين ويتكلمون الأمهرية والتجرينية، وعلمهم باللغة العربية يكاد يقتصر على الحد الأدنى الذي لابد منه لفهم اللغة العربية. ومعروفون بشدة التدين والمحافظة والغيرة المطلقة على إسلامهم، ومجموعات الجبرته تنتسب إلى قبيلة (جبرت) القريشية. كما يدعي بعض أفراد الجبرته انتسابهم إلى عثمان بن عفان.

وهناك جزيرة الشيخ عبد الله الجبرتي الواقعة شمال جزيرة سواكن، أيضاً هناك واقعة (قدي) في ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤م أيام الثورة المهدية في تلك الجهة رجل من الجبرته يدعى : (النور فقرا) قد هاجر إلى المهدي في كردفان، فبايعه وعاد منه أميراً؛ فجمع نفراً من الضبائية ونزل بهم على قدي من سلاطات المتكارنة، ففزع أهل قدي إلى صالح بيك الذي كان إلى جانب الأتراك والذي جهز ألف فارس ومائتي رجل من أهله واستنصر الإمبراطور يوهانس ملك الحبشة، فأتاه الرأس دهنشوم فنته بنحو ٨٠٠ مقاتل وهو أحد الرؤوس التابعين للإمبراطور يوهانس، وزحف الجيشان في ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤م على جيش المهدية الذي يقوده النور فقرا الجبرتي في قدي، فقتلا من جيشه سبعمائة رجل رغم صموده ومقاومته لهم.

الجات

الرحالة الذين زاروا دول الطراز الإسلامي أو المؤرخين الذين عنها ذكروا بأن لهم منابت لا تعرف بمصر والشام؛ منها شجرة يقال لها (جات) لا ثمر لها حيث يؤكل ورقها، وهي تشبه أوراق شجرة التاريخ، وهي تزيد في الذكاء وتذكر المنسيات وتفرح وتقلل شهوة الأكل والجماع وتقلل النوم. ولأهل تلك البلاد في أكل هذه الشجرة رغبة كبيرة لاسيما أهل العلم والجات أو (القات).

لا يزال يتم تعاطيه حتى اليوم في أرض اليمن شماله وجنوبه والصومال وجيبوتي وفي الحبشة عموماً، وتعتبر سمة مشتركة بين شعوب هذه المنطقة، ويحتل مناطق زراعية خصبة وواسعة في أرض اليمن الشمالي وأرض الحبشة؛ والتي تقوم بتصديره بأثمان غالية للمناطق التي ليس لها أراضي صالحة لزراعته مثل جيبوتي.

التأثير الثقافي والعلمي

قد تطرقنا إلى بلاد الطراز الإسلامي وإمارتها، مضافاً إليها مقديشو في الصومال ودهلك ومصوع في إرتريا وكذلك سواكن؛ وقد تأثرت جميعها؛ بل واستفادت من مراكز الثقافة والمعرفة من هذه المناطق إلى مراكز المعرفة الكبرى آنذاك مثل [المدينة المنورة - الأزهر الشريف - الجامع الأموي بدمشق - زبيد بأرض اليمن]، وبعد أن تسلحوا بالعلم عادوا إلى أراضيهم؛ وبالتالي ساعدوا في التقدم السريع للعلوم الإسلامية واللغة في كل من إثيوبيا والصومال وإرتريا والسودان، ولا تزال آثارهم ومناقبهم باقية حتى اليوم.

الباب الحادي عشر

حروب الحبشة المسيحية مع ممالك الطراز الإسلامي

يقول الدكتور عبد المجيد عابدين في كتابه { بين العرب والحبشة } :
[إن سوء العلاقة مع إمارات الساحل تأثرت لما كان بين مملكة أكسوم واليمن من حروب قديمة؛ فكانت هذه الإمارات هي التي أنشأت في باضع (مصوع) ودهلك وزيلع وسواكن تمثل الدولة العربية القديمة (دولة حمير) فيما كان بينها وبين أكسوم من حملات، فوجهت مملكة الأمهرا الحبشية حملاتها ضدها مثلما كانت مملكة أكسوم توجه حملاتها قديماً على حمير].

تلك نظرة فيها الكثير من الصواب؛ ولكن هناك عامل آخر في تلك المرحلة أدى إلى نشوب الحرب بين الحبشة وممالك الطراز الإسلامي؛ فقد كانت الحرب بين الحبشة المسيحية ودولة إيفات وإماراتها السبع منذ القرن الثاني عشر نتيجة تأثير الحروب الصليبية على منطقة الشام. وقد تطرقنا من قبل إلى محاولات القوى الأوروبية أثناء حروبها الصليبية ضد صلاح الدين الأيوبي لإقحام الحبشة لتحريك جيوشها في الجنوب لمحاصرة مصر شمالاً وجنوباً؛ حيث يؤكد ذلك وجود الأصابع الخارجية لتحريك تلك الحروب التي نشأت بين شعوب هذه المنطقة تحت ستار الصراع الديني. فالعداء الذي أظهره (يكونو أملاك) نحو المسلمين أدى إلى نتائج وترتبت عليه حروب دينية امتدت طيلة القرون الثلاثة التي تلت فترة اعتلائه للحكم على رأس الأسرة السليمانية ضد دول الطراز الإسلامي.

وكما أسلفنا القول، فإن أول حاكم لدولة إيفات كان يسمى عمرو (لشمع) وحكم من بعده أولاده وأحفاده حتى كان آخرهم (صبر الدين محمد بن ولخوي بن منصور بن لشمع)، فمَلَكَ إيفات في حدود سنة ٧٠٠هـ وطالت مدته. وكانت الحروب سجالاً ومستمرة بين الأمراء المسلمين وملوك الأمهرا لسنين طويلة؛ بحيث عندما انتصر الأمهرا خربوا المساجد وبنو الكنائس مكانها ونزلوا قتلاً وتشريداً بالمسلمين ! وكذلك بالسجن والاسترقاق ما لا يمكن التعبير عنه مدة عشرين عاماً ! وكان آخر الأمراء الذي أنزل الهزائم المتلاحقة بملوك الأمهرا هو : سعد الدين أبو البركات مدين علي بن صبر الدين محمد ولخوي بن منصور بن عمر لشمع.

لكنه انكسر أخيراً، حتى لجأ إلى جزيرة زيلع في وسط البحر؛ فحاصروه بها ومنعوه الماء، وبعد أن اهدتوا إلى طريق الدخول للجزيرة قاتلهم؛ فأصيب في جبهته بعد فقدته الماء ثلاث أيام؛ فخرَّ إلى الأرض فطعنوه وهو يتشهد ويضحك إلى أن فارق الحياة. وذلك في سنة ٨٠٥هـ، وقد مَلَكَ نحواً من ثلاثين عاماً، وكان رجلاً صالحاً.

وكان أولاد سعد الدين قد فروا إلى بر العرب وهم عشرة أكبرهم : صبر الدين، فأكرمهم الملك الناصر ابن الأشرف إسماعيل ملك اليمن وأنزلهم ثم جهزهم، فعادوا بمدد ودخلوا في معارك لا حصر لها ضد الأمهرا هزموهم فيها حتى استعادوا ملكهم، ونشروا الإسلام في بقاع واسعة من الحبشة. وظلوا يتوارثون الحكم، ويستمر كل منهم في الحروب والجهاد مكملًا رسالة سلفه.

ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم الملقب بـ (قرانج = الأشول)

إن الحروب التي قامت بين الإمارات الإسلامية وملوك الحبشة بدأت منذ عهد الإمبراطور (يكونو أملاك ١٢٧٠ - ١٢٨٥ م)، وإن المواجهة الإسلامية المسيحية في الحبشة استمرت تقريباً قرابة ثلاثة قرون بدون نصر حاسم لكلا الطرفين حتى مجيء أحمد بن إبراهيم الذي باشر جهاداً كبيراً ونجاحاً لم يسبق له مثيل في الحبشة والقرن الإفريقي خلال فترة جهاده التي دامت خمسة عشر عاماً. وفي هذه الحرب استعان حكام إثيوبيا بالقوى الخارجية من وراء البحار للقضاء على الممالك الإسلامية. فقد استعان الإمبراطور لبنا دنقل بالبرتغاليين، فقام البرتغاليون بارتكاب الكثير من الجرائم : فقام القائد البرتغالي (لوبي سواريز) باحتلال ميناء زيلع الذي كان عاصمة سلطنة (عدل) حيث أحرق البلدة ودمرها في سنة ١٥١٧م، وجاء من بعده القائد البرتغالي (سالدينا) فهاجم ميناء بربرة وعبث بالبلدة وأباحها لبحارته. وسبق أنه في عام ١٥٠٧م أن احتل البرتغاليون جزيرة (سومطرة) عند مدخل البحر الأحمر وتمادوا في أذاهم للسكان.

ومن هنا يتضح بأن ثورة أحمد قرانج لم تكن دون أسباب أو مبررات قوية؛ فقد سبقتها أولاً الجرائم التي ارتكبتها البرتغاليون بحق السلطنات الإسلامية وتواطؤ ملوك الحبشة المسيحية معهم ودعوتهم لمساعدتهم في القضاء على الإمارات الإسلامية، كما كانت ثورته ردة فعل طبيعي لما ارتكبه ملوك الحبشة المسيحية من فظائع بعد أن قضوا على ممالك الطراز الإسلامي بحق سكانها من قتل واسترقاق وتشريد ونهب !

كان الإمام أحمد بن إبراهيم - الملقب بـ (قرانج = الأشول) - صهراً للأمير محفوظ أمير زيلع، وقد بسط نفوذه على إمارة هرر، بعدها سارع بإعلان رفضه لدفع الجزية لملك الحبشة لبنا دنقل؛ وعندئذ أصبح قيام الحرب بينهما أمر لا مفر منه. وعندما تحركت الجيوش الحبشية واجتاحت سلطنة (عدل) تصدى لها الإمام أحمد بن إبراهيم وهزمهم شر هزيمة.

وإن قبائل عفر والساهو والصوماليين قاتلت مع جيوش مملكة (عدل - إيفات) ضد ملوك الحبشة، وانطلقت هذه القوات من معقلها الرئيسي في مدينة هرر بقيادة أمير البلاد الإمام أحمد بن إبراهيم (١٥٠٦ - ١٥٤٢ م) أمير إيفات وعدل، حيث هزم الإمبراطور لبنا دنقل سنة ١٥٢٩م، والذي أخذ ينتقل من ملجأ إلى آخر، وقوات الأمير تُضيق عليه الخناق. واستمرت بزحفها حتى سقطت بيدها (دوارو) وإقليم شوا عام ١٥٣١م. ثم تداعت بعدها أقاليم ولاستا سنة ١٥٣٣م. وبنفس الفترة استسلمت [بالي، هدية، غوارج، سيدامو] في الجنوب، واتجه بعد ذلك شمالاً وتمكنت قوات الإمام أحمد بن

إبراهيم من احتلال إقليم تجراي سنة ١٥٣٤م على الرغم من وعورة جباله وشراسة محاربيه وعنف المقاومة التي أبدتها قبائله.

من الناحية الشمالية الغربية توغل الإمام أحمد داخل الأراضي المنخفضة، حيث حقق تماساً وعلاقة مع السلطان المسلم في منطقة التاكا بكسلا السودانية. كما اتصل بإمارات الساحل في مصوع وسواكن وإمارة الدجن في حوض القاش وبركة في غرب إرتريا.

وبعد أن تمكنت قوات الإمام أحمد من احتلال تجراي، استمرت في زحفها باتجاه الهضبة الإرتيرية؛ حيث تمكنت من احتلال سراي وأكلي قوزاي في إرتريا رغم المقاومة العنيفة التي واجهتها والتي نتج عنها مقتل الوزير عدلي وهو الوزير الأول للإمام أحمد أي نائبه. وقام الإمام أحمد بعد ذلك بتعيين حكام في بعض أجزاء إرتريا من وسط سكانها : فعين (تسفاوي) حاكماً لسراي، و(زستاي) حاكماً على حماسين، كما عين السلطان أحمد بن إسماعيل الدهلكي على (دخنو)، وأخيراً تمكن الإمام أحمد من احتلال إقليمي بيغا مدير وغوجام في الشمال الغربي. وعندئذ نقل مقر قيادته إلى موقع بالقرب من بحيرة تانا في الشمال الغربي من الهضبة الحبشية.

وبعد أن تمكن الإمام أحمد من الهيمنة على الحبشة بكاملها؛ استطاع إيجاد صلة متينة بين الصومال والحبشة وإرتريا والسودان بواسطة الاشتراك في الحرب أو عن طريق إدارة البلاد إدارياً أو عن طريق المصاهرة. وبذلك أوجد سلسلة إسلامية تمتد من الأمهرا والصومال والحبشة وإرتريا والسودان؛ وبذا آلت مقاليد البلاد بكاملها منذ عام ١٥٣٦م لسلطة الإمام أحمد بن إبراهيم.

ولكن الإمام أحمد ارتكب خطأ عسكرياً فادحاً ! فبعد أن حقق الانتصارات المتتالية التي أشرنا إليها وأقام مركز إقامته بالقرب من بحيرة تانا : قام بتسريح جيوشه التي كانت تتجمع لديه تحت رايات القبائل التي قاتلت إلى جانبه، حيث بدأت هذه الجيوش بالعودة إلى أماكنها الأصلية. ولم يحسب الإمام أحمد حساباً للبرتغاليين الذين كانوا ينظمون ويستعدون لحملة واسعة ضده بالاتفاق مع من تبقى من جيوش الحبشة.

ففي الفترة التي قام فيها الإمام أحمد بتسريح جيوشه، بدأ التدخل البرتغالي إلى جانب الأحباش؛ حيث نسقوا عملياتهم سوياً ضد قوات الإمام أحمد والذي لم يكن لديه الوقت الكافي لإعادة تجميع جيوشه؛ ولذا دخل معركة المواجهة ضد البرتغاليين والأحباش على السواء بالقوات القليلة التي توافرت لديه. وكان التفوق في السلاح الحديث إلى جانب البرتغاليين مضافاً إلى التفوق في العدد البشري لدى الأحباش. جرت المعركة على مقربة من شواطئ تانا ضارية وكانت بين جيش الإمام أحمد والقوة المتحالفة للبرتغاليين والأحباش، وقد استبسل الإمام أحمد وجيشه؛ حيث تمكن من قتل قائد القوات البرتغالية (كرسنوفر دي غاما) - وهو ابن المكتشف الشهير فاسكو دي غاما، ولكن الإمام أحمد جرح في هذه المعركة جرحاً مميتاً أدى إلى مصرعه في ساحة الوغى وذلك في سنة

١٥٤٢م. وكانت خسارة هذا الفارس الذي كان قائداً عسكرياً فذاً وحاكماً في القوت ذاته؛ فقد تشتت قوات المسلمين وتراجعت إلى قواعدها البعيدة في إمارة هرر وغيرها ! وكانت هزيمة جيوش الإمام أحمد نتيجة طبيعية لتفوق أعدائهم في الأسلحة النارية ونتيجة للخطأ العسكري للإمام أحمد بتسريحه لجيوشه قبل هذه المعركة.

ملوك الحبشة المسيحية يستعيدون سيطرتهم ويمارسون الانتقام

رأينا كيف استعان الإمبراطور لبنا دنقل بالبرتغاليين للقضاء على ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم. واستمر ملوك الحبشة من بعده بالاستعانة بالقوى الخارجية للقضاء على ما تبقى من آثار السلطنات الإسلامية. فقد استعان الإمبراطور منليك بالإيطاليين والبريطانيين وقياصرة روسيا، ومن بعده الإمبراطور هيلي سلاسي مستعيناً بكل قوى الغرب؛ حيث قضى على سلطنة (جما) عام ١٩٣٤م، وكانت آخر السلطنات الإسلامية المتبقية هي سلطنة (أوسا) التي قضى عليها منقستو هيلي ماريام مستعيناً بالقوات السوفيتية عام ١٩٧٥م، ولو أنها بدأت تستعيد مكانتها حالياً بعد خروج القوات السوفيتية وسقوط منقستو هيلي ماريام وهروبه إلى خارج البلاد في عام ١٩٩١م.

إن الحروب التي قامت بين الإمارات الإسلامية وملوك الحبشة والتي بدأت منذ عهد الإمبراطور يكونو أملاك استمرت حتى عهد يوهانس الأول والذي فور توليه عرش الحبشة عقد مجلساً فوراً لبحث طرق محاربة المسلمين؛ حيث أمر بمنع المسلمين من أن يعيشوا إلى جانب المسيحيين؛ وكانت نتيجة ذلك انقراض العشائر الإسلامية الكثيرة من قبل الحبشة المسيحية. ثم في ولاية إيفات في شوا وهدية وشرفا وغيرها، وتأسست على أنقاضها ولاية شوا المسيحية.

أما الإمبراطور يوهانس الرابع وفور توليه العرش دعا أعضاء الكنيسة إلى الاجتماع به لاتخاذ قرارات بشأن المسلمين؛ فقرر الانتقام والكرهية وتوحيد الأديان في إثيوبيا بالإكراه بحد السيف، وبعد أيام صدر مرسوم كإنذار يُخبر المسلمين بين الحرب أو الجلاء عن أوطانهم أو اعتناق المسيحية خلال ثلاثة أشهر. فأرغم ما يزيد عن ٥٠٠ ألف نسمة من المسلمين على التنصّر. ولو أنهم تنصّروا ظاهرياً ولبسوا الصليب (المعتب) مع احتفاظهم بعقيدتهم الإسلامية، وهرب أثناء ذلك الآلاف إلى السودان.

واستمرت هذه السياسة حتى في عهد الإمبراطور هيلي سلاسي؛ حيث وضع جهاز أمن الدولة عدداً ضخماً من الشخصيات الإسلامية النافذة في قوائم سوداء ومنعهم من السفر خارج البلاد، ومن هؤلاء العلماء الأجلاء : إبراهيم مختار مفتي إرتريا، محمد أمان مفتي داو، الشيخ سيد محمد صالح. حيث ساهموا في ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة الأمهرية، وكثيرون تعرضوا لنفس المعاملة في [بالي، جما، وللو] وغيرها حيث كانوا ضحايا لهذه السياسة !

ولذا ففي ٢٠ إبريل ١٩٧٤م قام المسلمون في إثيوبيا بمظاهرة قوامها مائة ألف مسلم في أديس أبابا معلنين تأييدهم للانقلاب العسكري الذي أطاح بعرش هيلي سلاسي، وطالبوا بالاعتراف الدستوري بالإسلام والتساوي مع الكنيسة الأرثوذكسية.

واستولى (الدرق) في ١٢ سبتمبر ١٩٧٤م بقيادة الجنرال أمان عندوم الإرترى الجنسية والأصل، والذي سلم في مؤتمره الصحفي الأول بأن المسلمين يكوّنون ٥٥% من مجموع سكان إثيوبيا. وقد تبنّت الحكومة الجديدة خلال الأشهر الأربعة الأولى من عمرها سياسة التعامل اللطيف مع المسلمين بإعلان إجازة العيدين (الفطر والأضحى) ومولد النبي صلى الله عليه وسلم عطلات قومية، وكان ذلك حدثاً كبيراً وغير مألوف في المجتمع الإثيوبي، وحقيقة إنه كان مقدمة لأحداث كبيرة قادمة لها أبعاداً ستشهداها إثيوبيا خلال العقود القليلة القادمة.

كانت أهداف البرتغاليين استعمارية وليس دفاعاً عن الحبشة المسيحية
من أقصى الغرب على البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي على امتداد كل شواطئ البحر الأحمر والمحيط الهندي وكل آسيا حتى سور الصين العظيم : انتشر العرب وهم ينشرون الإسلام والحضارة والثقافة العربية والعلوم، وكذلك المصالح التجارية، وذلك قبل وصول الاستعمار الأوربي.

والكاتب الأمريكي أليكس هالي في كتابه { الجذور } يصور بشكل دقيق وممتع كيف أن السكان في أدغال إفريقيا - وغامبيا تحديداً - كانوا يعيشون حياة هائلة من الأمن والاستقرار ورغد العيش، ويقيمون الخلاوي القرآنية لأبنائهم، ويتعلمون مبادئ القراءة والكتابة باللغة العربية. وكانوا يمارسون ما يُعرف اليوم بالتعليم الإجمالي : حيث أن كل طفل يصل إلى سن معين يتم أخذه إلى الخلوة القرآنية وبشكل عادي بواسطة والده لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وأداء الصلاة ومبادئ القتال والصيد والدفاع عن النفس ثم ختانه، ليصبح بعد ذلك رجلاً تجاوز مرحلة الطفولة. كان يتم ذلك قبل أن تبدأ أوربا بالزحف والهرولة باتجاه إفريقيا وقبل قدوم المبشرين الأوربيين بالمسيحية إلى هناك. أيضاً يصور في كتابه كيف بدأ وصول الأوربيين ببواجرهم إلى شواطئ إفريقيا العربية وكيف بدأوا يمارسون تجارة الرقيق واصطياد البشر مثلهم مثل الحيوانات ! ثم ينقلونهم بالسفن المخصصة لهذه المهمة عبر المحيط ويبيعونهم هناك في الأسواق مثل السوائم كعبيد لجني محاصيل القطن في الولايات الجنوبية من أمريكا. ويصور أليكس هالي كيف قلبت تجارة الرقيق حياة المواطنين هناك إلى جحيم وخوف وفقد للأبناء والبنات الذين يتم اصطيادهم وسط الأحرار ونقلهم بالبواخر إلى أمريكا ! وهؤلاء هم جدود الزوج الأمريكيين الذين يعيشون حالياً بالملايين هناك. وأليكس هالي يؤكد في كتابه بأنه ينحدر من هذه السلالة؛ حيث أن جده تم اصطياده ونقله إلى أمريكا.

وإن كان الأوربيون قد ارتبط وصولهم الأول إلى القارة الإفريقية بتجارة الرقيق ثم الاستعمار؛ فإن وصول العرب المسلمين إلى أوربا أخذ طابعاً مختلفاً في شكله وأهدافه؛ فقد دخل العرب جنوب أوربا عبر مضيق جبل طارق بقيادة الفاتحين : موسى بن نصير،

وطارق بن زياد سنة ٩٢ هـ ٧١١ م. ومنذ ذلك التاريخ وإلى امتداد ثلاثمائة عام متصلة نُعُت شبه جزيرة إيبيريا (إسبانيا والبرتغال) بظلال الحضارة الإسلامية، وطوال هذه القرون الثمانية كانت تلك البلاد تُعرف بإسم الأندلس، وتتكلم العربية وتدين بالإسلام.

وفي إفريقيا، فإن العرب نقلوا المصالح المشتركة أولاً ثم الحضارة والثقافة والعلوم، حيث ساهما في إقامة إمارات مستقرة مثل إمارات الطراز الإسلامي التي قامت في منطقة القرن الإفريقي. كان العرب العمانيون قبل ذلك قد أقاموا حضارة ازدهرت في عدد مدن الساحل الشرقي لإفريقيا، وكانت لهم تجارة نشطة مع الهند، وكانت آثار هذا الازدهار قد انعكست في الرخاء الذي كان يتمتع به السكان والمستوى المعيشي الذي لم يكن الأوروبيون يتصورونه. وكانت هناك على الساحل الشرقي إمارات ودويلات عديدة متناثرة ابتداء من إمارة مقديشو (عاصمة الصومال) شمالاً حتى رأس (الفادو) جنوباً. وكانت الموانئ التي ملأت الساحل مثل [كلوه، لامو ممباسا، ملندي] وغيرها تعج بالتجارة، ومياهاها ملأى بسفن العرب قبل مجيء البرتغاليين. وقد اشتهر بازدهار الساحل عدد من الرحالة مثل (ياقوت، المسعودي، ابن بطوطة)، ومما قاله أليكس هالي في كتابه { الجذور } عن المنطقة التي كتب عنها في إفريقيا : [فقد كان ذلك انعكاساً لما قام به العرب والمسلمون من نقل للعلم والحضارة والتجارة إلى أجزاء واسعة في شمال وغرب إفريقيا وذلك قبل قدوم الأوروبيين بقرون عديدة]. وسنتطرق لبعض الممالك الإسلامية التي قامت في هذا الجزء من إفريقيا وقبل وصول البرتغاليين بقرون.

مملكة غانا

امتد نفوذ هذه الدولة إلى شمال النيجر الأعلى وشماله الغربي وحدودها الشرقية نهر النيجر وحدودها الغربية نهر السنغال، وكانت الصحراء حدودها الشمالية. وقد سمّاها (الفزاري) الذي زارها عام ٢٠٠ هـ أرض الذهب، ولم تدوّن أخبارها إلا في بداية القرن الثاني الهجري عندما زارها الرحالة وهيب بن فيه عام ١٣٧ هـ، كما زارها المسعودي عام ٣١٢ هـ، ثم الزهري والبكري الذي شهد أواخر أيامهم عام ٤٧٦ هـ عندما قام المرابطون بتوحيدها تحت زعامتهم.

وكانت مملكة غانا قد بلغت حالة من الثراء ونعمة الأمن والطمأنينة. وذكر جميع الرحالة أن غانا عرفت الحديد وصناعة الأسلحة، كما عرفت الذهب الذي يتاجرون به مع أهل الشمال ويبادلونه بالملح والسلع الأخرى. وقال البكري : [إن أهل غانا لم يتعلموا التجارة فقط؛ بل مارسوا فنونها ووضعوا قواعد للضرائب والرسوم الجمركية، فمثلاً : كانت الحكومة تفرض ديناراً من الذهب على كل حمل حمار من الملح يدخل المدينة].

مملكة مالي

قامت هذه المملكة عام ٦٤٠ هـ، أي قبل انهيار الخلافة العباسية بقليل. وقد اتسعت حدودها اتساعاً كبيراً نحو الشرق حتى النيجر الأوسط، كما اتسعت نحو الغرب فشملت أراضي السنغال عدا الأجزاء الممتدة في الصحراء، وأشهر ملوكها : (كازكان موسي)

الذي سافر يحج إلى بيت الله الحرام ومعه قافلة من أتباعه وحاشيته وجواريه حيث قُدرُوا بالمئات/ مراراً بالقاهرة عام ٧٢٤هـ، حيث استقبلهم سلطانها الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأنزل الملك كازكان وحاشيته بالقلعة وأكرم وفادته، وقد زار مملكة مالي عدد من الرحالة ومنهم : ابن بطوطة الذي وصف الأمان والرخاء والتجارة والصناعة وجميع مظاهر الحياة في ذلك المجتمع. وكتب حسن ابن الوزان يصف الحياة العقلية في (تمبكتو) حيث قال : [إنها احتضنت عدداً كبيراً من القضاة والأطباء ورجال الدين، ينعم كلهم بمرتبات حسنة يدفعها لهم الملك، وفي البلاد إقبال شديد على الكتب المنسوخة التي ترد من الشمال الإفريقي وتجار الكتب يربحون أكثر من تجار أي صناعة أخرى في السوق].

مملكة سنغاي

يرجع قيامها إلى الشطر الأول من القرن السادس الهجري، وقد قامت على نهر النيجر الأوسط. واتخذ زعمائها مدينة جاو (مالي الحالية) عاصمة لهم. وأول زعمائها : ضياء بن قس (٤٠٩ هـ - ١٠٠٩ م). وقد اهتم شعبها بالأدب والعلوم والتدوين بعد أن اعتنقوا الإسلام، وتعلموا اللغة العربية. وبعد إسلامهم امتدت حدودها لتشمل دولتي غانا ومالي.

مملكة كانم

قامت في أقصى الشرق حول بحيرة تشاد. وامتد سلطانها إلى أراضي غانا مالي في المغرب، وقد قال عنها أحد الغربيين : [كانت في القرون الوسطى أستاذة الحضارة السودانية، وكانت تدين بالإسلام وتكتب بالحروف العربية]. كانت مملكة كانم تسيطر على أهم الطرق التجارية التي تربط المنطقة بساحل البحر الأبيض المتوسط عند فزان وبوادي النيل عن طريق دارفور.

دولة المرابطين

وتُعتبر من أهم الدول التي قامت بإفريقيا، وامتدت حدودها من تونس شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن البحر المتوسط شمالاً حتى حدود السودان جنوباً على عهد قائدها يوسف بن تاشفين.

وكان لهذه الدولة أسطول ضخم يسيطر على مياه البحر الأبيض المتوسط. وقيام هذه الدولة قد أضر سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس لأربعة قرون من الزمان؛ فقد كان أهل الأندلس في عهد ملوك الطوائف يرون في دولة المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين أملهم الوحيد في تخليصهم من واقعهم المزري. ولم يُخَيِّب يوسف رجاءهم؛ حيث جاء إلى الأندلس وواجه ألفونسو السادس وانتصر عليه في موقعة الزلاقة عام ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م.

عندما كانت تلك المناطق من إفريقيا شرقاً وغرباً بتلك الحالة، ظهر البرتغاليون في المسرح. فقد أُلقت السفن البرتغالية مراسيها لأول مرة أمام سواحل سيراليون وليبيريا في غرب إفريقيا في أواسط القرن الخامس عشر الميلادي وقبيل اكتشاف الطريق البحري إلى الهند والشرق عن طريق رأس الرجاء الصالح على يد المكتشف البرتغالي (فاسكو

دي غاما)، فوصل إلى موزمبيق عام ١٤٨٩م مواصلاً طريقه بمحاذاة الشواطئ الإفريقية الجنوبية، وعندما وصلت سفنه بالقرب من مقديشو قام بضربها بالمدافع من سفنه في محاولة لإخضاعها.

و حين قويت شوكة البرتغاليين أخذوا يفرضون الجزية والضرائب الفادحة على السكان، حيث تعاقبت حملاتهم البحرية التي جاءت بقيادة (روي لورينزو لا فاسكو) التي أبحرت من البرتغال سنة ١٥٠٣م وهاجمت سفن العرب الراسية في ميناء زنجبار وأحرقتها بالمدفعية، ولم يوقف هؤلاء القراصنة أذاهم حتى أذعن الأهالي ودفعوا الجزية المطلوبة من الذهب والماشية. وحين حاول سكان ممباسا (ميناء كينيا الرئيسي) المماثلة في دفع الجزية لم يتورع البرتغاليين من إحراق البلدة كلها ! واستمر البرتغاليون في ارتكاب الجرائم : فقد قام (لوبي سواريز) باحتلال ميناء زيلع الذي كان عاصمة عدل، وأحرق البلدة ودمرها سنة ١٥١٧م، وجاء من بعده سالدينيا، فهاجم ميناء بربرة حيث احتله وعبث بالبلدة وأباحها لبحارته، وسبق أنه في عام ١٥٠٧م أن احتل البرتغاليون جزيرة سومطرة عند مدخل البحر الأحمر وتمادوا في إيذائهم للسكان واستمر زحفهم حتى احتلوا الكثير من موانئ عُمان.

وفي عام ١٥٢٠م تمكن البرتغاليون من احتلال ميناء مصوع، حيث تم هذا الاحتلال بمظهر تجاري بريء؛ حين تقدّم البرتغاليون إلى السلطان أحمد بن إسماعيل سلطان دهلك ومصوع وملحقاتها بطلب إقامة علاقات تجارية مع إمارته؛ وما لبث هذا الطلب السلمي - البريء في مظهره - أن تحوّل إلى غزو مسلح واحتلال دام نحو أربعين عاماً ! ومن مصوع تمكن البرتغاليون بالاندفاع باتجاه الحبشة حيث قاتلوا إلى جانب الأحباش ضد الإمام أحمد بن إبراهيم بحجة الدفاع عن المسيحية ! ولكن الحقيقة ظهرت في وقت لاحق عندما اصطدم الأحباش بالمبشرين البرتغاليين وطردهم من البلاد شر طردة ! وبدخول البرتغاليين إلى البحر الأحمر تمكنوا من احتلال الموانئ الواقعة على الشاطئ الشرقي والغربي للبحر الأحمر. وعند وصول البرتغاليين إلى هذه النقطة من التمكن في البحر الأحمر فقد تحركت تركيا؛ والتي كانت آنذاك تُعتبر قوة عظمى ناهضة. ففي سنة ٩٣٧م خرج القائد التركي سنان باشا بأسطوله إلى البحر الأحمر لمنازلة الأسطول البرتغالي؛ فاصطدم به وانتصر عليه وهزمه شر هزيمة وكسر شوكته وأجلاه عن مواقعه. وفرت فلول السفن البرتغالية من البحر الأحمر؛ فاحتل سنان باشا كل من [سواكن، جدة، مصوع، زبيد، الحديدة، موخا باليمن، زيلع] وعيّن في كل مدينة موظفاً تركياً ينوب عنه ومعه حامية من الجنود، وجعل الجميع تحت سلطة والي حاكم عام الحجاز.

ولم يستقر البرتغاليون بعد ذلك كثيراً؛ فقد قام السلطان ناصر بن مرشد بن مالك بن أبي العربي اليعزبي بمقاتلة البرتغاليين وأجلاهم عن قلاع وحصون ومدن كثيرة في ساحل عُمان، ولكنه توفي في سنة ١٠٦٥هـ ١٦٤٩م، وخلفه في ميدان القتال شخصية عربية قوية من عُمان ألا وهو الإمام سلطان بن يوسف الذي نذر نفسه لمحاربة البرتغاليين وتحرير جزيرة زنجبار، وتمكن هذا القائد من إجلاء وطرده البرتغاليين من عُمان ومسقط

عام ١٦٥١م، وبنى بعد ذلك أسطولاً قوياً واستمر في مطاردة البرتغاليين وأجلاهم عن مقديشو؛ بل تبعهم إلى الهند بعد تخليص بلاد العرب من شرورهم. ثم طاردهم بعد ذلك في سواحل إفريقيا الشرقية، فأجلاهم عن زنجبار وممباسا عام ١٦٦٢م، حيث استطاع أن يثبت أقدامه في شرق إفريقيا. ونجح في فرض السيادة العمانية هناك؛ فقد دانت له مدينة كلوه وجزيرة بمبة، واستمرت الحرب بين الفريقين مدة طويلة في تلك المناطق بين تقهقر وتقدم، حتى تمكنت قوات السلطان وأهالي مدينة ممباسا من احتلال حصن المدينة وتحريرها في ١٤ ديسمبر ١٦٩٨م، وبذا كان النصر النهائي لقوات السلطان العماني. ولمّا استقرت الأحوال هناك اتجه للأعمال الإصلاحية والعمرانية : فأخذ في تشجيع الزراعة في جزيرة زنجبار وبمبة، إلا أن العمانيين لم ينقلوا قاعدة حكمهم إلى سلطنة زنجبار إلا في نهاية الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

الباب الثاني عشر

الصومال

الصومال الذي عُرف ببلاد (البونت) لدى الفراعنة الذين يتعامل معهم في التجارة ومختلف المصالح بين البلدين قد ارتبط في مختلف العصور بكل تاريخ وتراث وثقافات وأديان الجزيرة العربية؛ كما ارتبط بسلسلة شعوب القرن الإفريقي تاريخاً وحضارة وانتماء وثقافات ومصالح ابتداء من مصر ثم السودان وإرتريا والحبشة.

وهناك التشابه اللغوي والبشري بين المهرين والظفاريين (سلطنة عُمان حالياً) وبين الصوماليين، وتنتمي اللغة الصومالية إلى المجموعة الكوشية أو الحامية القديمة. وفي اللغات التي تلتقي مع الصوماليين : لغة المصريين القدماء والنوبيين بالسودان والساهاو والعفر في إرتريا. وكذلك الظفاريين والمهرين في جنوب جزيرة العرب؛ كما اتخذت اللغة الصومالية الكثير من المفردات العربية. وقد أصبح الصومال ومنذ وقت مبكر قلعة حصينة من قلاع الإسلام في إفريقيا، حيث توغل منه النفوذ الإسلامي إلى قلب بلاد الحبشة وإلى داخل القارة الإفريقية. ويتميز الصومال على مجمل دول القرن الإفريقي حيث هو الشعب الوحيد الذي يتحدث شعبه لغة واحدة وهي الصومالية، ويدين بدين واحد وهو : الإسلام، ويتمذهب الصوماليون جميعاً بمذهب الشافعي؛ ولكنهم في الماضي كانوا يتمذهبون بمذهب أبو حنيفة. وبالنسبة للطرق الصوفية فإن ٩٩% من سكان الصومال ينتمون إلى طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

وكان الصوماليون يمثلون جزءاً كبيراً من إمارات الطراز الإسلامي؛ فالإمارات التي نشأت في كل من [هرر، زيلع، بربرة، مقديشو] نشأت في أرض الصومال حيث كان سكانها صوماليون؛ بالإضافة للعرب القادمين من الجزيرة العربية؛ كما أن الصوماليون وفي ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم (قرانج) كانوا يمثلون الجزء الأكبر من جيشه حيث قاتلوا إلى جانبه في البداية وحتى النهاية.

والهجرات العربية إلى أرض الصومال قد تمت في وقت مبكر وقبل ظهور المسيحية والإسلام، مثلها في ذلك مثل باقي مناطق القرن الإفريقي. ولكن في القرنين الأول والثاني من الهجرة؛ فقد هاجر بعض علماء الإسلام والتجار إلى الصومال، وكان ذلك نتيجة الحروب التي نشبت بين المسلمين مثل حرب الأمويين والهاشميين من ناحية، والأمويين والعباسيين من ناحية أخرى، ثم الحروب الطاحنة التي كانت تحدث في اليمن بين عمال أو نواب الخلفاء والممالك الإسلامية في اليمن. وثورات الشعب اليمني وشعوب حضرموت ومهره وظفار ومسقط ضد هؤلاء النواب؛ مما أدى إلى هروب كثيرين من العلماء والتجار وقلول المهزومين إلى الصومال واستقرارهم بالمدن الساحلية مثل مقديشو وزيلع وغيرها، وأدى كل ذلك إلى انتعاش الإسلام وانتشاره في بلاد الصومال.

وقد نبغ كثير من أبناء الصومال في التدريس والتأليف ونشر الدعوة الإسلامية في أنحاء إفريقيا، ونذكر على سبيل المثال : الشيخ الإمام الحافظ جمال الدين محمد عبد الله الزيلعي صاحب كتاب { نصب الراية لتخريج أحاديث الهداية }، وهذا الكتاب مرجع حقيقي لمذهب أبي حنيفة، ويدعو إلى توحيد المذاهب الأربعة. حيث أعيد طبعه في الهند سنة ١٩٣٨ م. ثم الشيخ فخر الدين الزيلعي صاحب كتاب { تبیین الحقائق في شرح كنز الدقائق } وهو ست مجلدات. ولعلماء زيلع قسم في دار الكتب المصرية.

الثورات والمقاومة

كان الصومال حاضراً في كل ما يمر بالمنطقة من أحداث؛ فقد كان للصوماليين دورهم الكبير في إقامة سلطنات الطراز الإسلامي، كما كان جيشهم هو الأكثر والأوفر مع جيش الإمام أحمد بن إبراهيم، كما أنهم واجهوا التدخل الأجنبي وبالذات البرتغاليين. والذي يؤكد استعدادهم للتجاوب مع كل حدث يمر بالمنطقة الرسالة التي سنوردها بالنص. فالشيخ سلطان بن صقر بن الشيخ راشد بن مطر القاسمي - الذي تولى الحكم في إمارة رأس الخيمة أعوام (١٨٠٣ - ١٨٨٦ م) - قد قاتل الإنجليز في الخليج وبحر العرب والمحيط الهندي، وذاع صيته في كل المناطق الإسلامية. وفي عهده ضرب الأسطول البريطاني مدينة رأس الخيمة، حيث استمر القتال لأكثر من نصف قرن. وعندما كان الصوماليون يواجهون الاستعمار الأوربي عامة والبريطاني خاصة فقد وجهوا إليه الرسالة التالية مستعينين به، وهذا نص الرسالة دون أي تعديل :-

[الموصوف بأقل صفات، المعروف برشح صفاته / سلطان بن صقر القاسمي. حرسه الله في حياته من فضيحة وفقر. وفي آخرته عن السعير وصقر.

ومراد الورقة السلام عليكم وإيصال أخبارنا إليكم وتذكير طاعتنا وشوقنا لديكم. أقول لك يا أمير المؤمنين : مَتَعَ اللهُ بِحَيَاتِكُمُ الْمُسْلِمِينَ، وأيد الله بكم الدين، ونَصَرَ عِنْدَكَ الْمَجَاهِدِينَ. فإن ملوك أهل الإسلام ضيعوا الشريعة، وضيعوا أركانها المنيعة، ونادموا سلاطين الكفار، واستمدوهم على أهل الأمصار، حتى أنزلوا القرين في عدن سمة الجنة وأقدم مسكن أحلهم الله دار البوار وانتقم منهم بغذاب النار، وذلك من الرعب المقذوف في قلوبهم، وهذا في جملة عيوبهم، والواجب عليكم تقويمهم لإقامة الحنيفية وإظهارها، ولذب رافضيها عنها وإشهارها. ونحن أهل بادية وأصحاب ماشية. لكننا أولو قوة وأولو بأس شديد، وأصحاب جرد ومرد وعد عديد، لكننا نأوون عن الساحل لا نصله إلا بشق الأنفس والرواحل. ولكن بحمد الله قد طلع من الساحل نجم ثاقب وأسد رابض راقب، لزم وألزم التوحيد، ونفى الشرك والتنديد، وهو السلطان الصالح الناصح الحاج العاقل فارح، سلمه الله وحياه وحرصه وهده. فصار واسطة بين الطريقين ومأوى لكلا الفريقين. وقد بحث هو وسلاطين المسلمين الأخيار وساس قوانينهم باعتبار، فتحصل له من مناقبك ما أسر خواطره وحرك مشاعره ولميثاقه مع محمد بن سالم بن علي عليه رحمة ربه العلي من المنكر، وذكرهم بهول القيامة والمحشر، وأطع الله وأطع الرسول. إذ كل راع عن رعيته مسؤول، وجاهد الكفار والمنافقين وأقام الحدود على الكافرين والزناة والسارقين. فلا يجوز لك أن تهادن الكفار فوق أربعة أشهر أوجبت علينا إتباع الأمير الموحد المجاهد

الآمر الناهي القائم المساعد. ونحن معدودون من رعيته ومستريحون بمعيتك فساعدنا بيدك ولسانك، لقوله صلى الله عليه وسلم : [المؤمنون يد واحدة على من سواهم. والمؤمنون كالبنيان يشد بعضه بعضاً]، ونحن محتاجون إلى مدد، وحتى كلامك يكفيننا إذا أمرت السواعي المسافرة إلينا أن يقوموا معنا ويجاهدوا في سبيل الله؛ بحيث إذا جاءوا عندنا ما يخالف أحد من الصوماليين؛ لأنهم يهاجمون إذا سمعوا أن السلطان ابن صقر قام للجهاد فيهابون، ويقولون كلهم نحن من رعيته. هذه السواعي المسافرة تكفيننا بحول الله وقوته. وما ترى إن شاء الله إلا وهم داخلون تحت طاعته في سنة واحدة. ولا يضر هذا البعد الذي بيننا لأن السواعي مقربة تحمل إلى بلد لم يكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس. كما أن سعيد بن سلطان ملك أرض السواحل كلها مع أنه خارجي ليس من أهل السنة والجماعة، وأنت بحمد الله قلوب الصومال مشتاقة إليك كما ذكرنا لهم من إتباعك الكتاب والسنة، فاجتهد في ضم ملك الصومال إلى ملكك، فإن المملكة سعادة لمن أدى حقها، وشقاوة لمن طغى وآثر الحياة الدنيا. فيجب عليك أن تعاوننا باليد واللسان ويجب علينا السمع والطاعة، فيجب عليك أن تمدنا برجال وأموال وتساعدني بسواعي وأقوال؛ لأنك إذا أمرت السواعي المسافرة والرجال المسافرة أن يساعدونا بالتنايق والسفن ويحاربون معنا الكلاب والكفار والعفن. فنسأل الله بوجه الله الذي لا يجوز رد السائلين له أن تساعدنا وتمدنا بالإعانة الواجبة عليك لقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما معناه : (إن الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه). ويجب علينا السمع والطاعة وعلى الله نصر المؤمنين، فالله الله لا تتساهل في كلامنا هذا، فإنه مجلب الظفر ومعلم النصر ومكسب الأجر وتوكلوا على الله ومن يتوكل على الله فهو حسبه. وإن اله بالغ أمره، إننا نصر رسلنا والذين آمنوا كتب الله لأغلبن أنا ورسلي. إن الله قوي عزيز، وكان حقاً علينا نصر المؤمنين. أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون والغالبون. وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين وما يعلم جنود ربك إلا هو. ومنذ نزلت إلى البادية البعدى قرب الساحل الغربي عند الحاج الأقمر والسلطان الأعز فارح جرسى وأنا منتظر كل سعدة إلى الفتوح، والأمر كله لله وإليه يرجع الأمر كله وجيوش البادية علينا. ولو بقي ثلاثين ألف خيال. لكن ما لنا قوة في البحر غير الحاج فارح؛ لكن أصحابه وبنو أعمامه لا يقومون للحق ويحسدون عليه. وإذا جاءت سواعي منكم وذكروا أنك قائماً معنا يهتابون ولا يتكلمون بكلمة، ولا يقدر أن يخالفونا، فإن لم تقدر ترسل لنا سعدة مستعدة. فالله الله قل للمسافرين الجائين من أراضيكم : الصومال مع الحاج علي والحاج فارح، فإن ذلك ينفعنا نفعاً جماً وإن لك فيه أجر لماً. فأعينونا بقوة حتى نجاهد الصومال وندخلهم في الإسلام والإيمان بإذن الله الرحمن. وتُملكني فيهم بعون الله الملك المعبود. لما سمعنا منك من الخصال الحميدة والمناقب العديدة والفضائل السعيدة والفواضل المفيدة فأحببنا أن نكون لك عساكر مجاهدين وفوارس مساعدين].

وباستلامه لهذه الرسالة لم يتأخر الشيخ سلطان بتلبية نداء إخوته في الدين بالصومال؛ بل بادر بإرسال ما يمكن إرساله من الرجال والسفن.

ثورة محمد بن عبد الله حسن (مهدي الصومال)

الثائر الصومالي محمد عبد الله حسن يعتبره شعب الصومال رمزاً للبطولة ومقاومة الاستعمار الأوربي. ولذا فقد أقاموا له بعد استقلال الصومال تمثالاً ونصباً تذكاريّاً في العاصمة مقديشو.

وُلِدَ محمد عبد الله حسن عام ١٨٥٦م، وحَفِظَ القرآن الكريم ودرس علوم الدين واللغة العربية. بعد ذلك ذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج والدرس في عامي ١٨٨٩ - ١٨٩٠م، حيث أخذ هناك الطريقة الصالحية من السيد محمد بن صالح الرشيدى، وبذلك مسته روح التصوف. وقد كان كثير الاطلاع والمتبعة؛ حيث تشبّع بأخبار الثورات الإسلامية ضد الاستعمار الأوربي؛ فسلك نفس الطريق، والدارس لتاريخ ثورة الشيخ محمد عبد الله حسن يلاحظ أنه قد تأثر إلى حد كبير بالثائر السوداني محمد أحمد المهدي.

لم يكن التأثير المتبادل بين الصومال والسودان أمراً مستغرباً بحكم التواصل الذي كان يشمل منطقة القرن الإفريقي برمتها؛ فهناك لهذا التشابه المثل السوداني القائل [زولين في تربة ولا ريال في طلبة] وكان مثلاً للجار بالشكوى من الضرائب التي فرضها الأتراك على المواطنين السودانيين للماشية والزراعة. يقابل ذلك المثل الصومالي القائل [إن أحبوك حاربوك، وإن كرهوك قتلوك]، وقيل هذا المثل للمعاملة القاسية التي وجدها الصوماليون أيضاً من نفس الحكام الأتراك ! وكان ذلك بمناسبة مقتل السلطان محمد علي عبد الشكور أمير هرر، والذي سلم لمحمد رؤوف باشا قائد الحملة العسكرية في أكتوبر ١٨٧٥م، حيث قبل وصوله إلى هرر كتب له الأمير عبد الشكور وثيقة بتنازله عن العرش واعترافه به؛ ولكن ذلك لم يشفع له عند محمد رؤوف باشا الذي قام بقتله بمجرد دخوله إلى هرر دون أية مقاومة !

وقد اتّبع الثائر الصومالي محمد عبد الله حسن (مهدي الصومال) نفس أسلوب التحريض الذي اتبعه المهدي بتوجيه الرسائل للأعيان والمشايخ طالباً مجاهدتهم ضد المستعمر. وهذا نموذج للرسائل التي كان يوجهها.

ونورد الرسالة بنصها دون أي تعديل :

[بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله.

كهف الرعية وحامي ديارهم، منفذ أوامر الشرع المنادي به في سبيل الله، جناب المجاهد السلطان عثمان بن محمود سلطان بوساسو أيّده الله ووفقه ونصره. آمين.

أعرض على مسامعكم الكريمة بعد رفع ما أوجبه الله من التحية الخالصة والدعاء المقبول إن شاء الله. إني بعثت لكم كتابين تباعاً لقول الصدوق صلى الله عليه وسلم : (إن الدين النصيحة لله ورسوله ولخاصة المسلمين وعامتهم). وبنيّت فيها ما يفترضه الواجب الديني لمعالجة المطامع المسلطة على بلادنا من دولة إيطاليا الكافرة الظالمة القاسية. ووضحت لعظمتكم أن الله تعهد بنصر المؤمنين وتكفل بالآل يجعل للكافرين على

المؤمنين سبيلاً إذا قاموا بتأييد دينهم والسير على سنة قرآنهم، فإنه قال : ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ . وقال : ﴿ وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ . وعلى هذه السنن نهج السنوسي مع إيطاليا في طرابلس الغرب؛ فإنه هزمها وقهرها وغنم ما لا يحصى من الذخائر والعتاد الحربي ولم يتركه هملاً؛ بل صار يقاتل بعد أن استعد لكل ما يلزم. وعلى هذه القاعدة أيضاً سلك سلطان الريف في المغرب الأقصى - يقصد بذلك الأمير عبد الكريم الخطابي ضد فرنسا - فإنه غضب منه وخرج منفرداً يقاتل في سبيل الله، ومازال يسير في وادي الإخلاص بحزم وحكمة وثبات حتى صار يقود اليوم مائتي ألف مقاتل مزودين بالبنادق والمدافع الضخمة والرشاشات السريعة التي غنمها منهم صار يستعملها ضدهم حتى أربى دولتي فرنسا وإسبانيا، ودك قواتهم العظيمة وكاد يسحقها سحقاً. وكذلك مثل سلطان باشا الأطرش في الديار الشامية مع دولة فرنسا. وعلى هذه الخطة يسير كل حاكم مسلم حكيم. وكل من ولاه الله حاكماً على طائفة من المسلمين واجب عليه أن يتزود ويستعد بما يدفع عن أمته الويل. وإذا لم يفعل فإنه يكون عاصياً ومسؤولاً يوم الفرز الكبير أمام رب العزة. ولقد تعهدت لمقامكم المهيب أنكم إذا أردتم السبيل الواضح الموصل إلى الانتصار السريع فلابد من الاستعداد وإعداد القوة والرجال لمقاومة خصومكم المثل بالمثل، وذلك ليس من الصعب ولا المستحيل؛ بل يتوقف على توجيه إرادتكم القوية نحو ذلك بعد مشيئة الله. وأؤكد لكم صدقاً في كتابي هذا المرسل مع أحد خاصتكم عمر جامع مع ما سبق في كتابي السابقة. وقد وضحت له تفصيلات ذلك شفهيّاً بحضور خاصتكم محمود عواله. فإذا عزمتم على العمل الموصل إلى سرعة حصول المرغوب فيه يجب أن تختاروا لكم وكيلاً أميناً رسمياً والسلام].

السيد / محمد عبد الله حسن

إن الثائر الشيخ محمد عبد الله حسن كان يجاهد ويقاقل بالكلمة وبالسلح وباستنهاض همم شعب الصومال؛ ولكنه خاض معركة غير متكافئة ! حيث كان يقاقل ضد إيطاليا وبريطانيا في وقت واحد عندما كانت بلاده معروفة باسم الصومال البريطاني والصومال الإيطالي، والغريب أن الدعاية الخبيثة الماكرة التي اتبعها قلم المخابرات البريطاني ضد الثائر الإمام محمد أحمد المهدي وخليفته باستصدار فتاوي من بعض رجال الدين والمشايخ تدحض دعوته وتتهمه بالخروج عن الدين وطبعها في منشورات وتوزيعها. وهذا الأسلوب الخبيث قد اتبعه البريطانيون أيضاً ضد الثائر الصومالي الشيخ محمد عبد الله حسن بإتهامه بالكفر ! وذلك بأسلوب استصدار فتوى من السيد محمد صالح مؤسس الطريقة الصالحية في مكة والذي يُعتبر الشيخ محمد عبد الله حسن أحد أتباعه، وحصلوا منه على كتاب في سنة ١٩٠٦م يعلن فيه خروج الشيخ محمد عبد الله حسن على تعاليم الطريقة وأنه خارج عن الإسلام، وقامت السلطات البريطانية والإيطالية بطبع هذا الإعلان في منشور حيث أذاعته وأعلنته على الأهالي.

إن ثورة الشيخ محمد عبد الله حسن لم يكن بالإمكان إخمادها لولا استعمال سلاح الطيران البريطاني وقصفه المتوالي لمواقع الثوار وقراهم بشكل دائم، وهم الذين كانوا مسلحين بالأسلحة التقليدية من حراب وسيوف وبنادق بدائية عتيقة ! وقد توفي الشيخ محمد عبد الله حسن (مهدي الصومال) في عام ١٩٢١م دون أن يحقق الهدف والأمل الذي ثار وعاش من أجله ألا وهو : تحرير بلاده من الاستعمار الإيطالي والبريطاني؛ إلا أن الشعب الصومالي قد حقق هذا الهدف بعد وفاة هذا الشيخ الثائر بأربعين عاماً. ولم ينسَ دوره وتاريخه؛ بل قام تكريمه بعد وفاته بسنين طويلة.

الباب الثالث عشر

السودان ومملكة سنار (١٥٠٤ - ١٨٢٠م)

ليس هذا سرداً لتاريخ مملكة الفونج والتي عُرفت بالسلطنة الزرقاء أو سنار؛ وما سنتطرق إليه هو عن علاقة منطقة القرن الإفريقي بعضها ببعض وعلاقتها بالعروبة والجزيرة العربية.

إن باقي أقطار القرن الإفريقي عامة والسودان على وجه الخصوص لا يفصله عن جزيرة العرب إلا البحر الأحمر، ذلك الشريط المائي الذي لم يَجَل يوماً من الأيام بصورة تامة دون التواصل بين من يسكنون على ساحليه؛ فقد سجّل التاريخ هجرات عربية عديدة للسودان حتى الآن قبل الإسلام. ويروي الطبري أن الصحابي (أبا محجن الثقفي) قد غرّب إلى ميناء مصوع الواقع بالقرب من عقيق سنة ١٦ هـ، كما نفى الخليفة الأول أبوبكر الصديق جماعة من الأعراب إلى منطقة عيذاب.

من هم الفونج ومن أين جاءوا ؟

يرجح المؤرخ المصري الشاطر بصيلي عبد الجليل الافتراض القائل بأن الفونج جاءوا من إرتريا، ويقول أن البيت المالك قد أمضى فترة من الزمن يمارس سلطانه في المنطقة الجنوبية الغربية من إرتريا، وذلك قبل انتقاله إلى حوض النيل الأزرق واتخاذه من بلدة سنار عاصمة له.

وعُرفت العاصمة التي اتخذها هذا البيت في إرتريا بإسم (لامول)، أو كما تُعرف محلياً بإسم (علم).

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما جاء في نقوش نقارة السلطان التي كانت في حودته عندما كان يمارس سلطانه في (لامول)؛ فإننا نجد الإشارة إلى أن جده الكبير قد جاء من (لول) وهو الجد السابع إلى (لامول) التي تقع في إرتريا حوالي القرن السابع عشر الميلادي، وقد جاء علماء التاريخ ومنهم (سير هنري ولكام) وكذلك مخطوطة (الزوج التي شرحها تشيرونلي في عام ١٩٥٧م، وإن ما جاء في نقوش السلطان (عمارة دنقس) بشأن جده الكبير الذي جاء من (لول) ينطبق على هذا الموقع، حيث يشير إلى وصول الفونج إلى منطقة الساحل الإفريقي الشرقي من موطنهم الأول في وادي (شمايل في عُمان) جنوب شرقي الجزيرة العربية. وتشير هذه المخطوطة إلى أن آل الفونج كانوا يمارسون الحرب بين بربرة وسواكن، وتشير بعض المصادر إلى أن نسبة البيت السلطاني الفونجي إلى الأمويين كانت عن طريق الزواج والمصاهرة بين آل الفونج والأمويين الذين كانوا يسيطرون على منطقة (اللامو) والساحل الشرقي لإفريقيا، وهناك من يقول بأن الفونج يرجع نسبهم إلى الأمويين الذين نزحوا من السودان، ثم اتحدوا مع

عرب القواسمة المهاجرين من الجزيرة العربية؛ حيث تم على أيديهم تأسيس مملكة الفونج عام ١٥٠٤م، ومؤسس مملكة الفونج عمارة دنقس اتفق مع عبد الله جمّاع رئيس عرب القواسمة بالسودان؛ حيث قاما سوياً بالهجوم على (سوبا) للإطاحة بحكم ملك سوبا المسيحي وإقامة سلطنة عربية إسلامية مكان سوبا.

أمّا الفونج فيقولون إنهم من بني أمية، ويقولون [إن العباسيين لمّا تغلبوا على الأمويين في الشام ونزعوا المُلْك من أيديهم سنة ١٣٢هـ - ٧٥٠م : لاذ من بقي من الأمويين ومن والاهم بالفرار؛ فتفرقوا في أنحاء العالم، فذهبت جماعة منهم إلى بلاد إسبانيا : فأسسوا مملكة الأندلس، وذهب آخرون إلى السودان : فأسسوا مملكة سنار. وقيل لجأوا أولاً إلى الحبشة. فعلم بنو العباس بهم، فأرسلوا إلى النجاشي يريدون منه تسليمهم وإلا أقاموا عليه حرباً وأخذوه عنوة. فحار النجاشي في أمره ! لأنه لم يشاء أن يُسلم قوماً دخلوا في حماه إلى أعدائهم، ولا أن يتحمل عناء حرب طويلة لأجلهم. فأرسل هدية فاخرة إلى العباسيين وأمر الأمويين فخرجوا من بلاده وسكنوا الجبال التي في أعالي جزيرة سنار، وكان سكانها من السود ومن بينهم الفونج، فملّكوهم بالسهل نظراً لما تعودوه من السلطة والنفوذ في سوريا والعراق، وكثر تناسلهم منهم. فغيّر ذلك من لونهم؛ ولكن لم يَضَع أصلهم؛ فهم لا يزالون عرباً].

أمّا الشيخ عبد الدافع صاحب { تاريخ الفونج } فيقول :
[انتقل الفونج من جبال الجنوب إلى جبل (مويه) المجاور لجبل (سجدى) على مقربة من سنار، وكان كبيرهم (عمارة ود دنقش). وفي جوارهم قبيلة من عرب جهينة تُعرف بالقواسمة، وعليها شيخ شديد البأس يسمّى (عبد الله جمّاع)؛ فاتحد مع عمارة وعبد الله على ضم كلمة المسلمين ومحاربة النوبة ونزع المُلْك من أيدي (العنج)، فحشدا الجيوش وهاجما العنج في سوبا، فقتلوهم شر قتلة وخربا سوبا ! ثم سارا إلى (قرى) فقتلا ملكها واستوليا على البلاد كلها وذلك سنة ٩١٠هـ - ١٥٠٥م.

أمّا عن انتقال السلطنة إلى سنار، فليس هناك نصوص أو أصول تاريخية تشير في وضوح إلى التاريخ الذي قام فيه انتقال البيت الحاكم من عاصمته في (لامول) الواقعة على ضفاف نهر سيتيت بالقرب من مدينة (أم حجر) في إرتريا إلى سنار على ضفاف النيل الأزرق بالسودان غير ما جاء في الروايات المحلية، ومنها المخطوطة المعروفة { كاتب الشونة } والتي تشير إلى قيام السلطنة بعد أن تم التحالف بين العبدلاب وبين الفونج، وإنهاء مملكة (علوة) المسيحية وتخريب عاصمتها (سوبا).

دولة العبدلاب

تم الحديث عن عبد الله جمّاع الذي تحالف مع عمارة دنقش في القضاء على سوبا وتأسيس مملكة سنار، حيث وضع أحفاد عبد الله جمّاع تعريفاً مختصراً عن العبدلاب ودولتهم.

دولة العبدلاب : مؤسسها هو عبد الله بن محمد الباقر الملقب بـ عبد الله جمّاع؛ لأنه جمع القبائل واتحد مع ملك الفونج لمحاربة الدولة المسيحية في سوبا؛ وتم لهما الانتصار وذلك في عام ٩١٠ هـ. وبعد أن توفي عبد الله جمّاع خلفه ابنه الملك (عجيب المانجلك) الذي سار على درب والده، وقد كان شجاعاً ومشجعاً بالروح الدينية لأنه تربي في بيت ديني؛ حيث علّمه والده الفقه والقرآن من العلماء، ومنذ أن تولى القيادة كان لا همّ له غير رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله. وحارب كل من حادّ عن طريقها، وكانت له مواقف عظيمة مشهورة، ومن هذه المواقف الأعمال الجليلة التي تقف شامخة كالطود إلى يومنا هذا : أنه أول من قاد فوجاً من الحجيج السودانيين، حيث كان هذا الفوج مجهزاً بكل المعدات والعمال، وكان غرضه من ذلك شق طريق من (قرى) إلى ميناء مصوع على البحر الأحمر، وقد كان الطريق وعراً ومليناً بالأحراش والغابات. وقد قام بشق هذا الطريق حتى مصوع؛ حيث حفر فيه عدداً من الآبار والحفائر للمياه. وعبر بعد ذلك إلى البحر الأحمر عن طريق مصوع إلى الأراضي المقدسة حيث أدى فريضة الحج.

توسع مملكة الفونج داخل السودان

أوضحنا بأن مملكة الفونج في سنار قد أسسها الملك عمارة دنقس في عام ١٥٠٤م، وبالتحالف مع عبد الله جمّاع مؤسس دولة العبدلاب؛ حيث حاربا الدولة المسيحية في سوبا وانتصرا عليها.

وبعد تعزيز السلطان عمارة دنقس - مؤسس مملكة الفونج التي عُرفت بالسلطنة الزرقاء أو بسلطنة سنار - وبعد تعزيز أركان مملكته : عمّد إلى مد نفوذ السلطنة على الزعامات والرياسات التي كانت قائمة في شمال السودان حتى الشلال الثالث. أيضاً امتدت سلطة السلطنة الزرقاء إلى سواكن أيام الملك عمارة دنقس حيث اشتبكت جيوشها مع أمير سواكن وهو من الحدارب عام ٩١٤ هـ - ١٥٠٨م، وانضمت قبيلة الأرتيقة إلى جيوش الفونج، وقاتلت الحدارب الذين انهزموا ورحلوا من سواكن وتفرقوا في البوادي المحاذية لجبال سنكات وأركويت، فعين قائد جيش الفونج - وهو من العبدلاب - عبد الله الأرتيقي أميراً على سواكن، حيث خضعت بادية إقليم البجة للسلطنة الزرقاء؛ إلا الهدندوة : فإنهم تحصنوا بالجبال من خيالة الفونج.

سنار والسلطان العثماني

في سنة ١٥٠٤م وبمجرد تأسيس دولة سنار : أرسل السلطان سليم العثماني خطاباً إلى الملك عمارة دنقس ملك سنار يدعوهُ إلى الطاعة. فأجابه عمارة بما نصه :
[إنني لا أعلم ما الذي يحملك على حربي وامتلاك بلادي. فإن كان لأجل تأييد دين الإسلام فأني أنا وأهل مملكتي عرب مسلمون ندين بدين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كان بغرض مادي، فاعلم أن أكثر أهل مملكتي عرب بادية، وقد هاجروا إلى هذه البلاد في طلب الرزق. ولا شيء عندهم تجمع منه جزية سنوية].
وأرسل مع هذا الخطاب - كتاب { أنساب العرب } - جمعه له الإمام السمرقندي وهو أحد علماء سنار. فلمّا وصل الكتابان إلى السلطان سليم أعجبه ما فيهما، وعدّل عن حرب سنار.

توسع مملكة سنار باتجاه إرتريا

إن الفونج - وهي أول مملكة إسلامية في السودان - توسعت شرقاً؛ حيث خضعت لها أقاليم البجة وممالكها وحتى انتهت إلى مصوع؛ حيث نشأت علاقات تبعية عززتها علائق التجارة بين سنار ومصوع.

ففي الوقت الذي احتل فيه الأتراك إرتريا في أواسط القرن السادس عشر قام الفونج الذين أقاموا مملكتهم في أواسط السودان منذ بداية القرن السادس عشر بالتوسع شرقاً؛ حيث استطاعوا أن يؤثروا على منطقة نهر القاش سييتيت ومنخفضات بركة في إرتريا، وإن قائد الفونج - وهو من العبدلاب والذي فتح شرق السودان - اتجه نحو غرب إرتريا وشمالها حتى أخضع أقاليم البجة وممالكها للسلطنة الزرقاء. واستمرت فتوحات الفونج نحو الجنوب حتى وصلت إلى مصوع.

وكان طبيعياً أن يمتد نفوذ سلطنة سنار إلى المناطق التي تقوم على الطرق التجارية بين مراكز تجمع السلع ومراكز التسويق لتأمين المواصلات وتقديم ما تحتاج إليه القوافل من مؤن ومعونة. وبذلك نشأت علاقات على امتداد الطريق التجاري بين سنار ومصوع، ومدن مثل أغردات وبارنتو وقلوج وغيرها كانت في الأصل محطات للقوافل.

على أن سلطان الفونج لم يكن يتدخل في شؤون المشيخات الداخلية التي تخضع له؛ بل كان يكتفي بزعاماته الرمزية التي لم تحتم على الزعامات المتحالفة مع إرسال جنودها ووضع مواردها تحت إمرة السلطان في حالة الحرب؛ بل اكتفى السلطان بنصيب من الضرائب التي كانت تجبى على البضائع الواردة؛ ولهذه فقد احتفظت مشيخات البني عامر والحباب التي خضعت للفونج باستقلالها الذاتي مع الخضوع الإسمي لسلطنة الفونج. وقد زار شيخ قبائل البني عامر (جمع بن عجيل بن علي محمد ضرار) وشيخ مشايخ جبال البني عامر الشيخ (همد إدريس هاسري) زارا سنار لتقديم الطاعة والتعهد بتحصيل الزكاة ضمن من تحت سلطتهم من القبائل، وكانت هذه الزكاة تُسلم سنوياً لمندوب ملك سنار، كما كان هذا المندوب يحمل كساوي شرف من الدمور وسيوفاً ويقدمها هدية من الملك للمشايخ والعُمد والزعماء، كما كان يقدم أحياناً الخيول العربية والرفيق والنحاس والأوتار (ألحان) التي تُعزف في الربابة لكل قبيلة والمحظورة على القبائل الأخرى.

وكان سلطان سنار يُكرم شيوخ القبائل وزعماء الأقاليم في سلطاتهم؛ بأن يُلبس الشيخ طاقية ذات قرنين مصنوعة من جلد ومحشوة قطناً وتمسى (أم القرينة) ونحاساً يسمى النقارة.

والنقارة : عبارة عن طبل من النحاس يُدق عند إعلان الحرب أو مناسبات رسمية أخرى. ولا تزال الأسر الحاكمة كأسرة (كنتيبي) في الساحل و (دقل) في بركة وأسرة النائب في مصوع تحتفظ بهذه النقارة التاريخية حتى اليوم.

وإن ملك سنار كان نحاسه (النقارة) يسمى منصورة : وهو نفس الإسم الذي يطلق على النحاس الموجود حتى اليوم لدى أسرة كنتيياي قبائل الحباب منذ قديم الزمان وإلى اليوم. وأيضاً سلاطين الغور كانوا يطلقون على نحاسهم تسمية منصورة وكذلك العبدلاب، مضافاً إلى ذلك فإن النحاس الذي كان لدى الخليفة عبد الله خليفة الإمام محمد أحمد المهدي في العاصمة الوطنية أم درمان، وكان يُضرب في المناسبات أو في حالة إعلان الانتصار، وكان يطلق عليه تسمية منصورة. والنحاس : هو النقارة المصنوعة من النحاس ومغلّفة بجلد سميك.

سنار تكسب صيتاً عالمياً كبيراً

عند حلول الأتراك بموانئ البحر الأحمر، فقد كان لسلطان الفونج صلات وثيقة بالبasha التركي في موانئ البحر الأحمر (سواكن، مصوع) والذي كان يُعتبر الممثل التجاري للسلطنة، كما كانت لها علاقات خارجية مع اليمن التي كانت تستورد منها السيوف والدروع، مع الهند وغيرها من بلاد الشرق الأقصى، كما كانت للسلطنة الزرقاء علاقات مع المغرب الأقصى عن طريق القوافل عبر كردفان ودارفور. وقد ذاع صيت مملكة سنار حتى قصدها الوفود من الحجاز والسند وأهل صعيد مصر والمغرب الأقصى واستوطنوا بها.

وقد وصف الرحالة (كرمب) سنار في عام ١٧٠١م بأنها : [مركز تجاري هام، وتتردد القوافل التجارية بينها وبين القاهرة ودنقلا وبلاد النوبة والهند وإثيوبيا ودارفور وبرنو وفزان وغيرها من الاقطار].

حروب الحبشة مع مملكة سنار

شنت إثيوبيا في عهد الملك (اياسو) حرباً على دولة سنار في عهد حكم (بادي أبو شلوخ) وذلك في عام ١١٤٧هـ - ١٧٣٥م، فقابلها جنود السلطنة الزرقاء وفرسانها في مضائق وغابات كثيفة عندما علموا بخبر الحملة الحبشية؛ حيث لم ينتظروها في سنار؛ بل خرجوا لمقابلة الجيش المعتدي في الأرض التي تناسبهم في مكان يقال له الزكيات شرق الدندر. فتمت هزيمة الجيش الحبشي شر هزيمة ! والذي عاد من حيث أتى مخلفاً وراءه الكثير من القتلى والأسرى والغنائم وتيجان الذهب التي غنمها الجيش السناري.

أيضاً قامت الحبشة بحملة عسكرية أخرى في إبريل ١٧٤٤م في عهد الإمبراطور (اياسو الثاني) إمبراطور الحبشة ضد المملكة السنارية التي كان على رأسها (بادي أبو شلوخ). فقد بدأ الأحباش يقومون بغارات على حدود مملكة سنار؛ حيث كانت نتائجها فرار الأهالي، وغنائم من الماشية والإبل والغنم. ولكن في ٨ مارس ١٧٤٤م سار الإمبراطور اياسو الثاني نفسه على جيش كبير من (قوندر) متجهاً نحو مملكة سنار، وكانت أوامره صارمة وواضحة وهي : حرق القرى وقتل الناس وأخذ جمالهم وماشيتهم. وقد سار جيش اياسو الثاني ثمانية أيام وهو ينفذ هذه الأوامر، وكانت أول مقاومة جادة لهذا الجيش على ضفاف الدندر؛ حيث ثبت العرب المؤيدون لحكومة سنار حتى قطعت مواشيهم النهر؛ ولكن الأحباش تغلبوا عليهم في النهاية، وسار جزء كبير من الجيش

الحبشي في طريقه حتى وصل للنيل الأزرق قبالة سنار بالشرق وبقية الجيش لاتزال شرقي الدندر. وبذلك انقسم الجيش الحبشي إلى قسمين؛ ولكن عندما رأت سنار جيوش الأحباش قبالتها ساد الهرج والمرج فيها ! وكاد الملك يأمر بإخلائها؛ لولا أشار (خميس) - من عائلة دارفور المالكة والملتجئ بسنار - علي الملك بأن يعبر الجيش السناري النيل الأزرق شمالي سنار ويقاتل العدو هناك. وفعلاً نُفذت الخطة، حيث تمكن خميس من حصر جيش الأحباش في مثلث بين النيل الأزرق والدندر ودمّره. وعندما وصل الخبر لبقية الجيش الذي يقوده الإمبراطور روي أنه لا سبيل لإنقاذ جيشهم المحصور ! فقرروا التراجع إلى بلادهم.

والروايات الوطنية تذكر (الأمين) كقائد لجيش الفونج، وبعضها يذكر الشيخ (محمد أبو لكيك) قائد الفرسان. ولكن الخطة التي أنفذت سنار وربما دولة الفونج بأسرها هي التي دبرها (خميس) أمير دارفور الذي كان لاحقاً آنذاك في سنار.

نهاية مملكة سنار

حكم مملكة سنار في سنواتها الأولى التي تجاوزت القرنين من الزمان سلاطين من أبناء الصليب للسلطان عمارة دنقس مؤسس البيت السناري في عاصمته في حوض النيل الأزرق. وبعد حُكم الملك (أونسه) حوالي عام ١٧١٩م انتقل الحكم بعد ذلك إلى بيت (عبد الشمس) الذي كان يحكم في القرنين الرابع عشر والخامس عشر في منطقة (عنسبا) في إرتريا. ويمتُ بصلة الرحم والمصاهرة إلى بيت الفونج. ثم انتزع الهمج - وهم عنصر زنجي موطنه منطقة (الروصيرص) الذين تولوا الوزارة - انتزع الهمج الحكم من هؤلاء السلاطين، حتى قضى عليها محمد علي باشا والي مصر، وهي في حالة من الضعف والانحطاط عند فتحه السودان في عام ١٨٢٠م، بعد أن استمرت لأكثر من ثلاث قرون.

الباب الرابع عشر

إرتريا كنموذج للتواصل

- بحكم موقعها الاستراتيجي بمنطقة القرن الإفريقي والبحر الأحمر، فإن إرتريا كانت في قلب كل الأحداث التي مرت بها هذه المنطقة، كما أنها شاركت في كل حدث وبشكل فاعل حيث أثرت وتأثرت. فالهجرات العربية القديمة منذ عهود سبأ وحمير قد شملتتها .. وعلاقتها الأزلية بمصر في كل العهود تقف شاهداً عليها :
- ميناء عدوليس التاريخي.
 - علاقتها بمملكة أكسوم.
 - دخول المسيحية في وقت مبكر في القرن الرابع الميلادي عن طريقها.
 - حروب أكسوم مع حمير : حيث أن الجيوش التي تحركت في هذه الحرب قد غادرت عن طريق الشواطئ الإرترية وبالذات ميناء عدوليس.
 - علاقتها بأرض الحجاز بالتجارة والمصالح والمصاهرة.
 - وصول المهاجرين الأوائل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى نجاشي الحبشة قبل هجرته إلى المدينة المنورة كان عن طريق إرتريا.
 - علاقة إرتريا بالبجة، وقيام مجموعة ممالك بجاوية في أجزاء من إرتريا، وبالذات في بركة والساحل؛ بل إن (هجر) الموجودة بالساحل كانت عاصمة البجة ومقر ملكها.
 - علاقة إرتريا بممالك الطراز الإسلامي التي انتشرت على طول شواطئ البحر الأحمر الغربية.
 - علاقة إرتريا بثورة الإمام أحمد بن إبراهيم، ومشاركتها فيها، ومملكة سنار في السودان وعلاقتها الوطيدة بأجزاء من إرتريا.
 - مشاركة إرتريا في الثورة المهدية.

إن اشتراك إرتريا في كل هذه الأحداث بحكم موقعها الوسط في المنطقة قد جعلها نموذجاً للتواصل بين جنوب وشمال منطقة القرن الإفريقي، والتواصل بين هذه المنطقة والجزيرة العربية.

تواصل إرتريا مع جزيرة العرب وأجزاء من القرن الإفريقي

تعتبر إرتريا وشعبها نتاج للتزاوجات التاريخية بين مختلف العناصر التي تشكل منها الشعب وهي [الكوشية، الحامية، السامية، الزنجية]. وفي هذه السمة يلتقي بل ويتطابق مع كل أجزاء القرن الإفريقي. وإن الهجرات والهجرات المعاكسة على مدى الأجيال تعتبر حالة لازمت أراضي إرتريا من قبل الموجات البشرية المتدافعة والآتية من مختلف الاتجاهات، وكان الاتجاه الغالب من الشمال؛ حيث موجات قبائل البجة كلما اشتد الضغط عليها ممن حكموا مصر منذ عهد الفراعنة ثم اليونان والرومان وأخيراً العرب، تليها الموجات الآتية من الشرق عبر البحر الأحمر وأكثرها من جنوب الجزيرة العربية.

والأمر الذي يتفق عليه المؤرخون أن قبيلة (أجعازيان) هي أقدم من هاجر إلى الشواطئ الإرترية من القبائل اليمنية. حيث كان موطنهم الأصلي على الساحل بين صنعاء وعدن. ولهم نقوش تذكرهم في اليمن وأكسوم.

وقد حظت هذه القبائل السبئية رحالها فوق هضبة إرتريا وهضبة الحبشة ومعها كنوز لا تُثَمَّن من التراث الأصيل ومعالم حضارة عريقة متمثلة في اللغة المكتوبة والمهارات الزراعية المتقدمة والأساليب المتطورة للتحكم بمياه الأمطار والسيول عن طريق إنشاء المدرجات والمسحات على سفوح الجبال وزراعتها بالمحاصيل والأشجار. كما حملوا معهم فنونهم المعمارية وبراعتهم في النحت على الحجر وبناء السدود الضخمة الثابتة لحجز المياه التي اشتهرت بها مدينة مأرب التاريخية.

وتُعتبر (الجنز) أقدم لغة سامية في شمال شرق إفريقيا، وقد كانت لغة القبائل السبئية التي نزحت إلى هضبة إرتريا وهضبة التجراي من جنوب الجزيرة العربية منذ عهود قديمة. وكان القوم الذين تحدثوا بالجنز يطلق عليهم (أجعازيان).

وقد تأثرت إرتريا منذ القدم بحضارة الجنوب العربي مع تعاقب هجرات القبائل السبئية لها، ودوّنت تراثها الحربي وأدابها باللغات واللهجات الجديدة التي وفدت إليها مع هذه القبائل على البحر الأحمر. وقبل شيوع الحروف السبئية لم تكن للسكان لغة مكتوبة، حيث كانت الجزية أقدم هذه اللغات انتشاراً وأبعدها أثراً في المجتمع الجديد.

إلا أن اللهجات الحامية الكوشية المحلية ما لبثت أن تغلبت عليها؛ فاندثرت بمرور الأيام لتحل محلها لغتان جنوبيتان أخريان اشتقتا منها وهما : التجري والتجريدية.

وباندثار الجزية كلغة للتفاهم والكتابة، انحصر استعمالها في الأمور والطقوس الدينية ومخطوطات الكنيسة؛ مثلما انحصر استعمال اللغة اللاتينية بنطاق الكنيسة في أوروبا اليوم. وكانت الجزية بمثابة اللغة الأم بين لغات ولهجات الجنوب العربي الذي شاع استعمالها في أزمان لاحقة في إرتريا والحبشة. وحقيقة أن اللغة السبئية اندثرت حرفاً ونطقاً في جنوب الجزيرة العربية؛ ولكنها ظلت باقية في إرتريا والحبشة حتى اليوم؛ حيث أن الأمهرية - وهي لغة سامية كوشية وبجانب التجريدية - تُكتب حتى اليوم بالحرف السبئي.

وقد وقف الكاتب على ذلك بنفسه عند زيارة قام بها لليمن؛ حيث زار خلالها مدينة مأرب التاريخية وتجوّل بين أطلال سبأ وعاصمة بلقيس. كما شاهد المتبقي من آثار سد مأرب الذي يُعتبر أحد عجائب الدنيا. وهناك شاهد الحروف السبئية المنقوشة في الصخور وهي نفس الحروف الموجودة والمستعملة في كتابة اللغة الأمهرية والتجريدية اليوم.

ومن هنا يتضح التأثير والتواصل بين إرتريا وجنوب الجزيرة العربية؛ ففي كتاب { خلجان البحر الإرتري } ومؤلفه بحار يوناني كان يسكن الإسكندرية وقام برحلة طويلة حول البحر الأحمر وكتب عن ثغر عدوليس التاريخي وذلك في عام ٦٠ ميلادية، حيث يقول : [ليس لهذه البلاد - يقصد بذلك سواحل البحر الأحمر الإرترية - ليس لها ملك واحد يخضع له الجميع؛ إذ بكل سوق ومدينة على الساحل زعيم، وبعض زعماء هذه السواحل مستقلون، وبعضهم الآخر يدينون بالولاء لدولة (حمير) في اليمن].

وعليه فإن علاقة إرتريا بالجزيرة العربية هي علاقة منذ القدم؛ ولا علاقة بذلك بهجرة الرشايدة؛ وكانوا آخر القبائل العربية التي هاجرت من جزيرة العرب وفي وقت قريب جداً وذلك عام ١٨٦٩م باتجاه إرتريا والسودان.

التأثير الخارجي

كما هو معروف في عالم اليوم من تدخل للقوى العظمى من خارج المنطقة وتأثيرها على المنطقة عسكرياً وسياسياً واقتصادياً؛ فإن ذلك كان موجوداً منذ الأزمان الغابرة. وقد عرفت هذه المنطقة نموذجاً متمثلاً في الفرس والرومان ومحاولة كل منهما الاستئثار والفوز بأكبر نفوذ وأوسع رقعة جغرافية في هذه المنطقة تأميناً لمصالحهما.

أطاح الأكسوميين بالحميريين بالتحالف مع الروم وحملوا اليمن. وبعد أن ضاق الحميريون ذرعاً بالحكم الحبشي القادم من أكسوم عبر الشواطئ الإرترية، أرادوا أن يستعيدوا حريتهم؛ فالتقوا حول كبيرهم (سيف بن ذي يزن) الحميري الذي رأى أن يستنجد بحلفاء حمير الأقدمين وهم الفرس. وقد اتصل سيف بن ذي يزن بكسرى أنو شروان ملك الفرس عام ٥٧٥ ميلادية، حيث وافق كسرى على إرسال جيش للقضاء على النفوذ المسيحي الحبشي في جنوب الجزيرة العربية ولتأمين جبهته الجنوبية ضد نفوذ الروم والسيطرة على الملاحة بالبحر الأحمر. وبذلك يحارب تجارة الروم التي أصبحت متزايدة منذ استيلاء الأحباش على حمير باليمن.

نجح كسرى في التغلب على الأحباش، وصار الملك في حمير لسيف بن ذي يزن؛ إلا أنه وقع فريسة حادث اغتيال ! إذا اغتاله رجل من الأحباش. ومنذ ذلك الحين سقطت مملكة حمير في أيدي الفرس الذين أصبحوا يبعثون إليها الحكام ومن خلالهم يسيطرون على كل الأوضاع. وكان آخر حاكم لحمير (باذان) الذي اعتنق الدين الإسلامي سنة ٦٢٨هـ. وفي ذلك التاريخ عادت اليمن مرة ثانية إلى أيدي العرب. وانتهى عهد النفوذ الخارجي في جنوب الجزيرة العربية. كان لوجود النفوذ الأجنبي في جنوب الجزيرة العربية تأثيره المباشر على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر.

ارتباط إرتريا بالحوار

عُرفت إرتريا أو أجزاء منها لدى المؤرخين العرب كالمقريري وابن حوقل والمسعودي والعمرى .. متداخلة مع غيرها بأسماء عدة مثل (ممالك الطراز الإسلامي) أو ضمن ممالك البجة؛ حيث كان بها خمس من هذه الممالك البجاوية. وخضعت إرتريا بحكم

موقعها الجغرافي وتعدد الهجرات البشرية التي استقرت في مختلف مناطقها لدول مختلفة في وقت واحد، وارتبطت بعض أجزائها بأجزاء أخرى من البلدان المجاورة. ورغم التأثير من قبل الجوار الذي ارتبطت به إرتريا أو التأثير الأجنبي مثل عهد الأتراك؛ إلا أن السلطة الفعلية كانت في أيدي الزعماء الوطنيين الذين اتخذوا لأنفسهم ألقاباً مختلفة مثل : (رأس) أو (دجازماتش) في منطقة الهضبة، ولقب (كنتيبي) في المرتفعات الشمالية، ولقب (دِقل) في المنخفضات الغربية، ولقب (نائب) في مصوع، ولقب (سلطان) في منطقة دنكاليا.

وعن التواصل والارتباط بالجوار؛ فإن منطقة جنوب إرتريا وهي منطقة الهضبة الإرترية كانت تخضع أحياناً لمملكة تجراي الإثيوبية.

تمتلك إرتريا مع أكسوم التاريخية تراثاً مشتركاً يتمثل في التكوين البشري والديني والثقافي واللغوي والحضاري. ولا تزال مدينة أكسوم نفسها قائمة في هضبة التجراي على مقربة من الحدود الإرترية الحالية. أيضاً ارتبطت منطقة بركة في غرب إرتريا والساحل الشمالي منها بممالك البجة ومملكة سنار في السودان. أمّا الشاطئ الإرتري على البحر الأحمر فقد كان يخضع أحياناً لسلطان اليمن أو الحجاز. كما أن ارتباط إرتريا بممالك الطراز الإسلامي فهذه مسألة معروفة؛ حيث كانت أجزاء واسعة في شرق إرتريا - وبالذات دهك ومصوع ودنكاليا وأجزاء واسعة من سمهر - قد ارتبطت بممالك الطراز الإسلامي.

التأثير الديني

إن إرتريا قد أثرت وتأثرت دينياً بالمحيط الذي كانت جزءاً منه، والمتمثل في الجزيرة العربية ومنطقة القرن الإفريقي بشكل عام. فقد كانت الوثنية سائدة في إرتريا، والآثار القديمة في (مطرة) و(قوحيتو) في محافظة أكلي قوزاي تشير إلى عبادة (الإله عشت = إله الزهرة)، وقد اشتقت كلمة عشت بلغة التجري من هذه الكلمة وتعين السماء، كما عبدوا (إله البحر = إله البحر) و(إله مدر = إله الأرض) و(إله عرم = إله الحرب). وكلها آلهة وثنية كانت تُصنع لها التماثيل في جنوب الجزيرة العربية وانتقلت إلى الهضبة الإرترية مع النازحين الساميين. وإن ارتباط إرتريا بممالك البجة هو الدليل؛ حيث أن البجة كانوا وثنيين وظلوا على وثنتهم إلى أن اعتنقوا الإسلام بظهوره.

أيضاً كانت إرتريا هي المدخل للمسيحية في وقت مبكر أي في القرن الرابع الميلادي على يد العربي السوري القديس فرومنتيوس الذي وصل إلى نجاشي أكسوم عبر ميناء عدوليس الإرتري؛ وعليه مبكراً انتشرت المسيحية في الهضبة الإرترية، وتعتبر عريقة حيث لم تصل لإرتريا عبر المبشرين الأوروبيين كما جرى في أجزاء من إفريقيا. وكانت إرتريا هي البوابة التي ولج منها المهاجرون الأوائل من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم هروباً من أذى قريش؛ وذلك بالتجائهم إلى الحبشة. وقد حدث ذلك قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة.

الشواطئ الإترية ودورها الهام

لعبت الشواطئ الإترية على البحر الأحمر دوراً كبيراً في التواصل ونقل الموجات البشرية من الهجرات المتتالية : حيث نقلت الأديان والحضارات والثقافات والمصالح والتجارة بين الشاطئين الشرقي والغربي للبحر الأحمر.

* عدوليس

اشتهرت عدوليس كميناء أسسه الإغريق البطالمة عندما تحركوا من مصر إلى البحر الأحمر، وصار لهم نفوذ سياسي وعسكري وتجاري على جانب البحر الأحمر، وقد تم تأسيس هذا الميناء في منتصف القرن الثالث قبل الميلاد بواسطة بطليموس فيلادلفوس الثالث وهو أحد ملوك البطالمة اليونانيين الذين حكموا مصر بعد أن انقسمت إمبراطورية الإسكندر الأكبر اليوناني إلى ثلاثة أقسام. وأطلال هذا الميناء لازالت قائمة بالقرب من قرية زولا على بُعد ٦٠ كيلومتر جنوب مصوع. ولعل هذه القرية أخذت إسمها من الميناء التاريخي الذي يطلق عليه الأهالي تسمية (عزولي). وقد عُرفت عند العرب في عصر ما قبل الإسلام بإسم (عدولي). كما كانت تطلق لفظ (عدولية) على السفن التي تُصنع بهذا الميناء.

ويبدو أن العرب استعملوا هذا المرسى الطبيعي عدوليس الواقع على خليج زولا بقصد الإتجار مع الشواطئ الإفريقية. ومرت به موجات المهاجرين إلى هضبة إترية والتجاري لتؤسس مملكة أكسوم، كما لا يستبعد الباحثون أن يكون العرب قد سبقوا (بطليموس) في اختيار هذا الميناء واستعماله والاستفادة من موقعه المناسب. وذكر (الطبري) أن (عدولية) كانت متجراً لقريش، وكانت التجارة متمركزة بين مكة وبلاد الأحباش، والذي يؤكد صحة النظرية القائلة بأن العرب كانوا السباقين في اكتشاف هذا المرسى واستعماله والاستفادة منه في نقل التجارة والحضارات وانتقال الهجرات البشرية، وكُشف بواسطة الحفريات التي جرت في وقت قريب حيث وُجد في عدوليس معبداً للاله عشتار وهو أحد آلهة الجنوب العربي أيام حمير.

وقد انتهى دور ميناء عدوليس التاريخي لأكثر من سبب؛ فقد كان السبب الأول عندما تمكن الفرس من مد نفوذهم مرة أخرى إلى اليمن؛ وذلك بعد أن استرد (بنو حمير) الملك على يد (ذي يزن) وطردهوا الأكسوميين، الأمر الذي مكّن الفرس من بسط سيطرتهم على سواحل عدوليس وجزر دهلك؛ فعوّقوا سير التجارة الرومانية.

وبذا تقلصت أعداد السفن المترددة على عدوليس حتى أمست مدينة مهجورة يسودها الكساد ! أمّا السبب الثاني فقد كان اجتياح قبائل البجة الرعوية من شرق السودان ومن الساحل وبركة بعد الفتح الإسلامي وذلك في القرن الثامن الميلادي.

بعد أن فقدت عدوليس مكانتها كمرسى تجاري يعج بحركة السفن، تحولت إلى أوكار للقراصنة ! الأمر الذي حمل الدولة الأموية إلى احتلالها مع بقية المناطق الساحلية المجاورة.

* جزر دهلك

إن جزر دهلك وبحكم قربها من الشواطئ العربية قد لعبت دوراً هاماً كنقطة تجمّع وانطلاق للهجرات العربية القديمة المتجهة صوب اليباسة باتجاه الشاطئ الإرتري، وعن طريقها كان يتم نقل التجارة أو استقبالها؛ وعندما تعرّض ميناء عدوليس للخراب فإن قراصنة البحر ظلوا يمارسون نشاطهم التخريبي من خرائب عدوليس وأرخبيل دهلك حيث جعلوها مأوى لسفنهم !

وعلى إثر تكرار غارات القراصنة على ميناء جدة في عامي ٦٣٠ و ٦٤٠م منطلقين من عدوليس التي تحولت إدارتها إلى مرحلة الذبول نتيجة للصراع الروماني الفارسي الذي أقحم اليمن وأكسوم في حروب طويلة اضطر العرب الأمويين إلى الاستيلاء على جزر دهلك ومصوع وعدوليس في عام ٨٤هـ - ٧٠٢م.

وقد عظم خطر هؤلاء القراصنة عندما انطلقوا من دهلك وشنوا غارة بحرية على جدة في عام ٨٤هـ - ٧٠٢م وهددوا بتدمير مكة المكرمة. فما كان من الخلفاء الأمويين إلا أن اتخذوا خطوة حاسمة لوضع حد لتلك القرصنة؛ بأن جردوا حملة بحرية لاتخاذ مركز بحري على الشاطئ الغربي المقابل للبحر الأحمر المقابل لليمن : فاحتلت الحملة البحرية العربية مجموع جزر دهلك المقابلة لمصوع، كما قاموا بهذا العمل لحماية الحجاج المتجهين نحو الأراضي المقدسة من القرصنة البحرية المنطلقة من البحر الإرتري.

وبعد النزاع الذي حدث بين الأمويين والعلويين في مسألة الخلافة والسلطنة ومعركة كربلاء التي استشهد فيها الإمام الحسين بن علي، قصدت جماعات ومجموعات وأفراد إلى حيث لا تمتد إليها أيدي الخلفاء الأمويين؛ فقصدوا شواطئ إفريقيا الشرقية.

وتحركت جنود الدولة الأموية لمتابعتهم ومراقبتهم بشكل دقيق؛ فاستولت على مجموعة جزر دهلك القريبة من الشواطئ الإرترية واستقرت بها لتتمكن من مراقبتهم بشكل دقيق.

ومن بعد الأمويين تحمّل العباسيين مسؤولية حماية الطرق التجارية في البحر الأحمر، فأقاموا الحصون والقلاع في جزر دهلك وزودوها بالسفن الحربية، بالإضافة لصهاريج المياه لحفظ مياه الأمطار، والتي لاتزال آثارها باقية.

وكان احتلال العرب المسلمين لهذا المركز الممتاز بداية لاستيلائهم على بقية المراكز البحرية على الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر، وعلى الانتشار التدريجي للإسلام في شرق إفريقيا.

ارتبطت دهلك وتوابعها منذ التاريخ القديم بالإمبراطورية العربية، وقد أتى ذكرها للمرة الأولى كمنفى، وهذا ما كُتب لها أن تكون غالباً فيما بعد سواء في صدر الإسلام أو في العهدين الأموي والعباسي، وكان العرب يتخذون من دهلك في عهد أمير المؤمنين عمر

بن الخطاب منفي للمغضوب عليهم لبُعدها وشدة حرّها كنوع من العقاب، وهؤلاء المغضوب عليهم كانوا من الشعراء والسياسيين والفلاسفة.

بأمر من الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك نفى (عامل المدينة) أبوبكر بن محمد بن عمر بن حزم مجيد الشاعر (الأحوص) عقاباً له على تشبيهه بالنساء الشريفات، ثم نفاه بعد ذلك إلى دهلك.

كما نفى إليها يزيد بن عبد الملك في عام ٧٢١م أحد فقهاء الدين وإسمه (عراق بن مالك)، الأمر الذي جعل الناس يرددون أن سكان دهلك تمكنوا أن يحفظوا الشعر مع الأحوص والشريعة مع عراق.

كما أن الخليفة المنصور (١٣٦ - ١٥٨ م) كان قد نفى إلى دهلك أبناء عبد الجبار والي خراسان بعد أن مثّل بأبيهم وأعدمه.

وعن أبي سعيد الذي استشهد بإبن خلدون ونقل عنه، أن سلطان اليمن (أبو الحبش بن زياد) كان يملك من جملة ما يملك من عائدات كبيرة تلك التي كانت تدرّها مغاصات اللؤلؤ، وجزيرة دهلك التي كانت تدفع له خراجاً، ولابد أنه كان يعني بسلطان اليمن : أمير زبيد. فإن أحد عبید مرجان الذي أصبح وصياً على (عبد الله بن الحسن، آخر أمراء سلالة بني زياد التي كانت تتقلد الملك في زبيد باليمن) قد أعتق نفسه بعد موت هذا الملك سنة ٤٠٧ هـ - ١٠١٦ م، واستولى على زبيد سنة ٤١٢ هـ - ١٠٢١ م، وثبّت الخلفاء العباسيين استيلائه على العرش، واتخذ لنفسه لقب المؤيد ولقب ناصر الدين، وبعد مماته سنة ٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م نتيجة السم الذي دسّته له إحدى النسوة؛ فإن أبناءه سعيد وحبياش وزاهر منصور الذين طردهم (علي بن صبيح) من زبيد لجأوا إلى دهلك، بينما انتحر أكبرهم سناً وهو مارق.

وأرخبيل جزر دهلك والتي يزيد عددها عن المائة جزيرة، قد اتّخذت منفي لبُعدها ولشدة حرّها، فعندما كان يتقلد الملك في دهلك (مالك بن شداد) فقد اشتكى منه الشاعر (أبو الفتح نصر الله عبد الله مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس اللخمي الأزهري الإسكندري) في قصيدة يصف فيها دهلك بما ينفر عنها ويبعث الخوف في قلب كل من يتم نفيه إليها، ويقول في قصيدته :

وأقبح بدهلك من بلدة فكل امرئ حلها هالك
كفاك دليلاً إذن أنها جحيم وخازنها مالك

ويقصد بـ مالك في آخر المقطع : الملك (مالك بن شداد) حاكم دهلك، كما قال عنها شاعر آخر لمحبوبته التي تقطن بعيداً عنه :

ولو سكنت خلف الثريا لزررتها ولو كانت بدهلك دورها

يقول (جثمان جسلو) في كتابه { غرائب إثيوبيا } : [إن مصوع والموانئ القليلة على البحر الأحمر أصبحت إسلامية في وقت مبكر، فبعد تدمير عدوليس ازدهرت حضارة إسلامية في جزيرة دهلك بالقرب من مصوع في مستهل القرن الثامن].

ما قاله (جثمان جسلو) هو عين الحقيقة؛ فبعد أن تم تأمين الطرق التجارية وتطهيرها من القراصنة بواسطة الأمويين الذين أقاموا القلاع والحصون وأمنوا طرق التجارة؛ فقد ازدهرت جزر دهلك وتشجع العرب على استيطانها وتعميرها، وأصبحت هذه المنطقة بحكم موقعها على الساحل المقابل بجنوب الجزيرة العربية المجال الحيوي للجماعات التي خرجت من الجزيرة العربية للتجارة وطلب الرزق أو لاتخاذ مواطن جديدة هرباً من حالات الذعر التي سادت الجزيرة العربية والعالم الإسلامي بسبب حروب الردة ثم حروب الأمويين والعباسيين وحروب العباسيين مع الأمويين. وهؤلاء المهاجرين لتلك الجزر نقلوا إليها الحضارة والعلم، وأصبحت دهلك مركز إشعاع لتعليم فقه الدين واللغة، ووفد إليها الطلاب من مختلف أنحاء منطقة شمال شرق إفريقيا.

وقد نشأ في نفوس السلاطين وأصحاب الجاه بحكم توافد الشعراء والعلماء العرب إلى دهلك اهتمام بالعمارة للمساكن والقصور، كما بدأوا يزينون الأضرحة ومنابر المساجد ومداخل القصور بالنقوش الكتابية بالخط الكوفي الجميل، من هذه النقوش الكتابية هناك ثلاثة منها تم نقلها إلى باريس، وتوجد الآن بمتحف (بار له دوق) بباريس، وهي منقوشة في صخر أسود صلب للغاية، بارتفاع ٢٨ سنتيمتراً وعرض ٢١ سنتيمتراً وارتفاع السطر نحو ٣ سنتيمترات. وسنورد نص اثنين من هذه النقوش. وهذا نص النقش الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن المتقين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ﴾ صدق الله العظيم.

[هذا قبر العبد الفقير إلى الله تعالى السلطان أحمد بن إسماعيل المجاهد المرابط لسلطان الإسلام بثغر دهلك المحروس، انتقل إلى رحمة الله تعالى ليلة الجمعة سادس عشر شوال سنة ست وأربعين وتسع مائة من الهجرة النبوية، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم].

نص النقش الثاني :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إن المتقين في جنات وعيون ادخلوها بسلام آمنين ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين نبئ عبادي اني أنا الغفور الرحيم ﴾ صدق الله العظيم.

هذا هو ضريح الفقير إلى الله تبارك وتعالى نصر بن عبد الله الذي أعتقه أبو الربيع ابن علي الكاتب ليلة السبت / الأحد التاسع من شهر محرم سنة خمسمائة وأربع يرحمه الله.

إن الوجود والحضارة العربية بالمنطقة تؤكد هذه الحملة البرتغالية التي نزلت لأول مرة بجزر دهلك أوائل القرن السادس عشر؛ حيث كان السلطان (أحمد بن إسماعيل) سلطاناً على دهلك ومصوع وملحقاتها وذلك في عام ١٥٢٠م؛ فقد أحضرت هذه الحملة معها عدداً من المترجمين الذين يجيدون اللغة العربية إجادة تامة من المغرب العربي ليتولوا الترجمة بينها وبين الأهالي.

* مصوع

لاشك أن مصوع تُعتبر من أقدم موانئ البحر الأحمر، حيث كانت معروفة منذ عهد البطالمة الذين نُسب إليهم ميناء عدوليس أو عدولية كما كان يسميه العرب؛ إلا أن التاريخ لازال صامتاً عن الفترة التي سبقت ذلك العهد، فلا يُعلم متى بنيت مصوع على وجه الدقة ومن الذي بناها؛ ولكن من الثابت أنها اكتسبت أهميتها بعد اندثار عدوليس وأقول نجمها كميناء ومركز تجاري هام. وفي هذا لا تختلف مصوع عن جزر دهلك، وكان للعرب صلات متينة ونفوذ قوي في مصوع والمراكز التجارية الأخرى على امتداد الساحل قبل ظهور الإسلام، ثم قوي هذا النفوذ في صدر الإسلام على إثر قيام الإمارات والسلطنات الإسلامية من بلاد الساحل حتى خليج عدن والمحيط الهندي؛ فامتد إليها نفوذ الأمويين عبر احتلالهم لأرخبيل دهلك، ثم جاء من بعدهم العباسيون وأعلنوا سيادتهم عليها. فازدهرت بها وبالمناطق المجاورة لها حضارة إسلامية. وقامت بها سلطنة عُرفت بولائها للخلفاء العباسيين في بغداد. وفي فترة أخرى أصبحت ولاية تابعة لمكة المكرمة. ثم في مرحلة أخرى أصبحت ولاية تابعة لجدة.

وذكر أن نفرأ من الشعراء وفلاسفة تلك الحقبة وجدوا في هذه البقعة النائية الآمنة ملجأ وملاداً لهم؛ كما احتفى بها بعض الأمويين هرباً من مطاردة العباسيين لهم. وتأكيداً لعلاقة مصوع بالجزيرة العربية نذكر هنا ما قاله الطبري أن الصحابي (أبي محجن الثقفي) قد غرَّب إلى ميناء مصوع الواقع بالقرب من عقيق سنة ١٦ هجرية، كما نفى الخليفة الأول أبو بكر الصديق جماعة من الأعراب إلى منطقة عيذاب.

أما عن استقلالية مصوع في ذلك العهد، يتضح من أن الرحالة البريطاني (جيمس بروس) حين عزم على القيام برحلته الاستكشافية إلى الحبشة والمحفوظة بالمخاطر، كان قد عرَّج على القاهرة والإسكندرية وجدة للحصول على رسائل توصية إلى ذوي الشأن في المدن والبلاد التي سيمر بها في طريقه إلى هدفه المنشود. فمن جملة ما حمل من التوصيات : رسائل إلى النائب (عمر آغا) في مصوع من علي بيك كبير المماليك بمصر ومن شريف مكة ومن وزيره (مثقال آغا)، وأهم من الرسائل فإن جيمس بروس كان قد حمل فرماناً من السلطان العثماني بشأن تسهيل مهمة الرحالة في كافة البلاد التي يرفرف عليها العلم التركي. ومرَّ جيمس بروس بميناء مصوع في ١٩/٩/١٧٦٩م حيث سلَّم كل هذه الرسائل والتوصيات للنائب عمر آغا حاكم مصوع. ولم يكن بإمكانه مغادرة مصوع إلى أي جهة إلا بعد فترة طويلة أبقاه فيها النائب رغم ما كان يحمله من توصيات. وأخيراً أذن برحيله ومواصلة سفره إلى الحبشة بعد أن أبقاه فترة طويلة تحت المراقبة الدقيقة والمتابعة اليومية. ونتيجة لذلك فإن جيمس بروس وبعد انتهاء جولته

الاستكشافية في الحبشة ثم السودان وعودته إلى بريطانيا قام بنشر مذكراته في كتاب حيث صبَّ على النائب الكثير من العبارات النابية التي عكست نفسيته المتعالية ! حيث لم يتحمل أن يتلقى تعليمات من أحد السلاطين في هذه البقعة النائية وهو الذي ينتمي إلى الإمبراطورية البريطانية.

اشتركت مصوع في كل الأحداث التي مرت بالمنطقة؛ حيث كانت امتداداً لممالك البجة ثم جزء من سلطنات الطراز الإسلامي، وأخيراً السلطنة الزرقاء في سنار.

وقد تعرضت مصوع على وجه الخصوص والسواحل الإرتيرية إلى غارة من ملك الأمهرا في الحبشة؛ ففي عام ١٤٢٠م أغارت جحافل الملك (إسحق ابن داوود) ملك الأمهرا على السواحل الإرتيرية؛ حيث دمرت قرى (حريققو) و(زولا) وباضع (مصوع) ونهبت المتاجر والأغنام والماشية. وانتقل عدد كبير من السكان إلى الجزر المجاورة للشاطئ كجزر (شيخ سعيد) و(نوره)، وانتقل البعض الآخر إلى جزر دهلك التي كانت مقراً للأمير الحاكم. وتراجع الجيش الأمهري تحت وطأة الحرارة الشديدة التي أفتت الكثير من جنده ! وتحت ضربات القبائل التي جمعت صفوفها لمواجهة الغزاة. وإن هجوم ملك الحبشة على الشواطئ الإرتيرية كان جزءاً من الحروب الحبشية الطويلة ضد السلطنات والإمارات الإسلامية على سواحل البحر الأحمر، تلك الحروب المنهكة التي بدأها الإمبراطور (يكونو أملاك) مؤسس المملكة السليمانية في الحبشة وذلك في ١٢٧٠م.

المساجد العريقة في إرتريا

لقد أسلفنا القول بأن علاقة هذه المنطقة بالجزيرة العربية قد انعكست على سفر الطلاب إلى مراكز المعرفة الكبرى مثل : [المدينة المنورة - الأزهر الشريف بمصر - الجامع الأموي بدمشق - زبيد بأرض اليمن]. وبالتالي ساعدوا في التقدم السريع للعلوم الإسلامية في إثيوبيا والصومال وإرتريا والسودان. ففي إرتريا ساعد ذلك في انتشار الإسلام وإقامة المساجد العريقة مبكراً. وسنشير بإيجاز إلى بعض هذه المساجد :

مساجد أسمرة

يوجد في أسمرة مسجد (الخلفاء الراشدين) الذي يُعتبر من أقدم المساجد الإسلامية؛ إذ بُني في القرن الهجري الأول، وجُدد بناءه في عام ١٩٠٠م، ثم بُني في شكله الحالي عام ١٩٣٧م، وفي ظرف الاستعمار الإيطالي وُسِّع هذا المسجد بحيث يسع في داخله الألفين من المصلين؛ بينما يتسع ميدانه لثلاثين ألفاً من المصلين. وذلك فإنه يُتخذ لصلاة العيد والمولد النبوي والاحتفالات.

كما توجد في أسمرة مساجد فخمة أخرى مثل : مسجد (خالد بن الوليد) و مسجد (عبد القادر الجيلاني) مسجد (عمر بن الخطاب) مسجد (عمر بن عبد العزيز) وكذلك مسجد (عبد الرحيم حسين). ومعظم هذه المساجد عامرة بحلقات تعليم القرآن والفقه وتعليم اللغة العربية؛ بل إن مسجد أسمرة الكبير ملحق به معهد مختلط عريق يسع

ستمائة طالب وطالبة، ويضم مكتبة إسلامية تحتوي على اثني عشر ألف مجلد. وقد ظل هذا المعهد يستقبل عونا سنوياً من الأزهر الشريف بمصر في شكل عشرة معلمين يعملون في تدريس الطلاب مع رصفائهم الإرتريين، ويشمل المنهج : تدريس القرآن والحديث والفقه واللغة العربية ومبادئ العلوم والرياضيات والزراعة؛ بالإضافة للغة الإنجليزية. وكانت الطاقة الاستيعابية للمعهد تفوق ألف دارس بنظام الدوريتين. إلا أن أحوال هذا المعهد تدهورت في النصف الثاني من السبعينات بسبب الاحتلال الإثيوبي لإرتريا؛ والذي حارب التعليم بشكل عام واللغتين الوطنيتين العربية والتجريدية على وجه الخصوص مع محاولته الفاشلة في فرض اللغة الأمهرية كلغة تعليم معاملة في إرتريا.

مساجد مصوع وغيرها

ينافس مسجد أسمره القديم : مسجد (الشافعي) في مصوع، حيث يزيد عمره عن عشرة قرون، إذ بُني في القرن الثالث الهجري، وجُدد بناؤه أيام الاستعمار الإيطالي لإرتريا، وتوجد المساجد العريقة كذلك في كل : كرن وإمبيرمي وحرقيقو.

الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام

انتشر الإسلام في إرتريا عن طريق الهجرات والمصاهرة والتجارة، ويشير المؤرخ الإيطالي (كونت روسيني) إلى قيام ولايات إسلامية عربية مزدهرة في دهلوك والشواطئ الإرترية في القرن الثامن الميلادي، كما يشير صاحب { أطلس التاريخ الإسلامي } إلى هذه الحقيقة. ويُعتقد أن قبائل الدناكل في جنوب إرتريا والسمهر في ضواحي مصوع تعد من أقدم سكان إرتريا اعتناقاً للإسلام. وهناك عامل آخر لنشر الإسلام في كل منطقة القرن الإفريقي؛ فقد ساهمت الطرق الصوفية والأسر الدينية بدور كبير في نشر الإسلام في هذه المنطقة، والذي يؤكد هذه الحقيقة هو : وجود الكثير من الطرق الصوفية التي تتمتع بالمريدين والأتباع في كل من [السودان - إرتريا - الحبشة - الصومال]؛ بل إننا نجد في الصومال مثلاً بأن ٩٩% من شعب الصومال ينتمون إلى طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني.

ودور الطرق الصوفية والأسر الدينية في نشر الإسلام بإرتريا يُعتبر نموذجاً لنشاطها في المنطقة بكاملها؛ فقد انتشر الإسلام بين قبائل الساهو التي تسكن في المنطقة الممتدة من خليج زولا إلى مرتفعات أكلي قوزاي في القرن الرابع عشر الميلادي عن طريق أسر دينية عربية وأشهرها : أسرة (بيت شيخ محمود) التي تسكن زولا، أمّا قبائل الساحل والبنّي عامر فقد انتشر الإسلام بينها ابتداءً من القرن العاشر الميلادي، وكان لعائلة (عد شيخ حامد ود نافعوتاي) تأثيراً كبيراً في نشر الإسلام بين قبائل الحباب والبنّي عامر، وقد قدمت أسرة عد شيخ حامد ود نافعوتاي إلى إرتريا عن طريق السودان. وهناك الطريقة الختمية أو الميرغنية، وأصلها جاء عن طريق الشيخ أحمد بن إدريس الفاسي الذي كان معلماً دينياً في مكة المكرمة ١٧٩٧ - ١٨٣٣م، وقبل وفاته ١٨١٧م أوفد تلميذه الشهير السيد محمد عثمان الميرغني مؤسس الطريقة الختمية، وبصحبة محمد علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية، أوفدهما إلى إفريقيا لنشر تعاليم الدين

الإسلامي. وقد افترقا بعد وصولهما لمصر. فتوجه الأول إلى الجنوب صوب السودان، بينما توجه الثاني إلى شمال إفريقيا وأسس طريقة هناك.

توجه محمد عثمان الميرغني جنوباً، وقد نجحت رحلته في أسوان نجاحاً منقطع النظير حتى دنقلا، ثم امتدت دعوته بعد ذلك حول سنار بعد أن استقر بها. وتجاوز نشاطه الأراضي السودانية باتجاه إرتريا التي ترك فيها تأثيراً كبيراً. وقد أعلن محمد عثمان الميرغني أن طريقته تشتمل على مضمون الطرق الصوفية الأخرى وتكملها، ومن ثم أطلق عليها اسم (خاتم الطرق). ورئاسة الطريقة وراثية في الأبناء المباشرين لمؤسسيها. وبعد أن نشر الميرغني الإسلام والطريقة الختمية فقد عاد إلى مكة مخلفاً عدداً من الأبناء حيث واصلوا بعده نشر جهوده.

هناك أيضاً الطريقة الشاذلية بشرق السودان والتي انتشرت عن طريق اليمن ومصوع وسواكن، ومؤسسها هو ولي الله أبو الحسن الشاذلي الذي ينتمي نسبه للحسن بن علي بن أبي طالب. وقد قدم من المغرب إلى مصر حيث نال مكانة مرموقة لدى السلطان محمد بن قلاوون المصري، وهو مدفون في (حميثرا) بالقرب من ميناء عيذاب التاريخي على البحر الأحمر، كما كان يؤدي فريضة الحج عن طريق عيذاب ومنه إلى جدة ثم الحرمين الشريفين.

إن السيد محمد عثمان الميرغني نجح في دعوته في إرتريا؛ فمن المعروف إنه كان بإرتريا المسلمون والمسيحيون قبل مجيء محمد عثمان الميرغني؛ ولكن كان هناك أيضاً قبائل وثنية مثل الباريا والبالا. وقد اعتنق الباريا والبالا الإسلام على يد الميرغني بعد منتصف القرن التاسع عشر.

أيضاً نشر محمد عثمان الميرغني الإسلام بين قبائل البلين والبيتجوك والمنسع وبعض قبائل الحباب في الساحل وبالذات الفروع الثلاثة [بيت أسقدي - عد تكليس - عد تماريام]؛ حيث كانت تعتنق المسيحية قبل مجيء محمد عثمان الميرغني ونشاط الشيخ حامد ود نافعوتاي.

ولذا نشاهد بأن أتباع الطريقة الختمية كثيرون في إرتريا، كما أن آداب الصوفية من المدائح في ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وخلفائه ومناقبهم التي تقام لها حلقات الذكر وبالذات ليلة الجمعة والإثنين فهي من الظواهر المألوفة في إرتريا. وعموماً فقد ظلت حركة الثقافة العربية الإسلامية تنمو في إرتريا في كنف الطرق الصوفية كالختمية ثم الشاذلية والسمانية والأحمدية والقادرية، وما تقوم به هذه الطرق من بناء المساجد والخلوي فهو كثير.

أهم الأسر الدينية التي أقامت الزوايا لتعليم القرآن والدين في بقاع إرتريا وأشهرها

﴿ عد شيخ (حامد ود نافعوتاي) بالساحل : لها زوايا لتعليم الدين في (زقا شيخ) في محافظة الساحل، كما أن لها مركزاً آخر في (إمبيرمي) على بُعد أميال قليلة شمال مصوع. وتعمُر قرية إمبيرمي بأضرحة الأولياء والصالحين من هذه الأسر الدينية.

﴿ بيت شيخ محمود : ومركزها زولا، حيث تقيم الخلاوي القرآنية.

﴿ عد سيدنا مصطفى : في بركة.

﴿ عد درقي وعد معلم : في شمال إرتريا وغربها.

﴿ بيت الشيخ إبراهيم الخليل : في (طيعو) بدنكاليا.

﴿ عد كبير في الهضبة الإرترية : وكانت بالأصل تقيم في جزر دهلك.

كل تلك وغيرها بيوتات دينية ساهمت في نشر الإسلام في إرتريا، حيث كانت ولا تزال تتوارث تدريس وتحفيظ القرآن الكريم، كما تنتسب كلها بصلة الرحم إلى الجزيرة العربية. وبين حين وآخر كان يبرز من بينها ومن عامة المسلمين فقهاء ينبغون في العلم واللغة العربية ويواصلون طريقهم للاستزادة من العلم في زبيد باليمن أو المدينة المنورة أو الأزهر الشريف بمصر.

انتساب القبائل الإرترية إلى الأصول العربية

انصهر العنصر العربي المهاجر وسط السكان من البجة وغيرهم بفعل التزاوجات التاريخية المستمرة؛ ولكنه خلف ظاهرة لاتزال باقية؛ فعلى رغم احتفاظ القبائل الإرترية بلغتها السامية والحامية والكوشية القديمة [تجري - حدارب - سيهاوية - عفرية وغيرها ..] إلا أنها ظلت تتمسك بانتسابها إلى أصول أولئك العرب النازحين.

وفي هذا نعود لمقولة جرجي زيدان حيث يقول : [إن أشعار العرب وأقوالهم وأمثالهم وأخبارهم شاهدة بمحافظتهم على النسب وعنايتهم بالرجوع إلى أجدادهم من قحطان أو عدنان]، هذه الظاهرة واضحة جداً وسط كل القبائل في منطقة القرن الإفريقي، والذين يهتمون بالأنساب وذكر الجدود وأصولهم وجذورهم، والمحافظة على العلائق والروابط القبلية، والتمسك بقيم القبيلة والغيرة عليها، وعدم السماح بالمساس بها من أقرب الأقربين إليها والدفاع عنها. وكمثال لانتساب القبائل الإرترية إلى الأصول العربية نورد الآتي :-

- سكان الهضبة الإرترية : ينتسبون إلى اليمن كما ينتسبون إلى البجة.

- بيت شيخ محمود : ينتسبون إلى الزبير بن العوام.

- عد شيخ حامد ود نافعوتاي : ينتسبون إلى أشراف قریش.

- قبائل **البنى عامر والبلو** : تنتسب إلى بني العباس.
- قبائل **الحباب المتعددة** : تنتسب إلى بطون مختلفة من قريش.
- **الأساورتا** : ينتسبون إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
- **المنيفري** : ينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه.
- **الماريا وسعد قلي** في المرتفعات الإرترية و**قبيلة طروعه وحذو ومنسح** : ينتسبون إلى الأمويين.
- **الجبرته** : ينتسبون إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، كما ينتسبون إلى قريش.
- **العفر** : ينتسبون إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم.

القبائل السالفة الذكر لا تمثل كل القبائل الإرترية؛ حيث إننا لم نتطرق لكل القبائل الإرترية وبتونها وفروعها بالتفصيل وما تذكره عن جذورها وأصولها ونسبها العربي. ولها العذر؛ لأن هذا يحتاج إلى بحث مستقل، فما ذكرناه هو كنموذج وليس للتفصيل. ومهما يقال في صحة ودقة هذه الأنساب؛ إلا أنها تؤكد الترابط والتواصل بالجزيرة العربية، كما تؤكد الهجرات العربية الواسعة التي أشرنا إليها في أكثر من موضع وإلى أسبابها والتزاوجات التاريخية التي تمت عبر الأجيال المتعاقبة.

موروثات عربية أصيلة

كلنا يعلم الدور الخطير الذي كان يلعبه الشعر والشعراء في جزيرة العرب، والمكانة المرموقة التي كان يحظى بها الشاعر وسط قومه وما يجده من تكريم، وكيف كانت القبيلة تبتهج وتحفل وتتفاخر عندما ينبع من بينها شاعر، وكيف أن بيتاً من الشعر كان يرفع من شأن القبيلة وبيتاً آخر يحط من قدرها ويجعلها تتوارى خجلاً! وكما هو معروف فإن الشعر يقال في كل المناسبات؛ فالنسيب والتشبيب والتغزل : هذه الثلاثة هي ذكر النساء والشوق إليهن ووصف أحوالهن وما يتصل بهن، كما قيل الشعر في وصف الديار والبكاء على الأطلال والأشجان والأشواق والحكمة. وقيل أيضاً في الحماسة والهجاء والفخر؛ وقد كان ذلك في الجاهلية والإسلام. ولذا فإن الرسول صلى الله عليه وسلم رأى أن الإسلام في حاجة إلى من يذود عنه عند خصومه بالسيف والكلمة؛ فأقام جماعة من الشعراء للدفاع عنه ونشر دعوته، والرد على المشركين وهجاء المعتدين، وفي مقدمة هؤلاء كان : حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله ابن رواحه. وفي إرتريا مثلاً نجد أن لغة التجري - المشتقة عن الجنزيرة - مليئة وغنية بهذه الفنون من الشعر.

وهناك الحروب التي تندلع بين القبائل في الجزيرة العربية مثل ما كان بين القحطانيين والعذنانيين، وبين قبائل ربيعة وحروب الأوس والخزرج : وهما أبناء عمومة، والتي كانت من أشد حروب الجاهلية التي ظلت مشتعلة ولم تتوقف إلا بعد ظهور الإسلام؛ حيث كان الإسلام سبباً في إيقافها نهائياً.

وكما أن النظام القبلي في الجزيرة العربية يعكس نفسه تماماً في القرن الإفريقي بكل موروثاته وقيمه وتقاليده : الإيجابي منها والسلبي؛ فإن هذه الظاهرة من حروب وصراع القبائل نجدها تماماً في كل أجزاء القرن الإفريقي.

وظاهرة الحروب وصراع القبائل نجدها في كل أجزاء إرتريا بين القبائل حتى بين بنو العمومة أو القبائل ذات النسب الواحد القريب؛ ومثال ذلك : القتال الذي كان بين الحباب وعد تكليس في شنقيرا، وبين الحباب وعد عمر النابتاب، وبين عد إبراهيم وعد عمر النابتاب، ثم الحروب بين الحباب أنفسهم في تقب، وبين الجميلاب وبني عامر في عدوبنا، وبين الهدندوة والبشاريين، وبين الفضلاب والحامداب الهدندوة، وبين بيت معلا والحماسين، وبين الأشراف والكميلاب، وبين عد تماريام والمنسع، وبين عد هاسري وبيت معلا.

وهناك حرب الحباب والرشايدة؛ حيث أن كنتيباي حامد بيك حسن ناظر عموم قبائل الحباب طلب من محمد علاء الدين باشا حاكم سواكن كي يأمر بترحيل الرشايدة إلى سواكن وحلايب لأنهم قتلوا جماعة من الحباب؛ فطاردهم الجيش حتى وصلوا حدود مصر؛ فسافر عميد القبيلة الشيخ مرشود إلى مصر شاكياً من أعمال محمد علاء الدين باشا ومن الحباب الذين قتلوا من قبيلته نيافاً وسبعين رجلاً في جهات قرورة وعيتربه في عدة غزوات كان يشنها عليهم رجال الحباب. والحروب بين القبائل في شتى أنحاء إرتريا لا حصر لها، والفلكلور والأقاصيص الشعبية والقصائد الشعرية باللهجات المحلية تحكي عن هذه الحروب الكثيرة بحيث ينفع ذلك أي باحث للعودة إليه في بحثه عن هذا الموضوع.

بالنسبة للمورثات العربية فهناك الأسماء : فإسم الرسول صلى الله عليه وسلم، وإسم الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم، والصحابة وآدم. هي أسماء شائعة في كل أجزاء إرتريا، أيضاً هناك كل أسماء الله الحسنى مقرونة بالعبودية لله مثل : [عبد الرحيم وعبد الرحمن .. إلخ]. فهي منتشرة في إرتريا. وهناك أسماء عربية قديمة لاتزال موجودة في إرتريا كما هي مثل : [عامر - عمار - جميل - فضل - عجيل - حميد - نور الدين - نصر الدين - ضرار]. أما الأسماء المؤنثة فكل من : [أروه - زهرة - فاطمة - خديجة - حواء - حليلة - أمنة - سعدة - زينب - بتول - بلقيس - كلثوم وغيرها ..] فهي الأسماء الأكثر شيوعاً في إرتريا وسط المسلمين.

التأثير اللغوي

من خلال قراءتنا للأدب العربي الكلاسيكي شعراً ونثراً وبالذات كتاب { الأغاني } لأبي فرج الأصفهاني، وكتاب { الحيوان } للجاحظ، وبحكم إلمام الكاتب ومعرفته بلغة التجري؛ لاحظنا الكثير من الكلمات الواردة بهذه الكتب والتي تتطابق نطقاً ومعنى بالكلمات الشبيهة لها بلغة التجري، كما لاحظنا أن الكثير من المفردات مذكورة في القرآن الكريم ومستعملة بنفس معناها في لغة التجري؛ مما جعل الكاتب يهتم بهذا الجانب. والأمر ليس غريباً إذا علمنا بأن التجري والتجريدية مشتقتان من الجزئية. فنستطيع القول بأن

المفردات العربية بالتجري والتجريدية تتجاوز السبعين بالمائة منهما، أيضاً بالنسبة للهجات الإترية الأخرى فيها الكثير من المفردات العربية؛ ولكنها لا ترقى إلى التجري والتجريدية. ونأخذ مثلاً التجري : حيث أن الشهور العربية تُنطق كما هي دون تحريف إذا استثنينا شهراً واحداً وهو شعبان الذي يطلقون عليه (مداجن)، كما أن أيام الأسبوع تُنطق متطابقة بالعربي ماعدا يوم الأحد الذي يطلق عليه (سنات عباي = السبت الكبير) أما الصلوات الخمس فينطقونها كما هي.

ونورد هنا بعضاً من الكلمات العربية المتطابقة مع التجري على سبيل المثال :-

الكلمة بالعربية	المقابلة لها بالتجري
أثر	أثر
حاجب	حاجب
أنف	أنف
أذن	أذن
عين	عن
يد	إدي
ثدي	أطباي
أسنان	أنياب
حوار	حوار (ابن الناقة الصغير)
مقرب	مقرب (الحمل قريبة الولادة)
كور	كور (سرج الجمل)
زبدة	زبدت
كلبة	كلبت
عام	عامت
حفرة	حفرت
ركوة	ركوت

تفاعل إرتريا مع محيطها يتمثل في موقفها من الثورة المهدية

كانت إرتريا جزءاً لا يتجزأ من كل الأحداث التي مرت بالمنطقة؛ ولكن مرت بمنطقة القرن الإفريقي حادثة لا يمكن تجاوزها ألا وهي : الثورة المهدية في السودان، التي تُعتبر من أهم وأكبر أحداث القرن التاسع عشر بإفريقيا عامة وبمنطقة القرن الإفريقي على وجه الخصوص. فقد تمكنت ثورة الإمام محمد أحمد المهدي من أن تهزم جيشاً يقوده الأوروبيون ويمتلك أحدث الأسلحة بمعايير ذلك الزمان، وأن تقيم حكماً وطنياً وتعلن قيام الدولة السودانية المستقلة؛ الأمر الذي لم يسبق له مثيل في القارة الإفريقية بكاملها منذ حلول الاستعمار الأوربي .. فأين كانت إرتريا من هذا الحدث ؟ وماذا كان دورها ؟

إن الصلة والتواصل بين أجزاء واسعة من إرتريا والسودان كان قائماً في كل العهود؛ ولذا حين اندلعت الثورة المهدية في السودان كان أمراً طبيعياً أن يتم التفاعل معها من قبل إرتريا.

فالأمير عثمان دقنة - أمير الشرق والذي يُعتبر أبرز القادة العسكريين في الثورة المهدية - أسند إمارة البحر الأحمر من عقيق في السودان وحتى مصوع في إرتريا إلى القاضي الشيخ عبد القادر حسين قاضي مدينة سواكن بعد تركه لسواكن وانضمامه إلى جيش الأمير عثمان دقنة. وكان للشيخ عبد القادر حسين معرفة وصداقة مع شيوخ وأعيان تلك المنطقة؛ كما كان يجيد لغة أهلها. ودارت معركة بين جيشه الذي التحق به كثيرون من أبناء إرتريا وجيش (الرأس لولا)، والذي كان القائد العسكري لجيش الإمبراطور يوهانس إمبراطور إثيوبيا، وكان يقوم بغزوات ضد الإرتريين. وقد دارت المعركة بين جيش القاضي عبد القادر حسين وجيش الرأس لولا في وادي (شعب)، كما دارت معركة في وادي (أدرهما) حيث تقهقر على إثرها جيش الرأس لولا إلى جبال (قلب)، كما أن الأمير الخضر بن علي الحستابي انضم إلى الثورة المهدية وأرسل في طلب النجادات من القبائل القريبة من طوكر. فلبّت ندائه قبائل الحباب والنايتاب والعجياب وآل الشيخ حامد وبيت معلا وغيرهم، كما لبى ندائه الكثيرون من أهل إرتريا؛ مما مكّنه من حصار طوكر التي كانت تعج بالجيوش من البريطانيين. وسقطت المدينة بيدهم في فبراير ١٨٨٤م، وقد سجل العديد من الشعراء الحباب هذه الملاحم البطولية بلغة التجري. كما أن الشيخ إبراهيم درماس الذي كان في زمانه ناظراً لعموم قبائل البلين قد قاتل إلى جانب الثورة المهدية. وقد أطلق تسمية (عثمان دقنة) على أحد أبنائه وذلك تأييداً للثورة المهدية، وإن سيفه موجود حالياً في متحف بيت الخليفة بأم درمان.

وقد أشرنا من قبل إلى (النور فقرا) الجبرتي الذي هاجر إلى المهدي في كردفان، فبايعه وعاد منه أميراً، فجمع جيشاً كبيراً من الضبانية ونزل بهم على (قدي) في حلالات التكارنة باتجاه القلابات. ففرع أهل (قدي) إلى صالح بيك من قادة جيش الأتراك، فجهز ألف فارس واستنصر الإمبراطور يوهانس، فأتاه الرأس (دهنشوم فنته) بنحو ٨٠٠ مقاتل، وهو أحد الرؤوس التابعين للإمبراطور يوهانس. وزحف الجيشان في ٢٦ نوفمبر ١٨٨٤م على (ود فقرا) الجبرتي في (قدي)، فقتل من جيشه ٧٠٠ رجل بعد أن دارت بينهما معركة طاحنة. وهناك الأمير محمد عثمان أبو قرجة وهو من قادة

جيوش المهديّة البارزين حيث عيّنه المهدي الخليفة عبد الله عاملاً على قبائل الشرق، كما اعتمد عثمان دقنة أميراً للجيش. في حوالي ١٨٨٨م جاء الأمير محمد عثمان أبو قرجة واتفق مع صديقه كنتيبي حامد بيك حسن ناظر على افتتاح ميناء (تكلاي) لتجارة الحكومة السودانية الوطنية؛ حيث كان ميناء تكلاي تحت إشراف كنتيبي حامد بيك، وذلك كبديل لميناء سواكن الذي كان يحتله الأتراك بالإتفاق مع البريطانيين. فصار التجار يأتون بالبضائع من عدن والصومال واليمن ويبيعونها ويشترّون حاصلات السودان بمختلف أصنافها كالعاج والريش والصوغ والدقيق والسمن والعسل، وكان يقيم بميناء تكلاي موظفان من قبل كل من الزعيمين كنتيبي حامد بيك والأمير محمد عثمان أبو قرجة، ويقتسمان الرسوم مناصفة بينهما. ويوجد ميناء تكلاي في إرتريا في محافظة الساحل الشمالي، كما أن كنتيبي حامد بيك بعث بابنه محمد الذي انضم إلى جيش الأمير عثمان دقنة، حيث بقي معه إلى أن توفاه الله.

والجدير بالذكر أن الصداقة التي كانت بين كنتيبي حامد بيك والأمير محمد عثمان أبو قرجة قد انعكست في تسمية ابنه بلقب كنتيبي أبو قرجة الذي كان من رجال الإدارة في السودان؛ حيث كان مأموراً في عدد من بقاع السودان ومن ضمنها سنكات، حيث أن مشاركة إرتريا في الثورة المهديّة كانت واسعة سواء كان بالمديرية الغربية أو كرن أو الساحل.

وهكذا نلاحظ التواصل والتفاعل بين السودان وإرتريا، وهو انعكاس للتفاعل والتواصل الذي شمل منطقة القرن الإفريقي بأكملها.

الباب الخامس عشر

الخاتمة

المصير الواحد

إن منطقة القرن الإفريقي وتحديدًا ابتداءً من مصر وانتهاءً بالصومال وما بينهما، هذه المنطقة وعبر كل الحقب التاريخية كان مصيرها واحداً؛ بل إن مصير هذه المنطقة كان أيضاً مرتبطاً بمصير الجزيرة العربية.

وقد استعرضنا مجيء البرتغاليين لهذه المنطقة عندما كانوا يمثلون قوة بحرية عالمية واستيلائهم على أجزاء واسعة من القرن الإفريقي وجنوب الجزيرة العربية، كما أوضحنا أن تركيا قد برزت كقوة عظمى وامتدت إلى البلقان وشمال إفريقيا وقد فتحت مصر في عام ٩٢٣ هـ - ١٥١٧ م، وإن القائد التركي سنان باشا وفي سنة ٩٣٧ هـ قام بطرد البرتغاليين من البحر الأحمر واحتل كل من [سواكن - جدة - مصوع - زبيد - الحديدة - موخا باليمن - زيلع]، وبعدها فإن المنطقة بكاملها وعلى الشاطئين الشرقي والغربي للبحر الأحمر أصبحت خاضعة للخلافة العثمانية. وحين عاد السلطان سليم من فتح مصر والحجاز وحضر صلاة الجمعة في جامع حلب بسوريا : ختم الخطيب الجمعة دعاؤه بقوله [اللهم انصر خاقان البرين وسلطان البحرين خادم الحرمين الشريفين] فسجد شكراً لله. واستمر هذا الدعاء في جميع أرجاء الخلافة العثمانية بما في ذلك مصر والسودان وإرتريا والصومال. وعندما لقب السلطان سليم بـ (خادم الحرمين الشريفين) فإنه منح أهل الحرمين عدة امتيازات :-

أولاً : عدم تجنيدهم.

ثانياً : عدم تحصيل أي رسوم أو عوائد أو ضرائب سواء كان من أهالي الحضريين أو من أهل البادية.

ثالثاً : جعل مرتبات سنوية للأشراف وزعماء العشائر.

وكذلك كان الحال في سواكن ومصوع لأنهما يُعتبران من مدن الحرمين الشريفين. وظل دعاء الأئمة في المساجد في كل المناطق التي كانت ضمن الولايات العثمانية يقرأ في صلوات الجمعة إلى وقت قريب؛ بل ظل البعض مستمراً في دعائه حتى بعد انتهاء الإمبراطورية العثمانية، وبالنسبة للقب خادم (الحرمين الشريفين) فإن صلاح الدين الأيوبي وعندما تحققت له السيادة على بلاد الحجاز سنة ٥٧٢ هـ فإنه لقب بـ خادم الحرمين الشريفين، كما قام بإرسال الكسوة الشريفة إلى الكعبة الشريفة كل عام في احتفال مهيب ابتداءً من عام ١٧٧٧ م، وأصبحت تقليداً مستمراً ولقرون من بعده، وعندما دبت الشيخوخة في جسد الإمبراطورية العثمانية وأصبحت تُعرف بـ (رجل أوربا المريض) فإنه قد تخلت للخديوية المصرية عن كل مواقعها بالقرن الإفريقي بعد حكم دام ثلاثة قرون.

مصر المظلومة بحكامها الأجانب

ما من دولة أو ملك أو سلطان حكم .. إلا وفكر في امتداد ملكه جنوباً، وكان ذلك منذ عهد الفراعنة ثم الفرس واليونان والرومان والفتح الإسلامي ثم الأتراك أخيراً. وبعض منهم حكموا باسم مصر وهم ليسوا بمصريين؛ حيث ارتكبوا فظائع بحق من حكموهم من شعوب المنطقة ! فالبعض يُحمّل مصر أوزارهم وهي بريئة من ذلك تماماً. ولا ننسى التاريخ المشرف للشعب المصري الذي قاد الثورات والانتفاضات ضد هؤلاء الحكام؛ فالخديوية المصرية وتحديداً أسرة محمد علي باشا وهي ليست أسرة مصرية؛ بل إن مؤسسها محمد علي باشا جاء من ألبانيا وكان ضابطاً بالجيش التركي. إن هذه الأسرة ورثت الممتلكات التركية بالمنطقة وبدأت بتوسيع إمبراطوريتها. وقد توسع محمد علي باشا جنوباً حيث فتح السودان في عام ١٨٢٠م، ثم استمر في توسعه جنوباً حتى الصومال؛ بل تجاوز ذلك إلى مناطق أخرى من شرق إفريقيا، وسار خلفاؤه من الأبناء والأحفاد على نفس السياسة في التوسع، ففي مارس ١٨٨١م صدر المرسوم التالي :

[قد عمل عموم شرق السودان - وهو مديرية التكا وسواكن ومصوع وسنحيت (كرن) والقلابات بتوابعها بما فيها عربان الضبابية - إدارة قائمة منفصلة عن حكمدارية السودان. وتضاف إليها عموم سواحل البحر الأحمر. وتعيين علاء الدين باشا مديراً لعموم شرق السودان].

وكان شرق السودان يتكون من التكا ومن محافظتي مصوع وسواكن وملحقاتها إلى باب المندب. أيضاً كانت تتبع للسودان حكمدارية عموم هرر وملحقاتها، وتتكون من مديرية هرر ومحافظتي زيلع وبربرة وملحقاتها، ومركزها هرر. وفي عهد الخديوي سعيد باشا ازداد توغل جيوش الخديوية داخل إرتريا من قلعتهم في كسلا، فوصلوا إلى تلال وادي بركة وتلال كونا، فأصبحت هذه الأراضي تابعة لمصر. وفي عام ١٨٥٣م بدأت الحملة المصرية على غرب إرتريا بقيادة إلياس بيك حاكم التكا. وفي العام التالي هاجمها خسرو بيك، وأصبح غرب إرتريا تابعاً لهم. وبذلك فرضوا الضرائب على سكان المنطقة. وفي سنة ١٨٧٢م تم تعيين علي رضا باشا محافظاً على سواكن ومصوع مروراً ببربرة وزيلع، وهو الذي استكتب أمير هرر وثيقة ترضى بتبعية بلاده لمصر. وها هي صورتها :-

[من الأمير محمد بن علي عبد الشكور أمير هرر إلى محمد رؤوف باشا في سبعة رمضان سنة ١٢٩٢ هـ الموافق ٧ أكتوبر ١٨٧٥م.

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

أقول وأنا محمد بن علي أمير بلاد الهرر تحت طاعة الله ورسوله ثم تحت طاعة الأعز الأجل فخر الإسلام والمسلمين ناصر شريعة سيد المسلمين كافل جيوش المنصورة محمد رؤوف باشا رفع الله قدره وأقضى عزائمه الذي هو تحت العزيز الأكرم. والوزير المكرم ذوي الفتوحات المتجددة في كل آن، والمزايا التي يتحلى بعقود حسناتها جيد الزمان.

مولانا الخديوي إسماعيل بن مولانا إبراهيم ..

لا زالت كواكب سعوده زاهرة المطابع، ومواكب جنوده قاهرة الطلائع، طائعاً مختاراً من صحتي وسلامتي، قابلاً مسلماً أنا وأهل طاعتي ومملكتي. وكما ذكرته ولمن ذكرته، وأرجو من الله تعالى أن يديم الصولة الخديوية، ورغبت أن أكون تحت طاعة الحكومة الخديوية لآمن على نفسي ومالي وعيالي، وأتمنى السعادة الخديوية مكافأة لصداقتي لها أن يصدر فرماناً كريماً أن الإمارة لي ولذريتي من بعدي، هذا ما دمت صادقاً أنا وذريتي، والله لطلبات ولي نعمتي الخديوي المعظم. وأرجوك أيها الباشا أن تعرض هذا للخديوي الأعظم].

من الأخطاء الفادحة لمن حكموا باسم مصر، رغم ما حملته هذه الوثيقة الموضحة أعلاه من مشاعر طيبة واستعداد كامل لتبعية الخديوي إسماعيل باشا؛ إلا أن محمد رؤوف باشا - قائد الحملة العسكرية الخديوية في أكتوبر ١٨٧٥م الذي وجه له الأمير عبد الشكور أمير هرر وثيقة التنازل والتبعية - فبمجرد دخوله إلى هرر : قام بقتل الأمير عبد الشكور وخمسة وعشرون من أتباعه ! ولذا وبهذه المناسبة قال الصوماليون مثلهم الشائع : (إن أحبوك حاربوك، وإن كرهوك قتلوك !). ومن قبلهم قال السودانيون : (زولين في تربة ولا ريال في طلبه) رفضاً للضرائب الباهظة التي فرضها عليهم الأتراك ثم الخديوية المصرية.

ونعاود القول بأن مصر وأبناءها بريئون مما ارتكبه من جرائم ممن حكموا باسمها، وللتأكيد فإن (عثمان رفقي باشا) - الذي كان حاكماً لمصوع - فبعد نقله إلى القاهرة : تم تعيينه ناظراً للحربية أي وزير للدفاع، وهو الذي واجه ثورة أحمد عرابي ذلك الضابط المصري الذي نبت من صفوف الشعب المصري والذي تبوأ موقعاً مرموقاً لأول مرة في الجيش ليقوم ضد الخديوي ووزير دفاعه؛ بل ضد الحكم الأجنبي؛ فيتصدى له البريطانيون بجيوشهم ويكون مصيره الاعتقال ثم النفي خارج البلاد.

رسل الاستعمار وطلائعه

كانت أوروبا عامة وبريطانيا على وجه الخصوص في القرن التاسع عشر تسعى للهيمنة على إفريقيا بل وعلى العالم، كان ذلك مشروعاً قديماً أي منذ تأسيس شركة الهند الشرقية عام ١٦٠٠م، والتي كانت مقدمة للاستعمار البريطاني. أيضاً تم افتتاح قناة السويس في ١٨٦٩م والتي ربطت البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر ثم بالمحيط الهندي كممر تجاري هام عن طريق مضيق جبل طارق بدلاً من طريق رأس الرجاء الصالح حول القارة الإفريقية.

وبما أن الخديوية المصرية كانت تهيمن على منطقة القرن الإفريقي، فكان لابد من اختراقها من داخلها وإضعافها كتمهيد للسيطرة على كل ممتلكاتها بالمنطقة، وكان ذلك قد تم عن طريق العديد من الأوربيين الذين تم توظيفهم كحكام وعسكريين وهم من مختلف الجنسيات الأوروبية؛ منهم الأمريكيان والبريطانيون والسويسريين والنمساويين وغيرهم ليقدموا تحت الخديوية المصرية، وفي الوقت ذاته يمهدون لدولهم التي قدموا منها. وكنموذج لهؤلاء سنتطرق بإيجاز إلى ثلاثة :-

غردون باشا

وُلد غردون باشا بإنجلترا عام ١٨٢٣م، وهو بريطاني الجنسية، يتحدر من أسرة عملت بالعسكرية حيث اشتهرت وبرعت فيها. لذا انتظم في سلك العسكرية عام ١٨٥٢م. وفي ١٨٦٠م سافر إلى الصين ودخل الجيش هناك حيث قاتل في صفوفه. وفي عام ١٨٦٥م عاد إلى إنجلترا والتحق بالجيش الإنجليزي حيث رُقي فيه إلى رتبة الكولونيل.

وفي عام ١٨٧٤م أوصى ولي عهد إنجلترا الخديوي إسماعيل باشا بأن يتم تعيين الكولونيل غردون بدلاً عن (صموئيل بيكر) كحاكم على مديرية خط الاستواء بالسودان. وقد تم تعيينه بفرمان صادر من الخديوي إسماعيل باشا بتاريخ ٢ محرم ١٢٩١هـ الموافق ١٩ فبراير ١٨٧٤م.

ولمّا كان عام ١٨٧٧م قام الخديوي بتعيينه حكمداراً على السودان بدلاً من إسماعيل باشا أيوب. وكانت مديريات السودان لاتزال مستقلة عن بعضها البعض، فطلب غردون ضمها كلها تحت ولايته. فأجابه على هذا الطلب بالموافقة؛ حيث أصدر له فرماناً بتاريخ ١٧ فبراير ١٨٨٧م بالولاية على جميع بلاد (السودان المصري) مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الأحمر وهرر، ومنحه السلطة العسكرية والمدنية عليها، وأعطاه سلطاناً على القتل والعفو ومنع دخول أحد إلى السودان إلا بإذنه.

عندما عُيّن الجنرال غردون حكمداراً على عموم الأقاليم السودانية بواسطة إسماعيل باشا؛ فإنه منذ قديم عن طريق البحر الأحمر وسواكن واستهل مسؤولياته بزيارة مصوع فيها مدة من الزمن قبل التحرك إلى العاصمة الخرطوم حيث مقره الرئيسي، وفي الطريق بين مصوع والخرطوم مكث شهرين في التجوال بالجمال حيث وصل الخرطوم في مايو ١٨٧٧م.

أيضاً عندما ثار (رأس ولد ميخائيل) الإترري، فإن غردون باشا توجه إلى كرن، وهناك وفي الجبال المحيطة بالمدينة التقى بالثائر الإترري رأس ولد ميخائيل، حيث دخل في شبه اتفاق معه. ثم استمر من هناك في طريقه إلى مصوع. وبعد أيام وصل إلى سواكن في طريق العودة إلى الخرطوم.

وعندما اندلعت الثورة المهدية وسقطت الكثير من الأقاليم بيدها وبهزيمة هكس باشا والقضاء على جيشه بكامله في معركة شيكان الشهيرة .. قام الخديوي في ٢٦ يناير ١٨٨٤م بتعيين غردون باشا حاكماً عاماً مفوضاً على السودان في محاولة لإيقاف توسع الثورة المهدية تمهيداً للقضاء عليها. ولكن في هذه المرة ظل ينطح الصخر برأسه ! لأن الثورة المهدية وصلت إلى مرحلة متقدمة؛ حيث تمكنت من حصار الخرطوم، وطالب قائد الثورة الإمام محمد أحمد المهدي من غردون مراراً بالتسليم وحقق الدماء ضامناً له الأمان على حياته؛ إلا أن غردون قابل كل نداءات المهدي بالازدراء والرفض، وكان لابد مما ليس منه بد؛ حيث اجتاحت جيش الإمام المهدي مدينة الخرطوم، وكانت عاقبة الجنرال غردون هي الموت حيث قُطع رأسه على أبواب قصره وهو يحمل سيفه. ولقد أثبتت

وثائق التاريخ أن غردون باشا الذي كان يحكم بإسم الخديوية المصرية كان في الحقيقة يعمل للتمهيد لحكومته للسيطرة على هذه الأصقاع؛ بل ويثبت أنه قد عمل على إعاقة توسع الخديوية المصرية في شرق إفريقيا. وفي الوقت نفسه كان قد حارب الثورة المهدية بكل طاقته تمهيداً للقضاء عليها وإحلال الحكم البريطاني بالسودان بديلاً لحكم الخديوية المصرية.

وكان الجنرال غردون قد سجل في يومياته : [من الغريب أن هناك صفات عديدة تجمع بيني وبين يوحنا الرابع - يقصد بذلك الإمبراطور يوهانس الذي قتلته الثورة المهدية في القلابات - فهو مثلي متدين وشديد التعصب وله رسالة في الحياة يحرص على أدائها وهي : تنصير كافة المسلمين].

أليس هذا وحده يُعتبر كافياً ليكشف حقيقة المهام التي كان يقوم بها غردون ؟!

بالتأكيد لم تكن الخديوية المصرية قد كلفته بمثل هذا النوع من العمل.

سلاطين باشا

نمساوي الجنسية، ولد عام ١٨٥٧م في فيينا، وكان شاباً صغيراً عمره ١٨ عاماً عندما جاء لأول مرة إلى السودان من أجل السياحة كما يقول في مذكراته. وقد زار [كوريسكو - دنقلا - بربر]، كما زار منطقة جبال النوبة وزار الدلنج واستكشف جبال (غلفان)، بعدها عاد إلى بلاده لتأدية الخدمة العسكرية؛ حيث عمل ضابطاً برتبة ملازم واشترك في حرب البوسنة. وبعد ذلك عاد إلى مصر ودخل في خدمة الخديوية المصرية، فعينه غردون مفتشاً مالياً وكان عمره آنذاك ٢٢ عاماً، وبعدها عينه الجنرال غردون حاكماً على دارفور وذلك في عام ١٨٨٤م لمواجهة الثورة المهدية هناك، وبعودته إلى السودان أن رجع بالبحر إلى سواكن ومنها بالجمال إلى بربر. وبعد توليه مهامه كحاكم بدارفور لم يمضي عليه وقت طويل حتى وقع أسيراً بيد الثورة المهدية، حيث ظل في الأسر حتى تحرير الخرطوم وقيام الدولة الوطنية في السودان. وظل ضمن الملازمين للخليفة عبد الله يدعي والإيمان بالمهدية حتى عام ١٨٩٥م أي ظل ١٧ عاماً ملازماً للخليفة عبد الله. وأخيراً تمكن من الهروب من أم درمان ووصل سالماً إلى القاهرة بعد أن نجح قلم المخابرات البريطاني في تدبير هروبه. وبوصوله إلى القاهرة أصدر كتابه الشهير { السيف والنار } حيث صوّر فيه الثورة المهدية والحكومة الوطنية في السودان أبشع تصوير ! وفي كتابه نسب إلى نفسه الصولات والجولات والبطولات التي خاضها، وروى الكثير من القصص التي يغلب عليها طابع الخيال أكثر من الواقع. وفي نهاية كتابه يستعدي أوريا كلها للنهوض والقضاء على الدولة السودانية الوليدة. ويضع خبرته ومعلوماته ومعرفته بالأراضي السودانية تحت تصرف الجهة التي تتحرك لغزو السودان. ويختتم كتابه بقوله :-

[كما شرحتُ لقرائي كل ما حدث لي على أبسط صورة، ولست أرمي من وراء ذلك إلى توليد الاهتمام والشعور بالخطر في قلوب المهتمين بالأسرى الأوربيين في السودان وحسب؛ ولكن قصدتُ أكثر من ذلك أن تكون لتفاصيلي أهمية كبرى عندما يجد وقت العمل، وعندما يبحث العاملون بحثاً جديداً في خلاص المغلوبين على أمرهم، وعندما

يسنح الله باستخدام معلوماتي ومجهوداتي في سبيل إبادة الظلم الدرويشي وإزالة حكم سيدي الجائر وعدوي عبد الله الذي سيظل ألد أعدائي مدى الحياة التي أحيها في الدنيا.

وقد ترجم سلاطين باشا هذا الحقد عندما عاد ثانية إلى السودان ضمن جيش كتشنر البريطاني الذي قضى على الحكم الوطني في السودان في معركة كرري الشهيرة بالقرب من أم درمان وذلك في ٢٤ سبتمبر ١٨٩٨م، وقد استفاد الجيش البريطاني بكل المعلومات التي كان يخرزنها سلاطين باشا في مهمة فتح السودان. كذلك وبحكم معرفته بالعاصمة الوطنية أم درمان وشخصيات الحكم؛ فإنه وبدخوله إلى أم درمان ارتكب جرائم لا حصر لها بحق هؤلاء ! وإن سلاطين باشا الذي جاء لأول مرة إلى السودان سائحاً ثم موظفاً صغيراً لدى الخديوية المصرية؛ فإنه وفي النهاية احتل موقعاً مرموقاً في السودان بعد الفتح الأخير وذلك منذ عام ١٩٠٠م حتى عام ١٩١٤م عندما أصبح السودان ضمن الممتلكات البريطانية.

ويرنر منزينجر

سويسري الجنسية، حيث نزل في مصوع لأول مرة سنة ١٨٥٤م، وكان شاباً على مستوى ثقافي عالي، وقد جاءها كتاجر ورجل أعمال. وبعد فترة وجيزة استتبعت له أعمال قنصلية لحساب الحكومة الفرنسية، ثم سافر بعدها إلى كرن في منطقة (بوغوص) حيث عاش فيها قرابة سبع سنوات (١٨٥٥ - ١٨٦١ م)، وتزوج خلالها من نساء قبيلة البلين أكثر من مرة، وأتقن التحدث بلغة التجري بالإضافة إلى اللغة العربية. وفي سنة ١٨٦٥م عمل في مصوع بعد أن عاد إليها تحت خدمة الحكومة الإنجليزية كدليل أو ممثل لمصالحها، واستمر بهذا العمل حتى عام ١٨٦٩م. وخلال هذه الفترة قام بالاشتراك مع ثلاثة من الرحالة الألمان بأعمال استكشافية في الأجزاء الغربية والجنوبية الغربية من إرتريا، وعندما عازمت الحكومة البريطانية على تجهيز حملة عسكرية ضد إمبراطور الحبشة تيديروس الذي اعتقل القنصل البريطاني كامبيرون مع بعض الأوروبيين والمبشرين : كان منزينجر من أبرز المستشارين الذين احتلت خبراتهم السابقة بالمنطقة؛ كما أن المعلومات التي مدها للحملة البريطانية ذات أهمية قصوى في تقارير الاستطلاع الأولية التي اعتمدت عليها الحملة البريطانية في سيرها من الشواطئ الإرترية بمنطقة زولا ومروراً بالأراضي الإرترية عبر المرتفعات ووصولاً إلى قلعة (مجدلا) حيث تم القضاء على الإمبراطور تيديروس.

وفي عام ١٨٧١م قام الخديوي إسماعيل باشا بتعيين منزينجر حاكماً على مصوع، والتي قام فيها ببعض الإصلاحات. وفي يونيو ١٨٧٢م قاد منزينجر الجيوش الخديوية من مصوع إلى كرن، واحتل في كرن قلعة سنحيت ثم تمكن بعد ذلك من حماسين ودنكاليا. وفي عام ١٨٧٥م توجه منزينجر على رأس الجيش الخديوي ومعه زوجته السويسرية وكان هدف هذا الجيش هو غزو الحبشة عبر أراضي الدناكل. وكان الجيش عبارة عن أربعة بلوكات توجهت من مصوع عبر خليج (أوبوخ) باتجاه (أوسا)، وفي الطريق نصبت له القبائل العفرية كميناً محكماً وأبادت الجيش عن بكرة أبيه ومعهم منزينجر وزوجتهن ولم ينجو فرداً واحداً من هذا الجيش. ولم تقم قبائل العفر بهذا العمل

اعتباطاً؛ بل كان رداً على ما قام به منزيجر ضد أبطال المقاومة الوطنية الإيطالية أمثال : عبد الله بلال الذي تم اعتقاله وقتله بالسوم، كما أن أراضي دنكاليا لم تكن مستباحة أو مسموحاً بالتحرك فيها من قبل الأجانب، وكل من كان يطأها دون موافقة أهلها قد كان مصيره الموت. ومثالاً لذلك : فقد أباد الدناكل البعثة الاستكشافية الإيطالية برئاسة (جيولوتي) في ٣٠ مايو ١٨٨١م بالقرب من بيلول، وكانت هذه البعثة طليعة للاستعمار الإيطالي لإريتريا. هؤلاء النماذج من الرواد للاستعمار الأوربي والطلانك كانوا كثيرين.

وقد كان آنذاك في الشاطئ الآخر من البحر الأحمر رجل المخابرات البريطاني الشهير لورنس الذي كان يطلق عليه تسمية (لورنس العرب) بعد أن ارتدى الملابس العربية وأجاد اللغة العربية وجاب الفيافي الغفار وسط القبائل العربية ولعب أدواراً خطيرة بالجزيرة العربية لاتزال آثارها الضارة مستمرة حتى اليوم، أمّا الكوكبة من هؤلاء الرجال الذين خدموا تحت الخديوية المصرية فقد أدوا دورهم كاملاً وبتقان؛ حيث كانت النتيجة تجريد الخديوية المصرية من كل ممتلكاتها بالقرن الإفريقي واقتسام الأسلاب وتوزيعها بينهم؛ حيث أصبحت المنطقة بكاملها تحت النفوذ [البريطاني - الفرنسي - الإيطالي] ولم يعد هناك أي وجود أو أثر للخديوية؛ بل إن مصر وقعت تحت الاحتلال الأجنبي !

وهل يا ترى انتهى هذا النوع من النشاط الأجنبي بالمنطقة ؟ وهل انتهى دور هؤلاء الطلائع والرواد للدول الأجنبية ؟
الجواب : قطعاً لا ! فإن [غردون ولورنس وسلاطين ومنزيجر] موجودون اليوم كما كانوا بالأمس؛ بل وبأعداد أكبر وبأساليب أكثر مكرراً ودهاءً وتطوراً وبمهام جديدة وبأسماء أخرى.

أباطرة إثيوبيا وموقفهم المتعارض دوماً مع جيرانهم ومحيطهم

ظل ملوك الحبشة دوماً في حال تعارض وتناقض بل وعداء مع محيطهم العربي والإسلامي، كما تميزوا بالعقلية التوسعية على حساب جيرانهم؛ وظلت هذه الصفة هي القاسم المشترك بينهم. مثال على ذلك : الإمبراطور السابق هيلي سلاسي آخر أباطرة إثيوبيا والذي حكم ٥٧ عاماً، منها ١٣ عاماً من خلال الإمبراطورة المريضة (زوديتو) كوصي على العرش عام ١٩١٧ - ١٩٣٠م، ومنذ ذلك التاريخ حكم كإمبراطور حتى ١٢ ديسمبر ١٩٧٤م.

وخلال هذه الفترة ظل هيلي سلاسي في شبه عداء وجفاء دائم مع جيرانه ! فعندما تقرر استقلال الصومال : فقد عارض الاستقلال مطالباً بضم الصومال إليه مدعياً أنه جزء من إمبراطوريته ويسمى إقليم (بنادر). كما أنه تأمر مع الدول الكبرى على مصير الشعب الإرتري عندما كانت قضيته تناقش في أروقة الأمم المتحدة.

وضمها إلى إمبراطوريته قسراً وذلك في ١٤ نوفمبر ١٩٦٢م تحت سمع وبصر العالم غير مكترث بقرار الأمم المتحدة الفدرالي في عام ١٩٥٠م !

وفي عام ١٩٦٤م دخل في حرب مسلحة مع جمهورية الصومال وهي بداية عهدها بالاستقلال. ومنذ استقلال السودان في يناير ١٩٥٦م ظل هيلي سلاسي يتأمر على وحدة السودان بتغذية التمرد في جنوبه. وفي الوقت الذي كان يخطب فيه ود حكومات بعيدة وراء البحار ويتودد ويتقرب إليها؛ إلا أنه لم تربطه أي علاقة طيبة مميزة بأي من دول المنطقة التي ينتمي إليها. وأن خلفه منقسو هيلي ماريام - ورغم شعاراته الراديكالية جداً - إلا أنه استمر بنفس السياسة حيث ظل في عداء وحروب ومشاحنات مع جيرانه وبالذات إرتريا والسودان والصومال، وعلى مدى ١٧ عاماً حتى سقط وهرب خارج بلاده ! وقد سبقهما إلى هذا السلوك وهذه السياسة كل أباطرة إثيوبيا منذ عهد يكونو أملاك.

أثناء الثورة المهدية في السودان الشرقي ثبتت سنار وكسلا لفترة لم تتمكن فيها الثورة المهدية من الاستيلاء عليهما، وحين علمت الخديوية المصرية بالحالة الخطرة التي بات فيها الجنود في الحاميات الشرقية بعد سقوط الخرطوم وهيمنة المهدي على باقي أجزاء السودان؛ فقد أرسلت إلى يوهنس إمبراطور الحبشة تستنجد به لكي ينقذ حاميات [القلابات - الحيرة - سنحيت - كسلا] ويقوم بتأمين نقلهم إلى مصوع لعودتهم من هناك إلى مصر بالبحر، وقد أوعزت بريطانيا للإمبراطور يوهنس لكي يقوم بهذه المهمة، وإن علاقة بريطانيا بالإمبراطور يوهنس كانت وطيدة بحكم أنه ساعدها في حملتها ضد سلفه الإمبراطور تيدروس مقابل إعطائه أسلحة والاعتراف به إمبراطوراً بديلاً لتيدروس.

وقد قبل الإمبراطور تيدروس بالعرض الجديد مقابل تسليمه الأسلحة والسماح له باحتلال كرن ومصوع، وفي هذا كان يعمل بشكل مباشر ضد الثورة المهدية. وقد بدأ يوهنس تنفيذ ما تم الاتفاق عليه، ففي سنة ١٨٨٢م وصل إلى كسلا رسل إمبراطور الحبشة ومعهم خطاب إلى حاكم شرق السودان، وهذا نصه :-

[من الملك المحب يوحنا ملك صهيون نجاشي الحبشة. وملك ملوكها. إلى حضرة المحب المكرم علاء الدين باشا.

نخبركم أننا بنعمة سيدنا المسيح نحن وجميع عساكرنا ورجال مملكتنا حائزون الصحة والعافية، متمتعون بالراحة الوافية، ونود استمرار العلاقات بيننا وبين حكومة مصر، ونحب تثبيت أحسن الصلات الودية. وإنه مرسل لكم يا محبنا الباشا هدية هي حصان من جياذ الخيل إشارة إلى التودد والمحبة والسلام].

وكان مع هذا الوفد هدايا ثمينة لسمو الخديوي محمد توفيق باشا. والجدير بالذكر أن محمد علاء الدين باشا كان قد عُين محافظاً على سواكن ومصوع في عام ١٨٧٣م، وفي عام ١٨٨١م عُين حكمداراً على عموم شرق السودان.

مساهمة يوهانس في إنقاذ حامية القلابات ٢٨ فبراير ١٨٨٥م

كانت الحكومة في مصر عالمة بمصير الحاميات على حدود الحبشة؛ ولكن لم يمكنها إنقاذها ! فطلبت إلى المالك يوحنا ملك الحبشة أن يساعدها على ذلك فتعطيه المراكز نفسها بما فيها الأسلحة والذخائر، وقد أرسلت إليه الأميرال (هيوت) وماسون بيك منذ شهر يونيو ١٨٨٥م للتفاوض معه رسمياً في هذا الشأن؛ فأقر الملك يوحنا على إنقاذ القلابات أولاً، وندب لهذه المهمة قائده (دهنشوم فنته) وندب لها الكولونيل (تشرميد) باشا محافظ سواحل البحر الأحمر، وفي ذلك العهد القائم مقام سعد بيك رفعت بالنيابة عن الخديوية المصرية. فخرج من مصوع بخمسة وعشرين من الباشبوزق في ١٨ أغسطس ١٨٨٤م، وأتى الملك يوحنا في (عدوه) : فصدر أمر الملك إلى دهنشوم، فسار معه بخمسة عشر ألف مقاتل إلى القلابات، فوصل إليها في ١٢ فبراير ١٨٨٥م، فوجد جيش الثورة المهدية قد حاصرها من جهة السودان بإمارة (محمد ود أرباب)، فدفعوهم إلى (سرف سعيد) وجعل الجيش بينهم وبين المتمة، ثم شرعوا في إخلاء الحامية، فبلغ عدد المهاجرين من عساكر الحكومة الخديوية نحو ثلاثة آلاف نفساً. فسلم سعد بيك الأسلحة والذخائر إلى دهنشوم وخرج بهم كلهم من المتمة يوم السبت ٢٨ فبراير ١٨٨٥م وأتيا (قوندر)، وذهب سعد بيك مع دهنشوم إلى الملك يوحنا فشكر له سعيه. فأهدى إليه الملك بغلتين بسرجين من الفضة ودرقة مذهبة وأنعم عليه بلقب (دجاز ماتش). وتقدم محمد ود أرباب قائد جيش الثورة المهدية بجيشه من (سرف سعيد) واحتل القلابات يوم الخميس ٥ مارس ١٨٨٥م.

مساهمة يوهانس في إنقاذ حامية الجيرة

الجيرة : طابية حصينة على حدود الحبشة، وهي مبنية بالحجر الصلب على أكمة مرتفعة على بحر سيتيت. وعندما حاصرها الثوار السودانيون في المهدية أرسل البكباشي فضل الله قومندان الطابية إلى حاكم مصوع بتاريخ ٢٣ نوفمبر ١٨٨٤م يصف فيه حصاره بما مفاده : [جاءنا الشقي الحسين عبد الواحد منذ مدة وحاصرنا بثمانية آلاف رجل ودعانا إلى التسليم فرددناه بالخيبة. وقد سبق فأخبرتكم بذلك وسألتكم المدد، وكنتم أرجو أن يصلني في شهر فخاب رجائي. الآن أرسل إلى المهدي كتاباً يدعوني به إلى التسليم لأحد أمرائه القريبين كعبد الله أحمد أبي سن أو محمود زايد، وأرسل إلى أمرائه عدة تحاذير بهذا المعنى، وأنا لا أزال أخادعهم وأطاولهم حتى يأتيني المدد].

وكانت الخديوية المصرية تسعى مع الحبشة لإنقاذ جميع الحاميات التي تقع على حدود الحبشة. فكتب إليهم حاكم مصوع في جواب : [إن الحبش آتون لإنقاذكم قريباً، فأخلوا لهم الطابية وسلموهم الأسلحة والذخائر وهم يأتون بكم إلى مصوع]. فأرسل البكباشي فضل الله الملازم إبراهيم أفندي حزين بكتاب إلى الملك يوحنا في (دبر تابور) فجاءه جيش جرار بقيادة (دفيات تسما)، فدخل الأحباش الجيرة في أوائل يوليو ١٨٨٥م واستلموا ما كان بها من الأسلحة والذخائر؛ حيث كان فيها من الأسلحة : [٣٠٠ بندقية رمانتون، و ٦٠٠ بندقية بالكسون، ٣ مدافع، وصاروخ]، وفي ٨ يوليو ١٨٨٥م خرجوا بالحامية بعد استلام السلاح إلى مصوع، فوصلوها في أوائل فبراير ١٨٨٦م. وبهذا الأسلوب أيضاً تم إجلاء حامية سنحيت.

أدى الإمبراطور يوهانس دوره كاملاً ضد الثورة المهدية بناء على اتفاقه مع البريطانيين والخطيوية المصرية؛ حيث استلم الأسلحة التي وعدوه بها؛ ولكن لم يمكنوه من احتلال الأراضي الإرترية. وعندما اكتشف يوهانس هذه الحقيقة حاول أن يقوم بدور مع الخليفة عبد الله ألا وهو الاتفاق ضد الأجانب. وكان ذلك بعد فوات الأوان؛ حيث دخل معركته الشهيرة ضد الثورة المهدية والتي جند فيها كل جيوشه. وكان نهايته على يد جيش الثورة المهدية في المتمة عام ١٨٨٩م.

ولكن الآن وبعد أن طويت صفحة الأباطرة في إثيوبيا وأصبح الشعب الإثيوبي يسير حثيثاً باتجاه أن يكون سيد نفسه وليس مطية للأباطرة والتوسعيين وللدوائر الأجنبية؛ فإن الأمور تسير باتجاه صياغة حديثة لعلاقات إثيوبيا بجيرانها وبمحيطها الذي تنتمي إليه.

خرائط توضح مملكة أكسوم



تحالف الفونج والعبدلاب

الخصائص والدوافع (١٥٠٤ - ١٨٢١م)

كان قيام السلطنة الزرقاء أو سلطنة الفونج نقطة تحوّل هامة في توسع وتوحيد رقعة الدولة السودانية، ومن ناحية التحديد المكاني والجغرافي، المقصود بسلطنة الفونج : هي التي نشأت علي حدود مملكتي المقررة وعلوة في الفترة (١٥٠٤ - ١٨٢١م)، حيث امتدت مملكة الفونج من الشلال الثالث إلى أقصى جبال فازو غلي شمالاً وجنوباً من سواكن علي البحر الأحمر إلى النيل الأبيض شرقاً وغرباً، وكان الحد بين سنار ومشيفة قرى (الحلفايا) مدينة أربجي بقرب المسلمية والتنظيم الإداري من أربجي فصاعداً جنوباً كان تابعاً لملوك الفونج رأساً ولا دخل لمشايخ قرى فيه، ومنها شمالاً إلى الشلال الثالث كان تابعاً لإدارة مشيفة قرى أو العبدلاب تحت سيادة ملوك الفونج. وكانت المملكة منقسمة إلى عدة ممالك ومشيفات من سود ونوبة وحضر وبادية، وكان كل ملك أو شيخ يدفع الجزية لملك سنار، إلا أن له نوعاً من الاستقلال.

والممالك هي : مشيفة خشم البحر، مملكة فازو غلي، مشيفة الحمدة، مملكة بني عامر، مملكة الحنقة. أما الممالك والمشيفات التي خضعت للفونج بواسطة العبدلاب هي : مشيفة الشنابلة، مملكة الجموعية، مملكة الجعليين، مملكة الميرفاب، مملكة الرباطاب، مملكة الشايقية، مملكة الدفار، مملكة الخندق، مملكة الخناق، مملكة أرقو.

أصل الفونج

اختلف المؤرخون حول أصل وموطن الفونج، وكل له حيثياته، وأرجعوا أصل وموطن الفونج إلى الآتي :

- ١ - بلاد الحبشة وبلاد برنو.
- ٢ - منطقة الشلك علي النيل الأبيض.
- ٣ - أصل عربي يعود إلى بني أمية (كما يقول النسابة السودانيون).

أصل العبدلاب

تُجمع أخبار العبدلاب أنهم من أصل عربي صريح، ويرى جيمس بروس أنهم من قریش ويروي أنهم من الأشراف، كما ورد في مخطوطة كاتب الشونة { مخطوط باريس } أن عبد الله القريناتي من عربان القواسمة، وهناك رواية الشيخ عبد الدافع التي ترجع القواسمة إلى جهينة، وتنسب أقدم مخطوطة عبدلابية عبد الله القريني إلى بطن من قبيلة رفاعة من جهة أمه والي الأشراف الحسينيين.

خصائص ودوافع تحالف الفونج والعبدلاب

اختلف المؤرخون والباحثون حول طبيعة ودوافع الحلف الفونجي العبدلابي، فحتى عهد قريب أجمعوا على أن سقوط مملكة علوة المسيحية تم نتيجة لاتفاق ثنائي بين الفونج والعبدلاب، ومن ثم تكونت مملكة الفونج على الجزء الشمالي من السودان الشرقي (أو السودان وادي النيل) من سنة ١٥٠٤ حتى ١٨٢١م، إلا أن دراسات حديثة ابتدعها البروفيسور هولت ترجح أن القبائل العربية بقيادة عبد الله جمّاع هي التي أسقطت سوبا عاصمة علوة، وبعد ذلك تمكن الفونج من هزيمة العبدلاب في أربجي سنة ١٥٠٤م، وبالتالي سيطروا على مملكة الفونج.

وحول خصائص هذا الحلف يري د. يوسف فضل أنه حلف أدى إلى إقامة صرح سياسي جديد، وهو يمثل في قمته نوعاً من الحكم الذي يعطي للفونج الكلمة الأولى في إدارة البلاد كما يمثل نوعاً من التحالف الفضايف بين زعامات أو مشيخات قبلية متعددة بينها وبين العبدلاب من جهة والفونج من جهة أخرى على مستوى أدنى، وكانت مملكة الفونج أبعد ما تكون عن الحكومة المركزية، فليست هناك مؤسسات إدارية متماثلة تنتشر في سائر أنحاء المملكة ربما عدا التنظيم القبلي، وكان تدخل السلاطين في الشؤون الداخلية وتعيين شيخ أو زعيم أو ما يعرف بـ المك (وجمعها مكوك) مكان الزعيم المتوفي ولكن من أسرته الحاكمة. وربما رفضت المشيخات تسديد ما عليها من ضرائب أو الامتثال لاختيار السلطان، ومن ثم فإن قوة جيشه الرادعة كان صمام الأمان لكثير من حالات التمرد والفيصل فيها، ومع وجود هذا التنظيم الإداري الفضايف الذي يكفل قدراً كبيراً من الاستقلال في الشؤون الداخلية، فإن سعة رقعة وتباين شعوبها والمنافسة الكامنة بين الفونج والعبدلاب أدت إلى الكثير من التوترات والتناقضات والتي ربما كانت السبب الأساسي في ضعف المملكة آخر الأمر.

وإن الدافع لاتحاد هذه المملكات والمشايخ اختيارياً هو حاجتها لحماية طرق القوافل التجارية وتطوير التجارة الداخلية والدفاع عن نفسها ضد القارات المحلية والغزوات الخارجية.

إن علاقة الفونج بالعبدلاب كان يحكمها أن الفونج كانوا أقدم مُلكاً وتحضراً وأوسع شهرة، وهذا الوضع منح الفونج امتيازاً تمثل في مظهر أساسي واحد هو اقتطاع جزء من موارد دولة العبدلاب لدولة الفونج، ولم تكن جزية يعطيها العبدلاب عن يد وهم صاغرون، لاحتياج الأمر إلى دليل، وللجهل بمقدار هذا المال ووقت أدائه وخروجه على مفهوم الجزية الذي بينه الإسلام، ولكن هذا الجزء من موارد المشيخة كان يقدم ربما بمقتضي التزام سابق لدعم الحليف الصديق، ورمزاً للتآلف والود بين الحكومتين حين كان الود موصولاً، فلما انفصم بفعل الأيام وصله العبدلاب بهذا المال درءاً للأخطار وثنماً زهيدا للسلم.

وفيما عدا الجزية السنوية التي كان يأخذها السلطان السناري من هذه الممالك - ومنها مشيخة العبدلاب - وحق اختيار من يخلف الحاكم المتوفي في أفراد أسرته : لم يكن له سلطة فعلية على الملوك والزعماء الذين كانوا أحراراً في تصرّيف شئون ممالكهم، ولم تحدد المصادر بدقة قيمة هذه الجزية أو الضريبة التي كانت تدفع لحاكم سنار، ولكن الرحالة السويسري بركهارت في كتابه { رحلات في بلاد النوبة } يقول :

[ليس لملك سنار سلطان على بربر أكثر من حق اختيار ملكها، ولكنه في ظل أربع سنين أو خمس يوفد إليها أحد رجاله ليجمع منها جزية من الذهب والجياد والإبل قوامها عشرون أو ثلاثون بغيراً على التقريب، وكان ملوك دنقلا يؤدون جزية كهذه لسنار، كذلك كان يؤديها عرب الشايقية، ولكنهم أمسكوا عنها بعد أن اشتد ساعدهم أخيراً.

إن الاتحاد الفونجي العبدلابي ورث فيه سلالة الفونج النظام الإقطاعي للعهد النوبي المسيحي وكيفته لظروفها الجديدة، وقُسمت الأراضي بين أطراف الاتحاد في شكل مشيخات ومكوكيات، وأن ذلك الاتحاد كان محاولة لاستعادة واستمرارية الوضع السياسي الذي كان سائداً في مملكة النوبة المسيحية؛ حيث كانت الحروب تسود بين القبائل ولا تخف حدتها إلا بتأثير المصالح المادية عندما لا تكون هناك معاهدة أو اتفاق معقود حسب الأصول، كما يشير إلى أنه : اتحاد اجتماعي قبلي مرتكز على صلات القرى في قمته، أي كان تكويناً اقوامياً ترتب في بنية قائمة على مقاييس اقتصادية واجتماعية تمثلت في احتكار النظام (السلطان) للتجارة.

وحول الحلف الفونجي العبدلابي، اتفق على أن يكون عمارة ملكاً عوضاً عن ملك علوة، وأن عبد الله جماع يكون في مكان العرب، فتوجه واختط مدينة قرى (تحولت إلى الحلفاية فيما بعد) الكائنة عند جبل الرويان بالشرق وجعلها كرسي ملكه، وكذلك عمارة اختط مدينة سنار وجعلها كرسي ملكه. وما زال عمارة وعبد الله كالأخوين، إلا أن رتبة عمارة أعلي وأعظم من رتبة عبد الله إن اجتمعا في مكان، وأما إذا غاب عمارة فيعامل عبد الله كما يعامل عمارة، ولم تزل العادة جارية في ذرايرهم إلى القضاء على ملكهم.

على الرغم من تطور الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية في هذا الجزء من حوض النيل، فإن هذا لم يؤدي إلى استقرار الأحوال فيه بسبب اختلال الأمن والنزاع بين القبائل العربية حول مواطن الرعي من ناحية وبين الوطنيين من ناحية أخرى، مما أدى إلى تدهور الأحوال الاقتصادية وزاد الأمور تعقيداً تعطيل التجارة بين هذه البلاد وبين مصر واختلال سير القوافل بينها بسبب اضطراب الأحوال في منطقة النوبة الشمالية، ولهذه الأسباب ظهرت الحاجة إلى إنشاء حكومة مركزية تخضع لها شتى القبائل المتنازعة لإقرار الأمن وحماية التجارة القديمة.

إن مملكة الفونج هي حلقة أوسع وأرقى في سلسلة تطور الممالك السودانية التي تبدأ بالممالك القديمة (كرمة - نبتة - مروى) ثم النوبة المسيحية (نوباتيا - المقررة - علوة)، وأخيراً مملكة الفونج أو سنار. وبزوال مملكتي المقررة وعلوة، نشأت تشكيلة اقتصادية

اجتماعية كانت تتخلق في أحشاء النظام القديم، وكان لابد من التعبير عنها سياسياً في نظام معين، وهذا النظام عبّر عن التحولات الجديدة التي نشأت بعد انتشار الإسلام والقبائل العربية التي سيطرت على المراعي الخصبة في أواسط وشرق السودان، وكان لابد لهذه القبائل أن تتجه لأواسط السودان وتتركز هناك نسبة لاتساع المراعي على عكس شمال السودان التي كانت فيه الأراضي الزراعية فيه تتركز على شريط النيل إضافة لطبيعة المنطقة الجبلية والصحراوية، وهذا ربما يفسر لنا لماذا انتقلت حضارة مروي إلى منطقة كبوشية بالقرب من شندي وأرض البطانة والتي كانت أكثر خصوبة واتساعاً من المنطقة الشمالية، وربما يفسر لنا لماذا كان وسط السودان (سنار وقرى أو الحلفايا) مركز دولة الفونج والعبدلاب. ولاشك أن تلك القبائل الرعوية كانت متخلفة حضارياً عن شعوب النوبة الزراعية التي كانت تقطن على ضفاف النيل والتي كانت أكثر تحضراً في ميادين الإنتاج الحضاري والمادي، أي أنها كانت تمثل شعوباً مستقرة. وبالتالي فإن نظام الحكم الذي كان سائداً في ممالك النوبة كان يعبر عن ذلك السكون : نظام حكم مطلق لا حقوق فيه للرعية، وكل الذين يعملون في أراضي ملك النوبة عبيد له وغير ذلك، إضافة لعدم وجود شرائع تنظم الحياة العائلية.

وبدخول القبائل الرعوية وبحكم طبيعتها التي ترفض حياة الاستقرار، وليست لها خبرة واسعة وغنية بالزراعة، ولكنها استفادت من خبرات المواطنين النوبيين الأصليين في شكلها المتطور، ولا يعني ذلك أن كل القبائل التي وفدت من الجزيرة العربية كانت تجهل فنون وأدوات الإنتاج الزراعي، فالقبائل العربية التي كانت تقطن جنوب الجزيرة العربية وفي الواحات عرفت الزراعة والساقية وبناء السدود .. إلخ.

استوعبت القبائل العربية القيم المادية في حضارة النوبة وكيفتها تبعاً لظروفها الجديدة، أي أن حضارة النوبة المادية تركت بصماتها في التكوين السياسي الجديد وعلى التشكيلة الاقتصادية - الاجتماعية التي نشأت بعد انتشار الإسلام. وهذا الواقع الجديد كان له انعكاساته في الاتحاد الفونجي - العبدلابي، ذلك أن الاتحاد جاء لامركزياً، وكفل استقلال كل قبيلة في إطار الاتحاد العام، وبالصورة التي أوردها.

في أحشاء التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية الجديدة، ساد نظام إقطاعي جديد غير مطلق كالذي كان سائداً في ممالك النوبة، وهذا النظام كان قريباً من الإقطاع الشرقي الذي كان يوزع فيه السلطان الأراضي على القيادات القبلية والعسكرية والدينية مقابل ضريبة معينة أو خراج معين تدفع للسلطان أو من ينوب عنه، أي أن الناس تخلصوا من عبودية ملك النوبة في ظل النظام الإقطاعي الملكي الذي كان سائداً في بلاد النوبة سابقاً. أي أن النظام الإقطاعي السابق تم تطويره ليتكيف مع الظروف الجديدة، وتلك خطوة هامة في تطور النظام الاجتماعي في السودان، وربما يفسر لاحقاً لماذا لم يشهد السودان بعد ذلك النظام الإقطاعي (نظام القناة القديم) الذي كان سائداً في الإمبراطورية العثمانية وشرق أوربا والذي كان يمتلك فيه الإقطاعيون الأراضي ويعتبرون المزارعين عبيداً لهم.

كما هو الحال دائماً عند نشوء حكم إقطاعي معين في العصور القديمة والوسطى : أن تقوم أسرة أو سلالة معينة تتمتع بقدرات تنظيمية وعسكرية ودرجة معينة من الرقي الحضاري في الغالب مقارنة بما حولها .. تقوم هذه الأسرة بالاستيلاء على السلطة في البلد المعين وتوجد القبائل الأخرى وتخضعها لسيطرتها، ويصبح بعد ذلك نظام الحكم الملكي متوارثاً في هذه السلالة حتى يندثر حكمها وتحل محلها سلالة جديدة. هكذا كان الأمر في الإقطاع الأوربي والشرقي، وهكذا كانت تكون الاتحادات القبلية. وفي السودان وادي النيل حكمت سلالات معينة في ممالك : كرمة ونبتة ومروى وممالك النوبة المسيحية، وبغض النظر عن منشأ تلك السلالات وأصلها، لاشك أنها كانت تتميز بقدرات عسكرية وتنظيمية ودينية جعلتها تفرض سيطرتها على بقية القبائل وتؤسس هذا النظام الملكي أو ذاك. وفي دارفور قامت أسرة سليمان سولونج بتوحيد القبائل العربية والإفريقية حولها وكونت سلطنة دارفور.

كان الاتحاد الفونجي - العبدلابي تعبيراً عن واقع اقتصادي واجتماعي وديني جديد، نشأ بعد انتشار الإسلام وغلبة القبائل الرعوية وانتشارها في أواسط وشرق السودان، وبالتالي لم يكن غريباً أن تبرز سلالة العبدلاب والتي هي من أصل رعوي، كما جاء في رواياتهم السماعية، وتوحد القبائل العربية تحت قيادة عبد الله جمّاع وتقضي على مملكة سوبا التي أصبحت عقبة في حياة هذه القبائل.

وإن الفونج كانوا رعاة بقر أيضاً، وعليه لم يكن غريباً أن تبرز سلالاتي الفونج والعبدلاب، وكل منهما ذات أصل رعوي. وتكوّن الحلف الفونجي العبدلابي الذي عبّر عن الواقع الجديد. وإن سيادة سلالة معينة ليس عسكرياً فحسب، بل أيضاً لأسباب أخرى مثل : التحضر والرقي الذي اكتسبته هذه السلالة، وإنهم أكثر تطوراً وتنظيماً من القبائل الرعوية العربية التي توحدت على يد عبد الله جمّاع.

دافع آخر هام للحلف الفونجي - العبدلابي وهو أنه جاء تعبيراً عن واقع جديد استولى فيه الفونج والعبدلاب على أراضي النوبة الخصبة، كما يحدث عادة في العصور الوسطى، فالتجريد السياسي يعقبه تجريد اقتصادي، وأهم من ذلك الأراضي التي تعتبر ركيزة العمل الأساسية في المجتمع الزراعي الرعوي، والتي تصبح مُلكاً للسلطان أو الملك، وكان لابد من تقنين ذلك الاستيلاء في دولة معينة، وفي قوانين معينة تعبّر عن ذلك الواقع الجديد.

إن الفونج ملكت أرض النوبة وتغلبت عليها أول القرن العاشر، ولم يشتهر في تلك البلاد مدرسة علم ولا قرآن، ويقال أن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها من غير عدة، حتى قدم الشيخ محمود العركي من مصر وعلم الناس العدة، وسكن البحر الأبيض، وبني له قصراً يُعرف الآن بقصر محمود.

إن استيلاء الفونج على أراضي النوبة نتيجة لسيطرتهم السياسية، كما أن تعبير الفونج هنا ربما يدل على هيمنة الفونج في إطار الحلف الثنائي بين الفونج والعبدلاب

والذي نشأ بعد اقتسام السلطة بينهما. أي إذا جاز الاستنتاج والتعبير أنه بقيام دولة الفونج تم طرد الوطنيين الأصليين من أراضيهم، وتم الاستيلاء على سواقيهم وأراضيهم الزراعية، وتلك هي الخطوة الأولى والأساس الاقتصادي لسيطرة سلالة ملكية معينة. وأن التجريد السياسي يتبعه تجريد اقتصادي كما كان يحدث في إقطاع العصور الوسطى وفي الممالك القديمة، وأصبحت جميع الأراضي ملكاً لسلطان الفونج الذي يقوم بإقطاعها للزعامات القبلية أو الدينية أو العسكرية بشروط وحجج معينة. وربما كان تعبير (الفونج ملكت أرض النوبة) تعبيراً مكثفاً عن الهيمنة السياسية والاقتصادية على أرض النوبة.

قبل قيام دولة الفونج كانت بلاد النوبة مسيحية أو وثنية أو خليط بين المسيحية والوثنية، ورغم الاختلاط الذي تم في صدر الإسلام بين المسلمين التجار والرعاة، إلا أن الإسلام لم ينتشر بالشكل الصحيح في بلاد النوبة، وهذا يعكس أن قيام مملكة الفونج شكلت الإطار العام لانتشار الإسلام بالشكل المعروف في التاريخ : تعليم القرآن واللغة العربية في الخلاوي عن طريق الشيوخ ورجال الطرق الصوفية. أي أن النظام السياسي الذي جسده مملكة الفونج أعطى دفعة قوية لانتشار الثقافة الإسلامية واللغة العربية بشكل حاسم في السودان الشرقي أو السودان وادي النيل.

وعن جانب من العلاقات الجنسية بين الرجل والمرأة الذي كان سائداً في بلاد النوبة، فلم يكن هناك زواج بالشكل المعروف الآن أو طلاق بعدة معينة حسب الشريعة الإسلامية، وأنه بقيام دولة الفونج قدم شيوخ الصوفية، وبالتالي عبّر عن نقلة جديدة في العلاقات الاجتماعية وقامت علاقات الزواج والطلاق وتمليك الأرض ونظام الوراثة وفقاً للشريعة الإسلامية والأعراف المحلية، وحلت اللغة العربية محل اللغة النوبية والبقاوية كلغة رسمية.

إذن يمكن القول أن هناك عوامل متعددة أدت إلى قيام الحلف الفونجي العبدلابي أو مملكة الفونج التي شكلت اتساعاً وشمولاً جديداً في إطار وحدة السودان وادي النيل، فلأول مرة بعد عهد مالك النوبة يتم توحيد السودان وادي النيل - ماعدا الجنوب ودارفور - في دولة واحدة، أي أن الدولة السودانية شملت رقعة أوسع في ظروف جديدة، وهذه المنطقة التي شملت دولة الفونج، كانت تقريباً حدود مملكتي المقررة وعلوة.

نبذة عن المؤلف



محمد سعيد ناود

- ✎ من مواليد عام ١٩٢٦م.
- ✎ درس القرآن بإحدى خلاوي بورتسودان.
- ✎ درس الأولية والوسطى بمدينة بورتسودان، وعند جلوسه للانتقال للمرحلة الثانوية في عام ١٩٥٣م كان ناجحاً وتم قبوله بمعهد (بخت الرضا) بالدويم ليصبح معلماً. ولكنه اختار العمل الوظيفي حيث عمل بشركة التلغراف الشرقية (الايسترن) بمدينة بورتسودان.
- ✎ شارك في الحركة الوطنية السودانية من أجل الاستقلال في فترة الدراسة ضمن الحركة الطلابية السودانية. وكذلك ضمن الأحزاب السياسية السودانية أثناء عمله بالوظيفة حتى نال السودان استقلاله.
- ✎ استقال من عمله الوظيفي في عام ١٩٦٥م ليتفرغ كلياً للقضية الإرترية.
- ✎ في الفترة من عام ١٩٥٥م - ١٩٥٧م كان يقوم بجولات سنوية في بعض المدن الإرترية ليتقصى أوضاع إرتريا ودراسة قضيتها حيث كان يشعر بالقلق على مصيرها.
- ✎ في نوفمبر ١٩٥٨م قام بتأسيس وقيادة (حركة تحرير إرتريا) وهي حركة سرية ثورية كانت ترفع شعارات محددة :
- ١ - إلغاء النظام الفدرالي بين إرتريا وإثيوبيا، وإعلان استقلال إرتريا.
- ٢ - الوحدة الوطنية بين الإرتريين.
- ٣ - إيجاد الحكم الديمقراطي بعد الاستقلال.
- وظل مواكباً للثورة الإرترية حتى انتصرت في ٢٤ / ٥ / ١٩٩١م.
- ✎ كتب الكثير عن القضية والثورة الإرترية. كما أن له اهتمامات أدبية حيث أصدر رواية (رحلة الشتاء)، ورواية أخرى بعنوان (المغترب) نُشر جزء منها بمجلة الثورة. وضاعت الرواية قبل أن تُنشر في كتاب وذلك أثناء الاجتياح الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢م.

المراجع

- ❖ كتاب { الحيوان } : للجاحظ.
- ❖ تطور أوضاع المسلمين الإرتريين : د . حسن مكي محمد أحمد.
- ❖ جذور القضية الإرترية : د . حسن سيد سليمان.
- ❖ تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار : الشيخ عبد الرحمن الجبرتي.
- ❖ جبرة والجبرته : د . محمد محمود العياد.
- ❖ الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام : المقرئزي.
- ❖ تاريخ دولة الكنوز الإسلامية : عطية القوصي.
- ❖ تاريخ إرتريا : عثمان صالح سبي.
- ❖ تاريخ [السودان - البحر الأحمر - إقليم البجة] : محمد صالح ضرار.
- ❖ العرب من معين إلى الأمويين : ضرار صالح ضرار.
- ❖ الأحباش بين مارب وأكسوم : ممتاز العارف.
- ❖ تاريخ السودان : نعوم شقير.
- ❖ السودان عبر القرون : د . مكي شبكة.
- ❖ وثائق عن [الصومال - الحبشة - إرتريا] : أحمد برخت ماخ.
- ❖ القضية الإرترية دراسة ونظرية وميدانية : جميل مصعب محمود.
- ❖ إرتريا بين احتلالين : ممتاز العارف.
- ❖ من تاريخ البجة : محمد أدروب أوهاج.
- ❖ حسان ثابت : محمد طاهر درويش.
- ❖ النقوش الكتابية في جزيرة دهلك : رينيه باسيه.
- ❖ الإسلام في إثيوبيا : سبنسر ترمنجهام.
- ❖ أخطاء يجب أن تصحح في التاريخ.
- ❖ إفريقيا التي يُراد لها أن تموت جوعاً : د . جمال عبد الهادي محمد مسعود / د .
- ❖ وفاء محمد رفعت جمعة.
- ❖ الأغاني : أبي الفرج الأصفهاني.
- ❖ الجذور : أليكس هالي.

المحتويات	صفحة
تمهيد	2
الباب الأول : نبذة عن القبائل العربية	7
عرب الشمال	7
عرب الجنوب	7
بنو عدنان وبنو قحطان	7
الأقسام الجغرافية في الجزيرة العربية	9
تهامة / الحجاز / نجد / اليمن / العروض	9
الممالك التي قامت في الجزيرة العربية	10
مملكة معين (٦٥٠ - ١٢٠٠ ق.م)	10
مملكة سبأ (١١٥ - ٩٥٠ ق.م)	10
مملكة الحميريين (١١٥ - ٥٣٥ ميلادية)	11
مملكة الغساسنة (بنو غسان)	11
مملكة الحيرة	11
مملكة تدمر	12
الحجاز	12
المعتقدات الدينية في الجزيرة العربية	13
التجارة	15
الحروب والصراعات بين القبائل في الجاهلية	16
الباب الثاني : الهجرات العربية باتجاه الشاطئ الإفريقي للبحر الأحمر	17
الباب الثالث : ممالك البجة	22
من هم البجة ؟	22
المنطقة التي يسكنها البجة وممالكهم	24
أخبار البجة وحروبهم	26
معاهدة عظيم البجة مع الدولة العباسية	26
استئناف الحرب بين البجة والدولة العباسية	28
الباب الرابع : مملكة أكسوم	29
حروب أكسوم	30
الباب الخامس : من هي إثيوبيا والإثيوبيون ؟	33
الباب السادس : القرن الإفريقي العربي	36
الأديان	36
دخول الوثنية	36
اليهودية	37
المسيحية	38
ما بعد أكسوم والمسيحية بالحبشة	39
تأثر الكنيسة الحبشية بكنيسة الإسكندرية	40

41	المسيحية بالسودان
42	أقول الممالك المسيحية بالسودان
45	الباب السابع : علاقة المسلمين بالممالك المسيحية بالقرن الإفريقي
47	الباب الثامن : الأطماع الخارجية وإثارة التعصب والأحقاد بين شعوب المنطقة
49	الباب التاسع : المصالح وليس الرابطة المسيحية
49	البرتغاليون والحبشة
50	الإمبراطور تيدروس والملكة فكتوريا
51	الحبشة وإيطاليا
51	البريطانيون ووياني تجراي
52	الباب العاشر : ممالك الطراز الإسلامي
53	الدولة الإسلامية الأولى في الحبشة
53	أرض الزيلع
53	مملكة إيفات
55	سلطنة هدية
55	سلطنة فتجار
55	سلطنة دوارو
55	سلطنة شرفة
55	سلطنة بالي
55	سلطنة هرر
55	سلطنة أرابين
55	الجبرته
56	الجات
57	التأثير الثقافي والعلمي
58	الباب الحادي عشر : حروب الحبشة المسيحية مع ممالك الطراز الإسلامي
59	ثورة الإمام أحمد بن إبراهيم الملقب بـ (قرانج = الأشول)
61	ملوك الحبشة المسيحية يستعيدون سيطرتهم ويمارسون الانتقام
62	كانت أهداف البرتغاليين استعمارية وليس دفاعاً عن الحبشة المسيحية
63	مملكة غانا / مملكة مالي
64	مملكة سنغاي / مملكة كانم / دولة المرابطين
67	الباب الثاني عشر : الصومال
68	الثورات والمقاومة
70	ثورة محمد بن عبد الله حسن (مهدي الصومال)
73	الباب الثالث عشر : السودان ومملكة سنار (١٥٠٤ - ١٨٢٠ م)
73	من هم الفونج ومن أين جاءوا ؟

74	دولة العبدلاب
75	توسع مملكة الفونج داخل السودان
75	سنار والسلطان العثماني
76	توسع مملكة سنار باتجاه إرتريا
77	سنار تكسب صيتاً عالمياً كبيراً
77	حروب الحبشة مع مملكة سنار
78	نهاية مملكة سنار
79	الباب الرابع عشر : إرتريا كنموذج للتواصل
79	تواصل إرتريا مع جزيرة العرب وأجزاء من القرن الإفريقي
81	ارتباط إرتريا بالجوار
82	التأثير الديني
83	الشواطئ الإرترية ودورها الهام
83	عدوليس
84	جزر دهلك
87	مصوع
88	مساجد أسمرة
89	مساجد مصوع وغيرها
89	الطرق الصوفية ودورها في نشر الإسلام
91	أهم الأسر الدينية التي أقامت الزوايا لتعليم القرآن والدين في بقاع إرتريا
91	انتساب القبائل الإرترية إلى الأصول العربية
92	موروثات عربية أصلية
93	التأثير اللغوي
95	تفاعل إرتريا مع محيطها يتمثل في موقفها من الثورة المهدية
97	الباب الخامس عشر : الخاتمة
97	المصير الواحد
98	مصر المظلومة بحكامها الأجانب
99	رسل الاستعمار وطلائعه
103	أباطرة إثيوبيا وموقفهم المتعارض دوماً مع جيرانهم ومحيطهم
108	تحالف الفونج والعبدلاب
108	أصل الفونج
108	أصل العبدلاب
109	خصائص ودوافع تحالف الفونج والعبدلاب
114	نبذة عن المؤلف
115	المراجع